دار ابن رشد

هنري ميللر

ترجمة أسامة منزلجي

ربيع أسود

أبيض أسود

هنري ميللر

ترجمة أسامة منزلجي

ربيع أسود

دار ابن رشد للطباعة والنشر

الطبعة الاولى

١٩٨٠م

الشارع الرابـع عشر

ان كل ما لم يكن معرضا للعراء هو مزيف أصلا وأعني بقولي الادب ٠

ترى هل يمكنني ان اكون كما اريـــد لنفسي ام سأكون كما يريدني الاخرون ؟ هنا تصبح هذه الاسطر اعترافا في حضور جانبي المجهول وجانبي الغير قابل للكشف ، مجهول ، وغير قابل للكشف بالنسبة لي ، وهنا اخلق الاسطورة حيث يجب ان ادفن نفسي ٠

ميغيل دو اونامونـو

أنا مواطن – من الحي الرابع عشر في بروكلين ، حيث نشأت ٠ ان بقية الولايات المتحدة لا وجود لها بالنسبة لي ، اللهم الا كفكرة ، كتاريخ ، كأدب ٠ وفي العام العاشر من عمري اقتلعت من تربتي الاصلية ونقلت الى مقبرة ، مقبرة لوثرية ٠ حيث الشواهد منظمة دائما والاكاليل لا تذبل ابدا ٠

الا اني ولدت في الشارع وترعرعت في الشارع ٠ « الشارع المفتوح في عالم ما بعد المكننة حيث توجد اجمل النباتات الحديدية المهلوسة ، الخ ٠٠٠
ولدت تحت علامة برج الحمل التي تمنح جسما متقدا حيويا نشطا والى حد ما قلقا ٠ « **مع المريخ في البرج التاسع !** » ٠

ان تولد في الشارع يعني ان تهيم على وجهك طوال حياتك ، ان تكون حرا ٠ يعني المصادفة ، الطارىء ، الحدث المسرحي ، الحركة ٠ وقبل كل شيء ، يعني الحلم ، تناغم من الحقائق المتنافرة التي تمنح هيامك يقينا ميتافيزيقيا ٠ من الشارع تتعرف على حقيقة الكائنات البشرية ، والا ، او بعد ذلك ، لفقتها ٠ ان ما لم يكن موجودا في عراء الشارع هو زائف ، مستنتج ، او بكلمة اخرى ، هو **الادب** ٠ لا شيء مما يسمى بـ « المغامرة » يقترب من نكهة الشارع ٠ لا يهم ان طرت الى القطب ، او جلست على ارض المحيط مضمد اليد ، او اقتلعت تسع مدن واحدة بعد الاخرى ، او أبحرت ، كما فعل كروتز (١) ، في النهر وجننت ٠ ومهما كان الموقف مثيرا ، او غير محتمل فهناك دائما تحسينات ، وسائل راحة ، ادوات معوضة ؛ صحف ، اديان ٠ ولكن في يوم من الايام لم يكن هناك شيء من هذا ٠ في يوم من الايام كنت حرا ، بهيميا ، متعطشا للدماء ٠٠٠

---

(١) كروتز هو بطل قصة (قلب الظلام) لجوزيف كونراد ٠ — المترجم —

الرفاق الذين بجلتهم عندما نزلت الى الشارع لاول مرة يبقون معك طوال حياتك · هم وحدهم الابطال الحقيقيون · فنابليون ، ولينين ، وكابون – هم مجرد قصص · وان نابليون لا شيء بالنسبة لي اذا ما قورن بايدي كارني الذي اعطاني اول عين سوداء · لم اقابل رجلا في حياتي في مثل بهاء ، وفخامة ونبالة ليستر ريردن الذي كان ، بمجرد مشيته جيئة وذهابا في الشارع ، يلهمني الخوف والاعجاب · ان جول فيرن لم يقدني الى الاماكن الموجودة في كم ستانلي بوروفسكي بعد حلول الظلام · ان روبنسن كروزو بالمقارنة مع جوني بول ينقصه الخيال · كل هؤلاء الشباب من الحي الرابع عشر لا تزال تميزهم نكهة ما · انهم ليسوا ملفقين او مخترعين : انهم حقيقيون · اسماؤهم ترن كالقطع الذهبية – توم فولر ، جيم بكلي ، مات اوين ، روب رامسي ، هاري مارتن ، جوني دن ولا اتحدث عن ايدي كارني وليستر ريردن · ولم لا ، انني الان وانا الفظ اسم جوني بول اشعر بأسماء القديسين تترك طعما بشعا في فمي · كان جوني بول هو الاوديسة الحية للحي الرابع عشر: وكونه صار فيمابعد قائد شاحنةهيحقيقة لا علاقة لهابالموضوع ·

قبل التبدل العظيم لم يكن يبدو ان احدا يلاحظ ان الشوارع بشعة او قذرة · فاذا كانت مجارير الصرف مفتوحة فانك تمسك انفك ، واذا تمخّطت فانك تجد في المنديل مخاطك وليس انفك · كان هناك الكثير من السلام والرضى الداخلي · كان هناك الحانة ، وحلبة السباق ، والدراجات ، نساء سريعات واحصنة خابّة · كانت الحياة لا تزال تسير متمهلة · هذا في الحي الرابع عشر على الاقل · لم يكن احد يرتدي ملابس يوم الاحد الرسمية · واذا نزلت السيدة غورمن وهي في دثارها والقذى لا يزال في عينيها لتنحني للكاهن – « اسعدت صباحا يا أبت ! » « اسعدت صباحا يا سيدة غورمن ! » – يكون الشارع مطهرا من كل الآثام · ويحمل بات ماكارين منديله في حشية ذيل معطفه ، لقد كان شيئا جميلا بارعا ، كزهرة الثغل الموجودة في عروته · كان الزبد يطفو فوق الجعة ، ويتوقف الناس ليتبادلوا الثرثرة ·

في احلامي اعود الى الحي الرابع عشر كعودة مهووس بالعظمة الى هلوساته · عندما افكر في السفن الحربية ذات اللون الفولاذي الداكن في الترسانة البحرية أراها راسية هناك في مسافة فلكية اكون فيها صانع المدافع ، والكيميائي ، والمتعامل بالمتفجرات العالية الانفجار ، والمتعهد ، والمحقق في الوفيات والديّوث ، والسادي ، والمحامي ، والمناضل ، والعالم ، والقلق ، والمضروب الرأس والصفيق الوجه ···

عندما يتذكر الاخرون من فترة شبابهم الحديقة الجميلة ، والام الرؤوم ، والمقام عند شاطىء البحر ، اتذكر انا ، بحيوية وكأنها حفرت بالاسيد ،

---

(١) تجدر الاشارة هنا الى ان اسماء كل الاصدقاء الذين يذكرهم ميلر في هذا الكتاب هي شخصيات حقيقية في حياته ، ويتكرر ظهورها ، او ذكرها على الاقل ، في هذا الكتاب وكتبه الاخرى بصورة مستمرة . (المترجم)

لجدران القاتمة المغطاة بالهباب ، ومداخن التنك للمصنع المقابل لنا ، وقطع لتنك البراقة المستديرة المنثورة في الطريق ، بعضها براق وامض ، واخرى سدئة قاتمة ، في لون النحاس تترك بقعا علــى الاصابع ، اذكر مصانع لحديد ، حيث يتوهج الفرن الاحمر والرجــال يتقدمون من الاتــون المتوهج حملون بأيديهم رفوشا ضخمة ، وفي الخارج توجد الاشكال الخشبية الضحلة كالتوابيت بأعمدة تخترقها عليها تكشط قصبة ساقك او تكسر عنقك ، اذكر لايدي السوداء لصبّابي الحديد ، بحبيبات المعدن التي انغرزت عميقـا في جلودهم ولا شيء يمكن ان يزيلها ، لا الصابون ، ولا شحم الانابيب ، ولا النقود ولا الحب ولا الموت ، وكأنها وصمة سوداء عليهم ! يمشون الى لافران كشياطين ذوي ايد سوداء ، وبعد ذلك ، عندما تنثر فوقهم الازهار ، وهم باردون متصلبون ببزات يوم الاحد ، لا يمكن حتى للمطر ان يزيــل لحبيبات ، كل هؤلاء الغوريلات يذهبون الى الله بعضلات منفوخة ومرض لعصبي في ظهورهم مع أيد سوداء ،

كان العالم كله بالنسبة لي محاطا بتخوم الحي الرابع عشر ، فاذا حدث شيء خارجه فاما أنه لم يحدث أو لا أهميــة له ، اذا خـرج أبي ليصطاد السمك خارج ذاك العالم لم يكن هذا يعني لي شيئا ، أذكر تنفسه الثمـل عندما كان يعود الى البيت في المساء ويفتح السلة الكبيرة الخضراء ويرشق مسوخه الملتوية جاحظة العيون على الارض ، اذكـر انه اذا ذهب رجل الى الحرب كان يعود بعد ظهر يوم احد ويقف امام باب الوزير ثم يفرغ محتويات امعــائـــه ومـــن ثـــم يمسحهـــابثوبــه ، هكـذا كـان روب رامسي ، ابـن الـوزيـر ، اذكـــر ان الجميــعاحب روب رامسي ـ لانــه كان ثافـه العائلة ، احبوه لانه لم يكن ينفع في شيء اما هو فلم يكن يحرك ساكنا بهذا الشأن ، لم يكن ثمة فرق بالنسبة له بين ايام الآحاد والاربعاء : فتراه يمشي في الشارع تحت المظلات التي تقطر ومعطفه على ذراعه ، والعرق يتصبب من وجهه ، وقدماه ترتجفان ، بتلك الخطوة المترنحة الطويلة الثابتة لبحار عائد الى الشاطىء بعد رحلة طويلة ، وعصير التبغ يقطر من شفتيه مع لعنات حميمة صامتة وبعضها عال واخرى بذيئة ايضا ، الكسل الكامل ، لا مبالاة الرجل ، الفواحش ، التدنيسات ، انه ليس رجل دين ، كأبيه ، لا ، انه رجل يلهم الحب ! كانت زلاته زلات انسانيــة وقد حملها بمرح ، بسخرية ، بزهو ، كالرايات ، كان يمشي في الشارع الحميم المفتوح ومصارف الغاز تتفجر ، والجو تملأه الشمس والنجس والتجديفات وقد تكون فتحة بنطاله مفتوحة وحمالته محلولة ، وربما بزته تسطع بالقيء ، احيانا يمشي مرهقا كالثور منزلقا على اربع ، واذا بالشارع يصبح نظيفا كالسحر ، وكأن فتحة المجرور انفتحت وابتلعت فضلات الذبائح ، وقد يقف ويلي مين على سقيفة فوق دكان دهان وثيابه الداخلية منزلقة الى اسفل وهو يهتز طربا بالحياة العزيزة ، وقفا هناك وسط الطقطقة الكهربائية الجافة الصادرة عن

الشارع المفتوح ومصارف الغاز تتفجر • كانا دراجة ترادفية حطمت قلب الوزيـــر •

هكذا كان روب امسي ، رجل في حالة عربدة مستمرة ، عاد من الحرب بميداليات ونار في احشاءه • تقيأ امام باب بيته ومسح القيء بثيابه ، كان يستطيع ان ينظف الشارع اسرع من مدفع رشاش • فوبالا ! هكذا كان الامر • وبعد ذلك بقليل انطلق بدفء قلبه ، بطريقته الجميلة ، الى نهاية دعامة الجسر واغرق نفسه •

اذكره جيدا والبيت الذي عاش فيه • لاننا اعتدنا ان نجلس امام عتبة باب روب رامسي ونجتمع في ليالي الصيف الدافئة ونراقب ما يجري فوق حانة رخيصة عبر الشارع • ويحدث ما يحدث طوال الليل دون ان يزعج احدهم نفسه ويسدل الستارة • يحدث هذا على بعد رمية حجر من بيت المساخر المسمى « البم »،وحول هذا « البم »،تتناثر الحانات ، وفي امسيات ايام السبت تتكون هناك الصفوف الطويلة تخفق وتتدافع وتطن للوصول الى شباك التذاكر • في اماسي ايام السبت عندما كانت الفتاة ذات الرداء الازرق تبدو في بهائها ، عندئذ يقفز احد الرجال القذرين من الترسانة البحرية من مقعده وينتزع واحدا من جوارب ميلي دوليون • وبعدها بقليل من تلك الليلة سيكون من المحتم انهم سيتمشون سوية في الشارع وينحدرون عند مدخل العائلة • وفي الحال سيكونون واقفين في غرفة النوم فوق الحانة ، ينزعون ملابسهم الداخلية الضيقة والنساء يخلعن الكورسيه ويهرشن كالسعادين بينما كن في الاسفل يسفحن ماء الغسيل ويقرصن آذان بعضهن ، وذاك الضحك الثاقب المجلل ، كله محصور بين تلك الجدران ، كديناميت يتبخر • رأينا كل هذا من عتبة باب بيت روب رامسي ، بينما العجوز في الطابق العلوي يتلو صلواته على ضوء مصباح كيروسين ، يصلي كمعزاة فاسقة لتقوم القيامة ، او عندما يتعب من الصلاة ينزل بقميص النوم : كجني خبيث عجوز ، ويتعقبنا بعصا المكنسة •

وبدءا من بعد ظهر يوم السبت وحتى صباح الاثنين تكون فترة لا نهاية لها • فيها تتميع الامور وتتداخل • كان بالامكان ان تشعر في صباح يوم السبت ، والله وحده يعلم كيف ، بالزوارق الحربية راسية في الحوض الكبير • كان قلبي في صباحات ايام السبت في فمي وكان باستطاعتي ان ارى ظهور السفن وهي تُفرك والمدافع تُلمَّع واشعر بثقل الوحوش البحرية الضخمة المستقرة على بحيرة الحوض الراكدة القذرة ثقلا مترفا جاثما فوقي • وكنت قد بدأت احلم بالهروب ، بالابتعاد الى اماكن بعيدة • لكني لم اصل لابعد من الضفة الاخرى للنهر ، وشمالا حتى الجادة الثانية والشارع الثامن والعشرين عن طريق خط بلت • هناك عزفت فالس « براعم البرتقال »

وعند الفواصل كنت اغسل عيني في الحوض الحديدي • كان البيانو قائما في مؤخرة الحانة • مفاتيحه شديدة الصفرة وقدماي لا تصلان الى الدواسات • وارتديت بذلة مخملية لانها كانت موضة تلك الايام •

ان كل ما مر معي في الطرف الاخر من النهر كان جنوناً مطبقاً : الارض الرملية ، مصابيح ارغاند ، وصور الميكا التي لا يذوب فيها الثلج ابـدا ، والهولنديون المجانين ذوو الايدي الملطخة والحوض الحديدي الـذي تغطـى بطبقة طحلبية من الطين اللزج ، وامرأة هامبورغ بمؤخرتها المتدلية من فوق الكرسي ، والفناء الغاص بالكرنب المخمر ••• كان كل شيء يتكرر الـى الابد وخلال ثلاثة ارباع الوقت • مشيت بين ابوي ، بيد في موف امي والاخرى في كم أبي • وعيناي محكمتا الاغلاق ، كالاسماك الصدفية التـي لا تفتـح جفونها الا لتبكي •

ان جميع تقلبات المد والجزر واحوال الطقس التي مرت على النهر هي في دمي • لا ازال اشعر بانحدار الدرابزين الكبير الذي ملت عليه في الضباب والمطر ، والذي اشاع في جبهتي الباردة هبات قارسة من المعدّية وهي تنزلق من مزلقها • لا زلت اذكر الواح المزلق المعشوشبة تتغضن بينما تمخـر المقدمة عباب الماء الاخضر المبهج وهو يتدفق عبـر الالواح المتهادية التي تئن ، ومن فوقنا طيور النورس تنحدر وتغوص مصدرة صوتا قذرا بمناقيرها القذرة • صوت افتراس في وليمة بربرية • صوت افواه محكمة الاغلاق رفضا ، صوت ارجل رافضة ترتطم بالماء الاخضر المضطرب •

ان المرء ينتقل من مشهد الى اخر ، من عصر الى اخر ، من حياة الى أخرى دون فهم او ادراك • ان المرء ليدرك فجأة ، وهو يمشي في الشارع ، بطريقة لا هي بالحلم ولا باليقظة ولاول مرة ان السنين تفر ، وان كل هذا قد مضى الى الابد ولن يعيش الا في الذاكرة ، ومن ثم تتحول الذاكرة الى الداخل ببريق غريب متشبث ويمر المرء على كل تلك المشاهد والحوادث علـى الدوام • في الحلم وحلم اليقظة ، وهو يمشي في الشارع ، وهو مضطجع مع امرأة ، وهو يقرأ كتابا ، وهو يتحدث مع شخص غريب ••• يحدث هـذا فجأة ، لكنه يحدث دائما بالحـاح رائع دائمـا بدقة رائعة ، وتتدخل هذه الذكريات ، تنهض كالاشباح وتنفذ في طبيعة كل مخلوق • من الان فصاعدا صار كل شيء يتحرك على مستويات متغيرة – افكارنا ، احلامنا ، اعمالنا ، حياتنا كلها • انها متوازي اضلاع نسقط فيه من احدى منصات سقالتنا الى اخرى • من الان فصاعدا صرنا نمشي منقسمين الى آلاف الاجزاء ، كحشرة بمئة رجل ، او أم اربعة واربعين ذات الارجل ناعمة الحركة التي تحدق في الفضاء مبتهجة ، تمشي بشعيرات حساسة تنهـل بنهـم مـن الماضي والمستقبل ، وكل شيء يتحـول موسيقـى وحزن • نمشي متحدين عالما

متضامنا نؤكد انقسامنا • واذ نمشي ينقسم كل شيء الى آلاف الاجزاء المتعددة الالوان كقوس قزح • انه تجزؤ النضج • التغير العظيم • في شبابنا كنا كلا واحدا ينفذ فينا رعب العالم وعذابه حتى الاعماق • لم يكن هناك انفصال حاد بين البهجة والحزن ، فقد كانا مندمجين في واحد ، كما تندمج حياتنا الواعية مع الحلم والنوم • في الصباح كنا نستيقظ كيانا واحدا وفي الليل نغوص في محيط ، نغرق كليا ، نتشبث بالنجوم وبحمّى النهار •

ومن ثم جاء وقت بدا وكأن كل شيء قد انعكس فجأة • صرنا نعيش في العقل ، في الافكار ، في الجزئيات • لم نعد نرتشف الموسيقى الخارجية الوحشية للشوارع ـ صرنا نتذكر فقط • كالممسوس الاحادي الذي يلتقط السلك الناظم مرارا وتكرارا ويتقيأه من جديد طبقا لاسلوب لوغاريتمي مستحوذ • فاذا اثارنا صدر ممتلىء فان الصدر الممتلىء لعاهرة هو الذي سيميل علينا ويرينا لاول مرة روعة الكرات الكبيرة البيضاء كالحليب ، واذا ما اثارنا مشهد انعكاسات الضوء على رصيف رطب فهذا لاننا في سن السابعة اغار علينا فجأة تحذير مسبق بالحياة القادمة بينما نحن نحدق بشرود في مرآة الشارع اللامعة السائلة • واذا ما اسرنا مرآى باب هزاز فبسبب ذكرى ليلة صيف عندما كانت الابواب تهتز بنعومة وكان الضوء ينحدر ليداعب الظل ، كانت هناك سيقان ذهبية واربطة ومظلات براقة ومن خلال شقوق الباب الهزاز انسابت الموسيقى والعبق البهي لاجساد مجهولة ، كبعثرة رمل ناعم فوق سرير من ياقوت ، وربما ، عندما انفرج ذاك الباب ليرينا لمحة خانقة من العالم ، كانت تلك هي المعرفة الحميمة الاولى بالاثر العظيم للرذيلة ، المعرفة الاولى بأن هنا عبر هذه الموائد الصغيرة المستديرة المغزولة بالاضواء ، وبينما اقدامنا تكشط النشارة بكسل وايدينا تلمس جذع زجاجة بارد ، هنا عبر هذه الموائد المستدير الصغيرة التي نظرنا اليها فيما بعد بتلك اللهفة والتبجيل ، اقول اننا هنا سيقدّر لنا بعد سنوات آتية ان نكتوي بأول لوعات الحب ، بأول لطخ الصدأ ، بأول الايدي السود المخلبية التي تعمل في الاتون ، بالقطع القصديرية المستديرة اللامعة الملقاة في الشوارع ، بالمداخن الكالحة بلون الهباب ، بشجرة الدرداء العارية تسوط الهواء في برق الصيف وتصرخ وتزعق بينما المطر ينهمر ، والحلزون يزحف خارجا من الارض الحارة بطريقة معجزة ويصبح الهواء ازرقا وكبريتيا • هنا عبر هذه الموائد ، ولاول نداء ، اول لمسة يد ، سيولد ألم ممضّ حاد في الامعاء ويصير الخمر حامضا في الاحشاء وينهض الالم من اخمص القدمين وتدور اعالي الموائد المستديرة مع الالم الممض والحمى في عظامنا لمجرد لمسة يد ناعمة ملتهبة • هنا دفنت اسطورة بعد اخرى من اساطير الشباب والكآبة ، اسطور ليال وحشية واحضان غامضة ترقص على المرآة الرطبة للرصيف ، ونسوة يقهقهن بنعومة وهن يهرشن انفسهن ،

وصيحات البحارة ، وطوابير طويلة تقف امام حجرة الانتظار ، وقوارب تحك بعضها في الضباب وزوارق قطر تحشرج بعنف في وجه اندفاع المد والجزر بينما جلس رجل على جسر بروكلين ينتظر ليرمي بنفسه في البحر ، او ينتظر ليكتب قصيدة ، او ينتظر دمه ليغادر عروقه لانه لو تقدم خطوة اخرى لقتله اسى حبه ٠

بلازما الحلم هو ألم الفراق ٠ والحلم يبقى حيا بعد فناء الجسد ٠ نجوب الشوارع بآلاف الارجل والاعين بهوائي من الفراء يلتقط اوهى حلول الماضي وذكراه ٠ وفي خضم تجوالنا التائه نتوقف قليلا بين الحين والاخر ، كنباتات طويلة لزجة ، ونبتلع لقمة الماضي الشهية كلها ٠ ننفتح مستسلمين خانعين لنمتص الليل ومحيطات الدم التي اغرقت نوم شبابنا٠ ونروح نشرب ونشرب في ظمأ لا يرتوي ٠ لن نصبح كلا واحدا بعد الان ، بل سنعيش متناثرين وكل جزء يفصله عن الاخر غشاء واه ٠ لذا فعندما يقوم اسطول بمناوراته في الباسيفيك عندها تومض بطولة الشباب بأكملها امام عينيك ، انها حلم الشارع المفتوح وصوت انحدار طيور النورس وغوصها وهي تحمل النفاية بمناقيرها ، او هي صوت البوق ورايات، تخفق وكل الاصقاع المجهولة على الارض تبحر امام عينيك بلا تواريخ ولا معنى ، تتدحرج كسطح طاولة في بريق من الوان متعددة من القوة والمجد ٠ ويأتي يوم تقف فيه على جسر بروكلن تنظر الى اسفل الى المداخن تنفث دخانا ومواسير البنادق تلمع والازرار تلمع وينشطر الماء بأعجوبة اسفل مقدمة المركب الحادة القاطعة ، وتمخض الماء لوني الازرق والاخضر بتوهج بارد ، كثلج وشريط ، كانكسار وتدخين ، مع برودة الشمبانيا وخياشم محروقة ٠ وتشق مقدمة المركب الماء بمجاز لا ينتهي : ويتقدم جسم المركب الثقيل ، والمقدمة تقوم بعمل الشق ابدا ، وثقلها هو ثقل العالم الذي لا يمكن وزنه ، والغوص عميقا في الاغوار البارومترية ، الى العرق الجيولوجية المجهولة والكهوف التي يجري فيها الماء بايقاع منغم والنجوم تتهاوى وتموت وايد تمتد وتمسك وتتمسك ولا تتشبث ابدا او تحكم الامساك وانما تتمسك وتمسك فقط بينما تنهار النجوم واحدا بعد اخر ، بالآلاف وآلاف من العوالم تغوص عميقا داخل توهج بارد ، داخل ليل معتم من الاخضر والازرق مع ثلج مكسور واحتراق ٠ الشمبانيا وصرخة النوارس الخشنة ، بمناقيرها المثقلة بالبرنفيل ، وافواهها الملوثة بالنفايات دائمة الامتلاء تحت صمت زافدة السفينة ٠

ينظر المرء الى اسفل (من جسر بروكلن الى بقعة من الزبد اوابحيرة صغيرة من الغازولين او الى شظية او ماعون مفرغ والعالم يجري من حولك يتخبط بالالم والنور يلتهم الاحشاء وجوانب اللحم تتفجر ، والسهام تضغط بشدة مخترقة الغضروف ، ويطفو الدرع الذي يقي الجسد مبتعدا في العدم ٠ وتجتاحك كلمات مجنونة من العالم العتيق ، اشارات وبشائر ، والكتابة

الجدارية ، الشقوق في باب الحانة ، لاعبو الورق بغلايينهم الطينية ، الشجرة الكالحة المستندة على مصنع التنك ، والايدي السود الملطخة حتى بالموت • يمشي المرء في الشارع ليلا والجسر قائم في وجه السماء كقيثارة وعيون النوم المتقرحة تلتهب في الاكواخ ، تنزع الزهر عن الحيطان ، ينهار الدرج في ضباب الدخان والفئران تعدو عبر السقف ، وصوت مسمر على الباب ، واشياء زاحفة طويلة بهوائيات من الفرو وآلاف الارجل تسقط من الغلايين كحبات العرق • اشباح دموية سعيدة وصراخ ريح الليل ولعنات رجال ذوي ارجل دودية ، توابيت واطئة قليلة العمق بأعمدة تخترق الجسد ، بصاق الالم يسيل في اللحم البارد الشمعي ، يلفح العيون الميتة والجفون القاسية الرقاقية للسمك الصدفي الميت • يتحول المرء في قفص دائري على مستويات متغيرة ، نجوم وغيوم تحت السلم المتحرك ، وجدران القفص تدور ولا وجود لرجال ونساء دون اذيال ومخالب ، بينما كتبت احرف الهجاء فوق كل الاشياء بالحديد والبرمنغنات • ويدور المرء ويدور في قفص دائري على دوي طبل الحريق ، المسرح يحترق والممثلون يتابعون القاء ادوارهم ، المثانة تتفجر ، الاسنان تسقط ، لكن نواح المهرج كضجيج سقوط قشور الرأس • يتجول المرء في ليال ظلماء في واد من فوهات البراكين ، واد من نيران خامدة وجماجم مبيّضة ، وعصافير بلا اجنحة • ويمشي المرء يدور ويدور يبحث عن المحور والعقدية Nodality • لكن النيران احترقت حتى الرماد وجنس الاشياء مخفي في اصبع قفاز •

ومن ثم في احد الايام ، وكأن اللحم قد اهترأ فجأة والدم تحت اللحم التحم مع الهواء ، فجأة صار العالم يهدر من جديد ، وحتى الهيكل العظمي للجسم راح ينصهر كالشمع • قد يحل هذا اليوم عندما تقابل دوستويفسكي لاول مرة • فتتذكر رائحة مفرش الطاولة الذي يحمل الكتب ، تنظر الى الساعة فتجد انها قبيل حلول الابدية بخمس دقائق ، فتعدّ الاشياء الموجودة على رف المدفأة لان جَرْس الارقام صار جديدا كليا في فمك ، لان كل ما هو جديد وعتيق ، او ملموس ومنسي ، هو نار ونوم مغناطيسي • والان فتحت جميع ابواب القفص واي طريق تمشي فيه هو خط مستقيم يصخب المجلجلون عبره وتنقضّ جلاميد الرخام والنيلة لتبرّد بيوضها المحمومة • ومن الامواج تخرج الاحصنة المصقولة في خطوة فوبيفورية شامخة متبخترة والتي مشت مع الاسكندر ، ببطونها المتلئبة فخرا المتوهجة بالكالسيوم ، مناخيرها مغموسة بصبغة الافيون • والان غطى الثلج والجليد كل شيء وشريط كبير يحمل شعار الجوزاء معلق من منفرج المحيط •

كانت الساعة تشير الى تمام السابعة وخمس دقائق ، عند زاوية برودواي وشارع كوسيوسكو عندما ومض دوستويفسكي لاول مرة في افقي • كان هناك رجلان وامرأة يهندمون واجهة دكان ، وبدءا من الجزء العلوي من

قدام تماثيل العرض والى اسفل مؤلّف كله من أسلاك ، وكانت هناك صناديق حذية فارغة اسندت الى طرف الواجهة كثلوج العام المنصرم ..

فهكذا اتاني اسم دوستويفسكي ، بلا انتباه ، كصندوق حذاء فارغ . كان لليهودي الذي لفظ لي اسمه شفتان غليظتان ، فمثلا ما كان باستطاعته ن يقول فلاديفوستوك ولا كارباثيون ـ لكنه يستطيع ان يلفظ دوستويفسكي طريقة قدسية الروعة . وحتى الان عندما الفظ اسم دوستويفسكي تتهيأ امامي شفتاه الضخمتان المكتنزتان وخيط اللعـــاب الرفيـع يمتد كشريط مطاطي عند لفظه الاسم . كان بين سنيه الاماميين مسافة اكثر من عادية . وكانت كلمة دوستويفسكي ترتعش وتمتد من منتصف هذا التجويف تماما . كان غشاءا لعابيا كثير الالـوان تجمع فيه ذهب الشفق كله ـ فقـد كانت لشمس قد بدأت تغرب لتوها عن شارع كوسيوسكو وحركة السير من الاعلى تقتحم ذوبان ثلج الربيع ، بضجيج طاحن هادر وكأن تماثيل العرض بأرجلهم السلكية يمضغ بعضهم بعضا احياء . بعد ذلك بقليل عندما وصلت الى رض الهوينهنهم (١) سمعت فوقي نفس ضجة المضغ والطحن وايضا نفس اللعاب في فم الرجل يرتعش ويمتد ويومض بتعدد الوانـــه فـــي الشمس النافقة . حدث هذا هذه المرة في محل « حلقوم التنين » . فقد وقف رجل الى اعلى مني يمسك عصا من الروطان ويضرب بها ضربا مستمرا يبتسم ابتسامته العربية الضارية . ومن جديد ، وكأن عقلي صار رحمـا ، افسحت جدران العالم الطريق . رن اسم سويفت كصوت تبول صعب صاف علـــى غطاء العالم المصنوع من التنك . والى اعلى كان آكل النار الاخضر بأمعائه الدقيقة ملفوفة بقماش التربولين ، وسنّيه الضخمين الابيضين بياض الحليب يعضان على حزام بمسننات مدهونة بشحم اسود وموصول بصالة الرماية والحمامات التركية . كان الحزام المسن ينزلق على اطار من العظام الكاشفة . يتحرك تنين سويفت الاخضر فوق المسننات بصوت باسّ لا ينقطـع يطحن محدثا صريرا رقيقا ويزيد في قِصَر الاقزام المحشورين كعيدان المعكرونة . دخولا وخروجا من المريء اعتلاء لعظام الكتف وانحدارا منها وحولها وحول الحلمة المثلثة ، سقوطا في هوة الاحشاء التي لا قرارة لها بقرقرة وبلا قرقرة والانفراج يتسع وينزلق ، والمسننات تتقدم بلا رحمة تطحن عيدان المعكرونة القصيرة احياء وبرقة وهي متدلية من اصداغهم من أعقيق التنين الاحمـر ، ونظرت داخل ابتسامة المنادي البيضاء كالحليب ، تلك الابتسامة العربية المتفصية التي خرجت من نار أرض الاحلام ، ومن ثم تقدمت بهدوء داخل بطن التنين المفتوح . وبين الاضلاع الجنونية للهيكل العظمي التي تمسك المسننـــات

---

(١) المقصود بها ارض الخيول التي تتكلم في قصة جوناثان ســـويفت الشهيرة (رحلات غوليفر) .

الدائرة مع بعضها تمتد ارض الهويهنهنم امام ناظري ، وتلك الضجـة الهاسّة الباسّة في اذني وكأن لغة الناس مؤلفة من ماء سلتزر • وفي كـل مكان فوق الحزام الاسود المشحم ، عبر الحمامات التركية ، خلال بيـت الرياح ، فوق المياه السماوية الزرقة ، بين الغلايين الطينية والكرات الفضية المتراقصة على نوافير مائية يوجد عالم اشباه البشر مـن آلات فيدوراس والبانجو الموسيقية ، والمناديـل المزركشة والسيجـار الاسود ، وحلـوى البترسكوتش التي تمط من طرف الـى طرف ، انفجار زجاجات البيرة ، وزجاجات الدبس المغزولة ،واطباق الطحال الساخنة ، وهدير امواج الشاطىء . وأزيز القلي في المقلاة ، الزبد وشجـر الاوكاليبتوس ، رهبـة ، طباشير ، قصاصات ورق ملون ، فخذ امرأة ابيض ، مجذاف مكسور ، ضجيج الـواح خشبية ، لغز ميكانو ، والابتسامة التي لا تغيب عن الذهن ، الابتسامـة العربية ذات الالسنة النارية ، العقيق الاحمر ، الامعاء الخضراء••

آه ايها العالم ، ايها المشنوق المنهار ، اين الاسنان البيضاء القـوية ؟ آه ايها العالم ، الغارق في الكرات الفضية وسدادات الفلين وطوق النجاة ، اين فروات الرؤوس الوردية ؟ آه ايها الاجرد ، الآحي اللزج ، آه ايها العالم الاجرد الذي مُضِغَتْ حتى الاهتراء ، تحت اي قمر ميت تستلقي باردا لامعا ؟

اليوم الثالث أو الرابع من الربيع

[فليكن بولنا حارا وشرابنا باردا، يقول تريمالخيو، لأن أمنا الأرض هي في الوسط ، جعلت مستديرة كالبيضة ، تحوي جميع الأشياء الطيبة داخلها ، كقرص عسل (١) •]

---

(١) هذا المقطع مأخوذ من كتاب « ساتيريكون » ، من فصل ـ عشاء عند تريمالخيو ـ حيث يصور الكاتب خلال هذا الفصل الطويل جوانب هامة من الحياة الرومانية المتفسخة خلال القرن الاول للميلاد ، ويعتبر هذا الكتاب ، بالنسبة للادب الاوروبي الحديث ، أول رواية واقعية لما يتصف به من بساطة متناهية وبعد عن التكلف في الصياغة الادبية ، بالاضافة الى حساسية المؤلف ومعرفته الشخصية لكل ما كتب عنه من مظاهر الإنحطاط والفساد في كل جوانب الحياة : الاجتماعية ، والاخلاقية ، والادبية ، والفكرية ، الخ . ولا شك أن هنري ميلر تأثر بأسلوب هذا الكتاب تأثرا بالغا ، خاصة باعتباره وثيقة دقيقة لشاهد عيان . الا أن أسلوب ميلر السريالي جعل كتابه يكتسب نضجا رؤيويا فريدا . وبترونيوس ، مؤلف ساتيريكون ، متوفي عام ٦٦ ميلادي ولا تذكر له المصادر مؤلفات اخرى . عاش حياة ملآى بالمتع والمسرات ، بما انه كان في بلاط الامبراطور نيرون : الا انه امر بالانتحار بعد اتهامه بخيانة الامبراطور (المترجم) .

لم يكن في البيت الذي قضيت فيه اهم سنوات حياتي الا ثلاث غـرف ٠ مات جدي في احداها ٠ في الجنازة كان حزن امي من الشدة والعنف حتى كادت تنزع جدي من التابوت ٠ بدا منظره مثيرا للسخرية ، اقصد جدي العزيز ، وهو يبكي من خلال دموع ابنته ، وكأنه يندب جنازته هو ٠

في غرفة أخرى ولدت عمتي توأما ٠ ولما سمعت كلمة توأم ، وكانت عمتي نحيفة عجفاء ، قلت لنفسي ـ ولماذا توأم ؟ لماذا لا يكون ثلاث ولماذا لا يكون رباع ؟ لماذا تتوقف ؟ كانت سقيمة جدا وهزيلـة ، والغرفـة صغيرة جدا ـ بجدران خضراء وبالوعة حديدية قذرة في الزاوية ٠ ومع ذلك كانت الغرفـة الوحيدة في البيت التي انتجت توأما ـ او ثلاثا او حميرا ٠

الغرفة الثالثة كانت كالفجوة فيها أُصِبت بالحصبة ، وجد"يرة المـاء والحمى القرمزية ، والدفتيريا ٠٠٠ الخ : اي كل امراض الاطفال الجميلة التي تجعل الزمن يمتد بنعيم وبركة ابديين ، خاصة عندما ترسل العناية الالهية نافذة فوق السرير بقضبان وغيلان تقبض عليها متشبثة وعرق بكثافة الدمل ، سريعة كالنهر وتنبت ، تنبت وكأن الوقت هو ربيع دائم واستوائي ، مـع شرائح سميكة من لحم الخاصرة من ايـد وارجـل اثقـل من الـرصاص او خفيفة كندف الثلج ، ارجل وايد تباعد بينها محيطات من الزمن او مناطـق شاسعة من النور لا يمكن تجاوزها ، كتلة الدماغ الصغيرة مخبأة كحبة رمل واظافر القدم تتعفن بمنتهى السعادة تحت اطلال اثينا ٠

في هذه الغرفة لم اسمع سوى صرعات الجنون ٠ ومع كل مرض منعش جميل يصبح عقل ابوي" اكثر عمقا (تصور ، عندما كنتَ لا تزال طفلا صغيرا اخذتك الى الحوض وقلت لك لا اعتقد يا صغيري انك تريد ان تشرب مـــن

الزجاجة بعد الان أليس كذلك وقلت لي لا فكسرت الزجاجة في الحوض) ٠ الـى هـذه الغرفة أتـت الانسـة سونوفسكا تخطو بنعومة (قـال الجنـرال سميردياكوف « بنعومة تخطو ») وهي عانس في سن يثير الريبة بثوب اخضر قاتم ، ومع دخولها دخلت رائحة الجبن العتيق ـ وصارت رائحتهـا الجنسية زنخا يفوح من تحت ثوبها ، لكن الآنسة سونوفسكا جلبت معهـا ايضا حقيبة القدس والاظافر التيّ غرزت عميقا في يديّ اليسوع حتـى ان التجاويف لم تزل ابدا ٠ ومع الحملات الصليبية أتى الموت الاسود ، ومـع كولومبوس اتى السفلس ومع الانسة سونوفسكا أتت الشيزوفرينيا ٠

شيزوفرينيا ! لم يعد احد يفكر ابدا كم هو رائع ان ينهش المـرض جسد العالم كله وليس ثمة ادنى ذكر او خيال لوجود صحة ٠ ربما كان الله نفسه حمى تيفيّة ٠ لا وجود لمطلقات ، بل مجرد سنين ضوئية مـن التقدم المؤجل ٠ عندما افكر في تلك العصور التي صارعت خلالها اوروبا الموت الاسود ادرك كم يمكن ان تكون الحياة متوقدة لو اننا اصبنا في المكان المناسب ! يا لروعة الرقص والحمى وسط هذا الدمار ! ربما لن تسنح الفرصة لاوروبا ان ترقص بنشوة كهذه ٠ والسفلس ! يا لمجيء السفلس ! كان هناك معلقا كنجم الصباح فوق حافة العالم ٠

عام ١٩٢٧ جلست في البرونكس انصت الى رجل يقرأ من مفكرة مدمن مخدرات ، وبالكاد استطاع الرجل متابعة القراءة ، فقد كان يضحك ضحكا عاليا ٠ كانتا ظاهرتين متناقضتين تماما : رجل يتمدد على luminal مشدود حتى خرجت قدماه من النافذة ، تاركة النصف العلوي من جسمه في نشوة ، الرجل الاخر ، وهو نفس الرجل يجلس في البرونكس وهو يضحك حتـى يكـاد يلفظ احشاءه لانه لا يفهم ٠

نعم ، ان شمس السفلس العظيمة تغرب ٠ قصر نظر : هـذا هـو مستقبل برونكس ، واميركا ، والعالم الحديث بأكمله ٠ قصر نظر مصحوب بنوبات من الضحك ٠ لا نجوم جديدة في الافق ، بل كوارث ٠٠٠ مجرد كوارث ٠

افكر في الزمن الاتي حين سيولد الله من جديد ، حين سيحارب الرجال ويقتلون من اجل الله كما يفعلون الان وسيظلون لزمن طويل من اجل الطعام ٠ افكر في ذاك العصر عندما سينسى العمل وتحتل الكتب مكانتها الصحيحة في الحياة ، حين لن يكون هناك كتبا ربما ، وانما كتاب واحد كبير عظيم ـ انجيل ٠ بالنسبة لي الكتاب هو الانسان ، وكتابي هو الانسان الـذي هو انا ، المضطرب ، المتهاون ، المتهور ، الشهواني ، داعر ، عاصف ، مفكر ، شكاك ، كذاب ، رجل متمسك بالحقيقة بشكل شيطاني كما انا ٠ افكر اني في العصر الاتي لن اهمل ٠ عندئذ سيصبح تأريخي شيئا هاما والندب الذي

اتركه على وجه العالم سيكون مميزا • لا استطيع ان انسى انني اصنع تاريخا ، تاريخا في الجانب الذي ، كالقرحة التناسلية ، سيلتهم التاريخ الاخر التافه • انني لا اعتبر نفسي كتابا ، او سجلا ، او وثيقة ، بل تاريخا لعصرنا – تاريخا لكل العصور •

ان كنت تعيسا في اميركا ، اذا تقت الى مدى اوسع ، الى مغامرة اكثر ، حرية تعبير اكثر ، فلانني احتجت الى هذه الاشياء • انني ممتن لاميركا لانها جعلتني اعي احتياجاتي • لقد استوفيت عقوبتي هناك • والان لم يعد لي احتياجات • انني رجل بلا ماض ولا مستقبل • انا موجود – وهذا كل شيء • لست مهتما بما يعجبك وبما لا يعجبك ، لا يهمني ان كنت مقتنعا بصحة ما اقول ام لا • وسيان لدي ان تخليت عني هنا والان • لست مرذاذا تضغطني فأرسل رذاذ الامل • ارى اميركا تنشر الدمار • ارى اميركا لعنة سوداء على العالم • ارى ليلا طويلا يحل وذاك الفطر الذي سمّ العالم يذوي من جذوره •

اذن فأنا اكتب هذا الكتاب بشكل محموم مع هاجس مسبق بالنهاية – سواء حلت غدا او بعد ثلاثماية سنة – وافكاري تخرج مختلطة بين الحين والاخر ، حتى اني مجبر على اضاءة اللهب من جديد مرة بعد اخرى ، ليس بالشجاعة وحدها ، بل وباليأس – لاني لا اثق بوجود من يقول هذه الاشياء عني • ان تعثري وتقدمي المضطرب ، وبحثي عن كل وسيلة من وسائل التعبير ، هو نوع من التلعثم العلوي • يا لذهولي امام الانهيار المجيد للعالم !

في كل ليلة ، بعد العشاء ، احمل النفايات الى الفناء • وعند صعودي عائدا بالسطل الفارغ اتطلع من نافذة مسطبة السلم الى كنيسة « القلب المقدس » عالية هناك فوق هضبة مونمارتر • وفي كل ليلة ، عندما احمل النفاية الى الساحة ، اتخيل نفسي واقفا فوق هضبة عالية وسط بياض باهر • ليس قلبا مقدسا من يلهمني ، ولا افكر في مسيح • انه شيء افضل من المسيح • اكبر من القلب ، يقع ما وراء الله العظيم انني افكر في – نفسي• انا انسان • ويبدو لي هذا كاف •

انني رجل الله ورجل الشيطان • اعطي لكل حقه • لا شيء ابدي ولا شيء مطلق • امامي تمثل دائما صورة الجسد ، آلهنا الثالوثي المؤلف من القضيب والخصيتين • الى اليمين الله الآب ، والى اليسار ومتدلٍ قليلا الى الاسفل الله الابن ، وبينهما الى اعلى يقع الروح القدس • لا يمكنني ان انسى ان هذا الثالوث المقدس هو مِنْ صُنع الانسان وانه خاضع لتغيرات لا متناهية – ولكن ما دام مخرجنا من الارحام بأذرع وارجل ، وما دام هناك

نجوم فوقنا تبث فينا الجنون وعشب تحت اقدامنا يوسد المعجزة فينـا ، ما دام هذا قائما فسيؤدي جسدنا جميع الانغام التي قد نصفرها ٠

اليوم هو اليوم الثالث او الرابع من الربيع وانا جالس في بلاس كليشي والشمس ساطعة ٠ اليوم ، وانا اجلس هنا تحت الشمس ، اقول لك انه لا يهمني البتة ان كان العالم على حق ام على خطأ ، خيّرا ام شريرا ٠ لا يهم ان كان العالم سيؤول الى الكلاب ٠ انه موجود ٠ وهذا كاف ٠ العالم هو ما هو عليه وانا ما انا عليه ٠ انني لا اقول هذا على طريقة بوذا الجـالس بقدمين متصالبتين ، وانما بحكمة بهيجة صعبة ، كل هذا ، كل شيء ، هو نتيجة قوى لا يمكن تفسيرها ، هو فوضى عظمى نظامها يقع وراء الفهم ٠

امشي كواحد من البشر متجولا عند الفجر ، او عند الغسق ، في ساعات غريبة ، في ساعات علوية ، يقويني الاحساس بالوحدة والانفراد الـى درجة انني عندما امشي مع الجموع ولا اعود ابدو مخلوقا بشريـا بل مجرد ذرة ضئيلة ، مقدار بصقة ، ابدأ بالشعـور انــي وحيـد محاط بأروع الشوارع الخالية ، مخلوق آدمي يمشي على اثنتين بين ناطحات السحاب بعدما هرب جميع السكان وانا وحدي امشي ، اغني ، افرض اوامري على الارض ٠ لست مجبرا على النظر في جيب صدارتي لاجد روحي ، انها موجودة طوال الوقت ترتطم بأضلعي ، تنتفخ تتضخم بأغنية ٠ اذا تركت جمعا لتـوي وافقوا كلهم على ان كل شيء صار مواتا الان وانا امشي خلال الشوارع ، وحيدا متطابقا مع الله ، اعرف ان هذا كذب ٠ ان برهان الموت موجود امام عيني دائما ، لكن موت العالم هذا ، وهو مستمر دائما ، لا يتحرك مخترقا نطاق المحيط الخارجي ، ليحاصرني ، هذا الموت موجود عند موطىء قدمي ، يتحرك خارجا مني ، ان موتي دائما يتقدمنــي بخطوة ٠ العالم هـو مرآة نفسي وهي تموت ٠ ان العالم لم يعد يموت اكثر من موتي ٠ بعد الف عـام سأكون اكثر حياة من هذه اللحظة وهذا العالم الذي اموت فيه الان سيكون ايضا اكثر حياة من الان رغم موته قبل الف عام ٠ عندما يعاش كل شـيء حتى الرمق الاخير لا يبقى هناك موت ولا ندامات ، ولا يبقـى ربيع زائف ، ان كل لحظة تعاش توسع الافــق بشكل اعظـم وارحب لا مهرب منه الا بالعيشـ ٠

الحالمون يحلمون بدءا من العنق والى اعلى ، اما اجسادهم فهي مربوطة للضمان الى الكرسي الكهربائي ٠ ان نتخيل عالما جديدا يعني ان نعيشه يوما بيوم ، حيث كل فكرة ، كل لمحة ، كل خطوة ، كل اشارة تقتل وتعيد الخلق ، فالموت هو دائما خطوة الى الامام ٠ لا يكفي ان تبصق على الماضي ، وليس كافيا ان نعلن عن المستقبل ٠ على المرء ان يتصـرف وكـأن الماضي قد اندثر والمستقبل غير مدرك ، وهذا ما يحدث ٠ أن كل خطوة الى الامام هي

الاخيرة ، ومعها يموت العالم ، بما فيه نفس الانسان ٠ اننا هنا أبناء ارض لن تبيد ، وماض لن ينفق ، ومستقبل لن يبدأ ، وحاضر لا ينتهي ٠ ان عالم الاوابد الذي نحمله بين ايدينا ونـــراه لا يمثلنا ٠ اننا ذاك الشيء الذي لا ينتهي ، لا يُخلَق ليعُرَف ، كل شيء موجود ولكن ليس الكل ، فالاجزاء هي اكبر بكثير من الكل الذي لا يجسده الا الله العالِمْ الرياضي ٠

الضحك ! هكذا ينصحنا رابليــه ٠ لجميــع امراضكم الضحك ! يــا لليسوع ولكن من الصعب ان نقتفي اثر حكمته العاقلة البهيجة بعد كل الادوية الدجالة التي صببناها في حلوقنا ٠ كيف يمكن للمرء ان يضحك بعـــد ان تهترىء الثياب الداخلية كاشفة عن بطنه ؟ كيف للمرء ان يضحك بعد كل البؤس الذي سمّمتنا به تلك الارواح ذات الوجوه المصليّة اللون والفــك المصباحي ، الحزينة ، المتألمة ، الرصينة ، الرزينة ، الملائكية ؟ انني افهم الغدر الذي يلهمهم ٠ انني اغفر لهم عبقريتهم ٠ ولكن من الصعب تحرير النفس من كل الحزن الذي سببوه ٠ حين افكر في كل المتعصبين الذيـــن صلبوا ، والذين لم يكونوا متعصبين ، بل بلهاء سذج ، وقد ذبحوا اكرامـا لفكرة ، ابدأ بالابتسام ٠ اقول ، سُدّوا جميع منافذ الهرب ٠ اغلقوا الغطاء باحكام على اورشليم الجديدة ! فلنتحسس بعضنا بطننا الى بطن ، بـلا أمل ! الطاهرون منا وغير الطاهرين ، المجرم والمتدين ، ذوو الوجوه المصلية او الرؤوس الصغيرة ـ المهم ان ينضموا بعضا الى بعض ، فلينضجوا على نار خفيفة لقرون عديدة في حقيبة الظهر هذه !

اما ان العالم رخو جدا او انني لست مـــن المتانة بمكان ٠ اذا صرت غامضا سأصبح مفهوما في الحال ٠ ان الفرق بين الفهـــم واللافهم دقيـــق كالشعرة ، بل أدق ، بفارق مليمتر واحد ، خيط مـــن الفراغ بـــين الصين ونبتون ٠ ومهما بلغ جنوني فالنسبة هي نفسها ، ولا دخل لها بالوضوح ، والدقة الخ (وهذه الـ الخ مهمة !) يخطىء العقل خطأ فادحا لانه آلة متناهية في الدقة ، وتنقطع الخيوط عندما تصطدم بعُقد الماهوغوني ، وخشب الارز والابنوس ذي الطبيعة المتغايرة ٠ اننا نتكلم عن الحقيقة وكأنها شيء يمكن مجاراته ، كتمرين على البيانو ، او كدرس من دروس الفيزياء ٠ جاء الموت الاسود مع عودة الصليبيين ، وجاء السفلس مع عودة كولومبوس ٠ وستأتي الحقيقة ايضا ! طليعة الحقيقة ، كما يقول صديقي كرونستادت ٠ من قصيدة كتبت علــى قاع المحيط ٠٠٠

ان التكهن بهذه الحقيقة يعني الانحياز بمقدار مليمتر واحد او مليــون سنة ضوئية ٠ الفرق هو مقدار ضئيل نتج عن تداخل الشوارع ٠ وهذا المقدار الضئيل (كوانتوم) هو فوضى فعالة خلقتها محاولة الانسان عصر نفسه

داخلَ نطاق مَرْجع . والمرجع هو افراز يطرحه مستخدَم عتيق ، او بكلمة اخرى ، صديد مُخاطي لمرض مزمن .

هذه افكار ولدت من الشارع ، وهي نتاج الجنس المصروع . انك تخرج مزودا بغيتار متقطع الاوتار ـ لأن الفكرة لم تمطر مورفولوجيا . فمن اجل تذكر الحلم على المرء ان يحافظ على عينيه مغلقتين لا تتزحزحان . اذ تكفي اقل حركة حتى ينهار البناء كله . اعرض نفسي في الشارع للعناصر المدمرة المحطمة التي تحيط بي . ادع لكل شيء ان يُنزل دماره عليّ . انحني لاتجسس على العمليات السرية ، لأطيع فضلا عن ان آمر .

هناك كتل هائلة من حياتي اندثرت للابد ، كتل هائلة اندثرت ، تبعثرت ، بدّدت في الكلام ، والحركة ، وحلم الذكرى . لم يمر علي ابدا وقت عشت خلاله حياة واحدة فقط ، حياة زوج ، عشيق ، صديق . فأينما حللت ، ومهما كان الشيء المرتبط به أحيا عندئذ حيوات مضاعفة . لذا ، فكل ما اختار على انه حكايتي انا اذا به يضيع ، او يغرق ، او يتصل للابد مع حيوات ، او مآسي ، او قصص الاخرين .

انا رجل من العالم القديم ، بذرة ازدرعتها الريح ، بذرة فشلت في التفتح في واحة الفطور الامريكية . انني انتمي الى شجرة الماضي الراسخة . ولائي الجسدي والروحي هو لأناس اوروبا ، أولئك الذين كانوا في يوم من الايام الفرنج والغال والفايكينغ والهان والترتار ، وغيرهم . ان المناخ الملائم لجسدي وروحي هو هنا حيث السرعة والدمار . انني فخور بعدم انتمائي لهذا القرن .

الى المحدقين في النجوم ولا يستطيعون اتباع خط العمل في الكشف اضيف بضع ضربات تنجيمية على هامش كوني الموتي .

انا قرحة تناسلية ، سلطعون يتحرك جانبا والى الوراء والامام على هواه . انني اتحرك على مدارات غريبة واتعامل مع متفجرات عالية التفجير . مع سائل معطر ، واليشب والمر ، والزمرد ، والتمخط بصوت محزز ، واطراف الشيهم . وبسبب اورانوس الذي يعبر خطوطي الطولية انا مولع بالعاهرات حتى الوله . وبالنقانق الساخنة وزجاجات الماء . ان نبتون يهيمن على طالعي . هذا يعني اني مكون من تدفق مائي ، وخال من الهموم . دونكيشوتي ، غير جدير بالثقة ، حر ، وسريع الزوال . وانا مثير مشاكل أيضا . بوسادة دافئة تحت قعدتي يمكنني ان العب دور المتبجح او المهرج بنفس المهارة عند اي انسان ، مهما كان البرج الذي ولد تحته . هذه صورة شخصية لا تسد الا الثغرات ـ مرساة ، جرس عشاء ، بقايا لحية .

مؤخرة بقرة • باختصار انا شخص بليد يتبول وقته • ليس لدي من جهودي ما اعرضه على الاطلاق سوى عبقريتي • ولكن يأتي وقت ، حتى ولو في حياة عبقري عاطل ، يضطر فيها للتوجه الى النافذة ليتقيأ مخزونه الفائض • اذا كنت عبقريا فعليك ان تفعل هذا ـ حتى وان لم يكن لسبب اخر غير ان تبني عالما صغيرا معقولا خاصا بك ولن يتعطل كساعة الثمانية ايام ! وبقدر ما ترمي من الحصى عن سطح السفينة بقدر ما ترقى فوق احترام جيرانـــك بسهولة ، الى ان تجد نفسك وحيدا تماما في طبقات الجو العليا • ثم اربط حجرا حول رقبتك واقفز بدءا بالقدمين • وهذا يدمر نظرية تفسير الاحلام الباطني تدميرا كاملا ، بالاضافة الى التهاب الفم الزئبقي الـذي تسببـه المعالجة بالمراهم • لديك الليل لتحلم فيه وضجكة الحصان لوقت النهار •

وهكذا ، عندما اقـف في بار « ليتـــل توم ثمب » لأرى هـــؤلاء الرجال بوجوههم الثلاث ـ ربعيــة آتين عبـــر ابواب الجحيـم المسحورة ببكراتها ومقابضها ، وهم يجرون قاطرات وآلات بيانو ومبصقات ، اقول لنفسي : « عظيم ! عظيم ! كل هذه التحف العتيقة ، كل هذه الآلات تأتـــي الي على طبق من فضة ! هذا عظيم ! انه رائع ! انها قصيدةٍ ابتدعت وانا نائم ! » •

ان الشيء القليل الذي تعلمته عن الكتابة اوصلني الى ما يلي : ان الامــور ليست كما يظنها الناس • هي شيء جديد تماما في كل زمان ومع كل انسان • كلمة فالبارازو ، مثلا • عندما اقول فالبارازو فهي تعني شيئا يختلف تماما عن اي شيء كانت تعنيه من قبل • قد تعني عاهرة انكليزية فقدت جميع اسنانها الامامية والساقي واقف في وسط الطريق يبحث عن زبائن • وقـد تعني ملاكا يرتدي قميصا حريريا يمرر اصابعه الشريطية على اوتار هارب أسود • وقد تعني محظية وضعت ناموسية حول مؤخرتها • قد تعني ايا من هذه المعاني ، او ولا واحدة منها ، ولكن مهما عنت فتأكد انه سيكون معنى مختلفا تماما ، شيئا جديدا • فالبارازو موجـود دائما قبل النهاية بخمس دقائق ، هو يقع قرب البيرو من هذا الطرف قليلا ، او ربما هو اقرب اليها بثلاثة انشات • انك تستخدم الانش المربع العرضي لعلاج الحمى لأن تحت مؤخرتك حشيّة حارة والروح القدس في احشائك ـ الى جانب وجود اخطاء في استقامة العضو • انها تعني « تبولوا حارا واشربوا باردا ، كما يقـــول تريمالخيو ، لان امنا الارض هي في الوسط ، جعلت مدورة كالبيضـــة وتحتوي جميع الاشياء الطيبة داخلها ، كقرص عسل » •

والان ، سيداتي سادتي ، وبفتّاحةِ العلب العالمية التي احملها بيدي سأفتح امامكم علبة سردين • ان الامر سيان بوجود فتاحة العلب الصغـيرة هذه التي احملها بيدي ـ سواء اردتم صندوقا مـــن السردين ام مخـــزن ادوية • انه اليوم الثالث او الرابع مـن الربيع ، كما سبق واخبرتكم عــدة ـ

مرات لتوي ، ومع ذلك فهو ربيع بائس ، ورث ، يثير الذكريات ، ومقياس الحرارة يدفعني الى الجنون كأنه بقة الفراش . ظننتم اني كنت لا ازال اجلس في بلاس كليشي طوال الوقت ، اشرب شرابا مقبلا . في الحقيقة اني كنت جالسا حقا في بلاس كليشي ، لكن هذا كان قبل سنتين او ثلاث سنوات . وقد وقفت فعلا في بار « ليتل توم ثمب » ، لكن هذا كان منذ زمن بعيد ومنذ ذلك الحين والسلطعون يقضم اعضائي الحيوية . كل هذا بدأ في مترو (درجة اولى) وعبارة « لم اعد الرجل الذي كنته (١) » .

عبرت ساحة السكة الحديدية وقد تملكني نوعان من الخوف - يقول لي أولهما اني اذا ما رفعت عيني الى أعلى قليلا فانهما ستقفزان من رأسي . ويقول الثاني ان ثقبي كان يسيل . كان التوتر من العنف بحيث أن قوة الفهم والتخيل اتخذت شكلا موشوريا سداسيا في الحال . تصورت العالم كله يعلن يوم عطلة من أجل التفكير في السكون . في ذلك اليوم ينتحر الكثيرون بحيث لن يكون هناك ما يكفي من العربات لنقل الجثث . اثناء عبوري لمناطق السكة الحديدية في الميناء يلتقط أنفي نتانة مقرفة منبعثة من قطارات المواشي . وكأنها تقول ما يلي : طوال هذا اليوم وطوال أمس - وقبل ثلاث او اربع سنين مضت طبعا - كانوا جالسين هناك ملتصقي الاجساد في خوف وهم يتعرقون . أجسادهم مشبعة بالقدر . مررت بهم بذهن نقي تماما ، وافكاري صافية كالكريستال . انني في عجلة من أمري لأطرح افكاري حتى انني اتخطاها في الظلام . انا ايضا يتملكني خوف عظيم . أنا أيضا أتصبب عرقا والهث ، وعطشان ، ومشبع بالقدر . انني أمر بهم كمرور رسالة في مكتب البريد . او بالاحرى لست انا ، بل افكار معينة أنا نذيرها . وهذه الافكار صنعت لتوها وأدرجت في جدول الاعمال . وختمت ، ووضع عليها الطابع ، ووسمت بعلامة سرية . أفكاري تجري على شكل سلسلة ، كالوشيعة الكهربائية . هل نتجاوز الوهم ، أم نعيش به ؟ هذا هو السؤال المهم . في داخلي حجر كريم مرعب لن يبهت ضوؤه أبدا . حجر كريم يصر على زجاج النافذة بينما اهرب خلال الليل . قطعان الماشية تخور وتثغو . تقف هناك في نتانة روثها الدافيء . أسمع الان من جديد رباعية من مقام A مينور ، اضطرابات الاوتار المتوجعة . في داخلي مجنون يسعل سعالا جافا ، يسعل ويسعل الى ان يصل الى الرمق الاخير . عدم بحت ، تمييزا له عن العدميات الاخرى المشوشة والاقل شأنا ، بعدها لا شيء يمسح . ودولاب من الضوء يرتقي الجرف - ومنه الى الغور السحيق . انا ، بيتهوفن ، انا خلقت ! انا ، بيتهوفن ، انا دمرت !

---

(١) الاصل بالفرنسية — المترجم .

سيداتي سادتي ، من الان فصاعدا ستدخلون مكسيكو . منذ الان سيكون كل شيء رائع وجميل ، جميل بشكل باهر ، بديع بشكل رائع . جميل وبديع بشكل زائد الروعة . من الان لن يكون هناك حبال غسيل ، لا حمالات ، لا ملابس داخلية ، بل صيف دائم وكل شيء مطابق للنموذج . فاذا كان حصانا فهو حصان دائما . واذا كانت سكتة قلبية فهي سكتة قلبية ، وليست رقصة القديس فيتوس (١) . لا مزيد من عاهرات الصباح الباكر ، لا أزهار الغاردينيا ، لا قطط ميتة في البالوعة ، ولا عرق او تعرق . اذا كانت شفة فلتكن شفة ترتجف الى الابد . ففي مكسيكو ، سيداتي سادتي ، القمر ساطع دائما وما يتوهج هو شجرة الفتشيسيا الحمراء وما مات قد مات ولا داعي لمزيد من منافض الريش . انك تستلقي على سرير من الاسمنت وتنام كمصباح من الاستيلين . فاذا ضربت ضربتك متوقعا الغنى وجدت منجم ثراء . واذا لم نتوقع الغنى لقيت البؤس بل وأسوأ من البؤس . لا توقيعات سريعة ، لا نغمات مباركة ، لا ايقاع ختامي منمق . اما ان تمسك بالزمام او لا تمسك به . اما ان تبدأ بنغم صاف او تبدأ بمضاد حيوي . ولكن لا مطهر ولا اكسير حياة . انه نشيد الرعاة الرابع او القضاء الثالث عشر !

(١) الرقاص : اضطراب عصبي . — المترجم .

بعـد ظهر يوم السبت

ان هذا أفضل من فرجيل

انه بعد ظهر يوم سبت • وبعد ظهر يوم السبت هذا مختلف عن بقية
عد ظهر ايام السبت الاخرى • لكنه لا يشبه بأي حال بعد ظهر يوم الاثنين
و بعد ظهر يوم الخميس • في هذا اليوم ، بينما اتجه بالدراجة الـى جسر
يوبلي مارا بجزيرة روبنسن الصغيرة ذات المعبد في طرفها البعيد وفي المعبد
مثال صغير كالفلقة في فم الجرس ، احسست باحساس بيتي حتى بـــدا
ن غير المصدق ان اكون قد ولدت في اميركا • ركود الماء ، زوارق الصيد ،
قضبان الحديد التي تحدد القتال ، زوارق السحـب الواطئة بانحناءاتهـا
لغليظة ، والصنادل السود والدعامات البراقة ، السماء لا تتغير ، والنهر
ينحني ويهتز ، الهضاب تمتد وتطوق الوادي على الدوام ، تغير المشهد
لعام الدائم والمستمر ، تنوع الحياة وحركتها تحت علامة اللون الثلاثـي
لثابتة ، كل هذا هو بمثابة تأريخ لنهر السين الكائن في دمي والذي سيتسرب
لى دم اولئك القادمين بعدي عندما سيتمشون على طول هذه الشواطىء بعد
ظهر يوم سبت •

بعد ان اعبر الجسر عند بولونيه ، في الشارع المؤدي الى ميدون استدير
ثم انزل اسفل التلة مخترقا سيفر ، وبينمـــا اتخلل الشوارع المقفرة ارى
مطعما صغيرا في حديقة : الشمس تخترق اوراق الاشجار وتلقي ضياءها فوق
الطـاولات • فأترجـل •

ما هو افضل من قراءة فرجيل او استظهار ابيات غوتة Alles Vergangliche ist nur ein Gleichnis et c' ولم الحيرة ، انه الاكل خارج البيت تحت الظلة
مقابل ثمانية فرنكات في ايسي ـ ليه ـ مولينو وها انا في سيفير (١) • لا

---

(١) الاصـــل بالفرنسية •

يهم • فكرت مؤخرا في كتابة صحيفة للمجانين وهي فكرة خطرت لي وانا في ايسي ـ ليه ـ مولينو • ربما ان هذا المجنون هو الى حد عظيم انا لذا لن آكل في سيفير بل في ايسي ـ ليه ـ مولينو • وماذا يقول المجنون عندما تأتي الخادم بكأس البيرة ؟ لا تقلق بشأن الاخطاء الاملائية فكتاب السيرة سيبررونها • افكر في صديقي كارل الذي قضى الايام الاربعة الفائتة محاولا البدء بوصف المرأة التي يكتب عنها ، يقول « لا استطيع ! لا استطيع ! » • حسن ، يقول المجنون ، دعني انوب عنك في هذا • إبدأ ! هذا هو الشيء الاساسي • هل تفترض ان انفها ليس معقوفا ؟ ام انه انف ملائكي علوي ؟ ما الفرق ؟ عندما تبدأ الصورة بشكل سيء فذلك لانك لا تصف المرأة الموجودة في مخيلتك : انك تفكر كثيرا في اولئك الذين سينظرون الى الصورة اكثر من تفكيرك في المرأة التي تنتظرك • خذ مثالا اخر ـ قال نوردن • لقد كان يحاول طوال شهرين كاملين البدء بروايته • وكلما قابلته وجدت لديه بداية جديدة لكتابة • ان بقاء الحال هكذا سيجعله لا يتخطى البداية • بالامس قال لي : « اتعرف ماذا تشبه مشكلتي • انها مجرد مسألة بداية : فالسطر الاول يقرر مصير الكتاب بأكمله • اليك الان بداية صنعتها قبل ايام • كتب دانتي قصيدة عن مكان يسمى هـ ـ هـ شحطة ، لانني لم اكن اريد ان ادخل في مشكلة مع الرقابة » •

تصور كتابا يبدأ بـ هـ شحطة ! انه جحيم صغير خاص لا يجب ان يسبب اهانة للرقباء • الاحظ انه عندما يبدأ ويتمان احدى قصائده يكتب : ـ « انا ، والت ، ، في سنتي السابعة والثلاثين وفي صحة تامة ... انني امشي جنبا الى جنب مع رؤياي • انني شغوف بنفسي ... انا والت ويتمان ، الكوكب ، ابن مانهاتن ، متمرد ، بدين ، حسي ، آكل ، واشرب وأنسل • حلو الاقفال عن الابواب ! بل حلوا الابواب نفسها عن عضدها ... هنا أو من الان فصاعدا صار كل شيء سيان لدي ... انني كائن كما انا ، وهذا كاف .. »(١)•

مع والت الوقت دائما بعد ظهر يوم سبت • اذا صعب عليه وصف امرأة اعترف بذلك وتوقف عند السطر الثالث • في يوم السبت التالي ، يكون الجو ملائما ، فيضيف سنا ناقصة او كعبا • كل شيء يمكن ان ينتظر ، يمكنه ان ينتظر وقته • « يمكنني ان اقبل الزمن بشكل مطلق » في حين ان صديقي كارل ، الذي يملك حيوية بقة السرير ، فهو يتبول في ملابسه الداخلية لانه مضت اربعة ايام ولا يوجد بين يديه الا الصورة السلبية • يقول « لا ارى موجبا لموتي ـ وانا اواجه مشكلة مستعصية • ثم يفرك يديه ويغلق على نفسه في غرفته ليعيش خلوده • انه يعيش كبقة مخبأة في ورق الجدران •

(١) « اغنية نفسي » من مجموعة (اوراق العشب) والت ويتمان .

الشمس الحارة تخترق الظلة • انني منفعل لانني اموت بسرعة كبيرة • كل لحظة محسوبة • انني لا اسمع اللحظة التي انقضت لتوها ـ انني كمجنون ملتصق بهذه اللحظة التي لم تعلن عن نفسها بعد ••• ما هو افضل من قراءة فرجيل ؟ انه هذه ! هذه اللحظة المتمددة التي لم تحدد نفسها بتكّات او دقات ، هذه اللحظة الابدية التي تدمر جميع القيم ، والدرجات ، والفروق • وهذا الاندفاع الى أعلى وخارجا الآتي من منبع خفي • لا مزيد من حقائق تعلن ، لا حكمة يمكن ان تنشر • مجرد اندفاع وهذيان ، حديث مباشر فوري مع جميع الناس ، في كل مكان ، وبكل اللغات • والان صار كل شيء من البساطة بحيث يسخر من الانسان • وينحدر المرء هابطا ذروة السُكْر هذه الى النجد وهناك يقرأ فرجيل ودانتي ومونتانيه وكل الذين لم يتكلموا الا عن اللحظة ، اللحظة المتمددة التي تُسمَع الى الابد ••• التحدث مباشرة وفورا مع كل الناس • اندفاع وهذيان • هذه هي اللحظة التي رفعت فيها الكأس الى شفتي وانا اراقب الذبابة التي استقرت على خنصري ، والذبابة مهمة بالنسبة لهذه اللحظة كيدي او الكأس الذي تحمل او البيرة الموجودة في الكأس او الافكار التي انبثقت عن البيرة وماتت مع البيرة • هذه هي اللحظة التي يجب ان تُهمل فيها اللوحة المكتوب عليها « الى فرساي » او « الى سورسن » وكل اللوحات التي تشير الى مكان او الى اخر ، ويجب على المرء دائما ان يتجه الى المكان الذي لا تشير اليه اية لوحة •. هذه هي اللحظة التي يكون فيها الشارع المقفر الذي قررت الجلوس فيه يعج بالناس وكل الشوارع المكتظة مقفرة • هذه هي اللحظة حين يكون اي مطعم هو المطعم الملائم ما دام لا احد يوصي به • هذا هو افضل طعام ، رغم انه اسوأ ما تذوقت حتى الان • هذا هو الطعام الذي لن يمسه الا عبقري انه دائما في المتناول ، سهل الهضم ، ويترك الشهية وهي في ازدياد • وتسأل الخادمة « ما رأيك بالروكفورد ، اما كان لذيذا ؟ » انه قدسي ! الاتفه ، الاكثر امتلاء بالدود ، انه اكثر اجبان روكفورد المصنوعة اشباعا بالقمل ، وديدان دانتي وفرجيل وهومر وبوكاشيو ورابليه وغوته ، بكل الديدان التي وجدت حتى الان وتغلغلت في الجبن • لا بد ان آكل هذا الجبن عبقري • هذا هو الجبن الذي دفنت فيه نفسي ، انا ، ميغيل فيودور فرانسوا فولفغانغ فالنتين ميلر •

المدخل الى الجسر معبّد بالحصى • درجت على مهل حتى صارت كل حصاة ترسل رسالة منفصلة واضحة الى عمودي الفقري ومنه من خلال كل فقرة الى ذاك القفص المجنون • الذي يومض فيه النخاع المتوسط باشاراته الضوئية • وبينما انا اعبر الجسر عند سيفر انظر الى يميني ويساري • افعل هذا اثناء عبور اي جسر ، سواء كان السين ، المارن ، الاورك ، الاود ، اللوار ، اللوت ، تشانون او ليفي ، النهر الشرقي او هدسن ، المسيسيبي ،

كولورادو ، الامازون ، الاورينوكو ، الاردن ، التغريس ، الايريوادي ، اثناء عبور كل واحد من هذه الجسور ، وقد عبرتهـــا جميعا ، بما فيها النيل ، والدانوب ، الفولغا والفرات ، واثناء عبوري الجسر عند سيفر اصرخ كما صرخ ذلك المهووس القديس بولس مرة : « آه ، ايها الموت ، اين لسعتك ؟ » الى الخلف مني يقع سيفر ، وامامي بولونيا ، اما هذا المار تحتي ، ذاك السين الذي انبثق من مكان ما من جداولي المتواقتة التي لا حصر لها ، هـذا الدفق الثابت المندفع من مليون بليون جذر ، هذه المرآة الرائقة التي تحمـل معها الغيوم خانقة الماضي ، تندفع اكثر فأكثر بينما بين المرآة والغيوم التـــي تتحرك بشكل مستعرض اكون انا ، الكينونة الكاملة المتحدة ، الكون الذي يضع خاتمة عصور لا حد لها ، انا وما يمر تحتي ويحوم فوقي وكل ما يجيش خلالي ، انا وهذا ، انا وذاك متحدين في حركة مستمرة ، هذا السين وكـل سين يمتد فوقه جسر هو معجزة رجل يعبره فوق دراجة ٠

ان هذا افضل من قراءة فرجيل ٠٠

احث الدراجة عائدا الى سينت كلود والدولاب يدور ببطء شديد ومقياس السرعة في قفصه الجنوثي الرمادي يقرقع مثل نشرة الاخبار ٠ انني رجــل مقياس ضغطه سليم ٠ رجل امتطى آلة والآلة خاضعـة لسيطرتي ، اهبط منحدر التل بمكابح مفرملة ، بامكاني ان اقود برضى تام وقدمي علـــى الدواسة تاركا المرآة تمر فوقي والتاريخ من تحتي او العكس بالعكس ٠ انني اقود والشمس في تمام سطوعها ، رجل كتيم في وجه كل شيء ما عدا ظاهرة الضوء ٠٠ امامي والى اليسار يرتفع تل سينت كـلود ، والاشجار تنحنـــي لتظللني ، والطريق سهلة لا تنتهي ، والتمثال الصغير يستقر في جـــرس المعبد كالفلقة ٠ ان اوسط العمر مرغوب سواء في الانسان او التاريخ ٠ الشمس ساطعة تماما والطرقات تمتد في كل جهة ، وكلها تنحدر هابطة ٠ لن اسوي الطريق ولن ازيح ايا من الآكام ٠ كل رجّة ترسل رسالة جديدة الى بـــرج الاشارة ٠ لقد لاحظت جميع النقاط اثناء عبوري : ولكي اتتبع افكـاري ليس لي الا ان اتتبع رحلتي ، ان اتحسس من جديد هذه الآكام ٠

عند جسر سينت كلود توقفت تماما ٠ لست في عجلة من امري ـ لدي اليــوم كلــه اتبوله ٠ اضع دراجتي على منصبها تحـت الشجـرة واذهب الى المبولة لأتبول ٠ كل شيء رزين ، حتى المبولة ٠ بينما انا اقف هناك رافعا ناظري الى البيت المقابل تميل امرأة شابـــة محتشمة مـــن احدى النوافذ تراقبني ٠ كم من مرة وقفت في هذا العالم الباسم الكيّس ، والشمس تنثر نورها علي والعصافير تزقزق بجنون ، لاجد امرأة تلقي بنظرها علي مـن النافذة المفتوحة ، تتفتت ابتسامتها قطعا صغيرة ناعمة تجمعها العصافير بمناقيرها واحيانا تستقر عند اسفل المبولـــة حيـــث تقرقر المياه بصوت

موسيقي ويأتي رجل بأزرار بنطال محلولة ويصب محتويات مثانته المتبخرة فوق الفتات المنحلّة • وبوقفتي هذه ، بقلب وعـــروة ومثانـــة مفتوحة ، استرجع متذكرا جميع المبولات التي وطأتها من قبل – وجميـع الاحاسيس اللذيذة ، جميع الذكريات الفارهة ، وكأنما عقلي صار ديوانا تكتنفه الوسائد وحياتي غفوة متصلة طويلة في بعد ظهر يوم قائظ خامل • لا أجد من الغرابة في شيء ان امريكا أقامت مبولة في مركز معرض باريس في شيكاغو • اعتقد انه مكانها المناسب ، واعتقد انها منهـــم مساهمـة علـى الفرنسيين ان يقدروها • ولكن ، حقا ، لم يكن هناك حاجة لاطلاق العلم الثلاثي الالـــوان فوقها، «فهذا يتسمبقوة زائدة»(١)، ومع ذلك كيفللفرنسيان يعرف ان احد اول الاشياء التي تصدم عين الزائر الامريكي ، تهزه ، تشيع الدفء فيه حتى القانصة هو هذه المبولة الكلية الوجود ؟ كيف للفرنسي ان يعرف ان ما يؤثر في الامريكي عند النظر الـــى مبولة ما piss-oliére او مبولة عامـة Vesparienne او اي اسم تختاره ، هـو ان يكـون وسـط انـاس يقبلون بضروريات التبول بين الحين والحين ومن يعرف ايضا انه من اجل التبول يجب استعمال اداة معينة وانه اذا لم ينفذ علنا فسينفذ سرا وان التبول في الشارع لم يعدا امرا غير لائق اكثر منه تحت الارض حيث يراقبك عجوز منبوذ ليتأكد من انك لا تقترف عملا بغيضا •

انني رجل يتبول بكثرة وباستمرار ، ويقال ان هذا دلالة النشاط الذهني الفائق • ومهما يكن من امر فأنا اعرف انه ينتابني الاسى الشديد عندمـــا امشي في الشوارع بنيويورك • اتساءل طوال الوقت اين ستكـــون المحطـة التالية وان كنت استطيع التحمل اكثر من ذلك • وفي الشتاء ، حين تكـون مفلسا وجائعا ، فمن الرائع ان تتوقف بضع دقائق في محطة استراحة ارضية دافئة ، وحين يأتي الربيع تكون المسألة مختلفة تماما • ان المرء يروق له ان يتبول تحت الشمس بين اناس يراقبونه وهم يبتسمون وعندما تقرفص الانثى لتفرغ مثانتها في وعاء من الصيني قد لا يكون منظرها مقبـــولا ، ولا يمكن لاي رجل لديه اي قدر من الشعور ان ينكر ان منظر ذكر واقف خلـف درئية من القصدير يلقي بنظره على الحشد بتلـــك الابتسامة الراضية ، الرقيقة الحمقاء ، تلك النظرة الطويلة ، المفعمة بالذكريات ، والمتعة فـي عينيه هو شيء جميل • ان اراحة مثانـــة ملآى هـــي واحدة من متع البشر العظمـــى •

هناك مبولات معينة احيد عن طريقي الاصلي لأصل اليها – كتلك المبولة المقرقرة الموجودة خارج مصحة الصم والبكم ، عند زاوية تقاطع شارع السان جاك وشارع لابيه دو ايبة ، او مبولة البنيو هتشينسن الواقعة قرب حدائـق اللوكسمبور ، عند زاوية تقاطع شارع الاسـّاس وشارع غينيمه • هنـا ، في ليلة عبقة من الربيع ، ولا يهمني خلال اية سلسلة من الاحداث ، اكتشفت

(١). الاصل بالفرنسية . (المترجم)

صديقي الحميم روبنسن كروزو • مضت الليلة بأكملها في الذكريات والالـم والرغب ، ألم مبهج ، رعب مبهج •

« ان عجائب حياة هذا الرجل » ، ـ والقراءة هنا من مقدمة الطبعـة الاولى ـ « تفوق كل العجائب التي يمكن ان توجد ، انها حياة رجل لها قدرة نادرة على التغير الاعظم ، هذه الجزيرة تعرف الان باسم توباغو ، متوضعة عند مضيق نهر اورينوكو العظيم ، تبعد ثلاثين ميلا شمال غرب ترينيداد حيث عاش الرجل كروزو ثمانية وعشرين عاما في عزلة • وعلى الغلاف نقشت آثار الاقدام بشكل رائع الجمال • الرجل جمعة • المظلة ••• ترى لماذا فتنت هذه الحكاية اناس القرن الثامن عشر ؟ هاك ما يقوله اللاروس :

« ••• هي سرد مغامرات رجل ، نفي الى جزيرة مهجورة ، يوفر لنفسه حياة مكتفية ذاتيا ويخلق منها سعادة نسبية يكملها وصول مخلوق آدمـي اخر متوحش ، انه جمعة ، خلّصه روبنسن من ايدي اعدائه ••• ان متعـة الرواية ليست في الحقيقة النفسية التي تظهرها وانما في غزارة التفاصيل الصغيرة التي تعطي انطباعا مذهلا بالواقع »(١)•

اذن روبنسون كروزو لم يجد فقط طريقة للاستمرار ، وانما أقام لنفسه سعادة نسبية ! برافو ! انه رجل قنع بسعـادة نسبيـة • يا لها من صفة انغلوساكسونية ! يا لها من صفة سابقة للمسيحيـة ! فاذا فهمنا القصة بشكل معاصر ، بعكس ما يفعله اللاروس ، وجدنا بين ايدينا وصف فنـان أراد ان يبني لنفسه عالما خاصا ، وربما كانت قصة أول عصابي عبقري ، رجل قاد نفسه الى الدمار من أجل ان يعيش خارج زمنه في عالم خاص بـه يستطيع ان يتقاسمه مع كائن اخر، «همجي مثله»(٢) • والشيء الجديربالذكر انه وهو يمارس عصابيته وجد سعادة نسبية حتـى وهو وحيد فوق جزيرة منعزلة لا يحتفظ الا ببندقية صيد عتيقة وزوج من السراويل القديمة • ان سجلا من الاحداث مقداره خمسة وعشرون الف عام مـن « التقدم » المقابل العصر المجدليني مطمور في خلاياه العصبية • انه مفهوم القرن الثامن عشر في السعادة النسبية ! وعندما يأتي جمعة ، مع ان جمعة او Vendredi ما هو الا شخص همجي ولا يتحدث بلغة كروزو ، فان الدائرة تكتمل • اتمنى ان اقرأ الكتاب من جديد ـ وسوف افعل في يوم ممطر • يا له من كتاب ممتاز• يأتي في اوج حضارتنا الفاوستية الرائعة • ان رجالا كروسو ، وبيتهوفن ، ونابليون ، وغوته ، هم في الافق • يقضي العالم المتمدن كله الليالي يقرأ لهم بتسع وتسعين لغة مختلفة • انها صورة واقعية من القرن الثامن عشر ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك جزر مقفرة • كل انسان هو صحراء نفسه المتمدنة • هو جزيرة النفس التي يتحطم على ضفافها : والسعادة ، نسبية كانـت ام مطلقة ، غير واردة • منذ ذلك الوقت صار كل انسان يهرب من نفسه باحثا

(١) الاصل بالفرنسية ــ المترجم •
(٢) بالفرنسية ــ المترجم

عن جزيرة قفراء من صنع خياله ، ليعيش حلم روبنسن كروزو هذا ، ليتبع خطى الانطلاقات التقليدية لميلفيل ، ورامبو ، وغوغان ، وجاك لندن وهنري جيمس ، و د٠ هـ ـ لورنس ٠٠٠ بل الآلاف على نمطهم ٠ لم يجد احد منهم السعادة ٠ وجد رامبو السرطان ، وغوغان وجد السفلس ٠ لورنس وجد الطاعون الابيض ٠ الطاعون ـ نعم الطاعون ! فليكن السرطان ، او السفلس ، او السل أو لا يكون ٠ انه الطاعون ! طاعون التقدم الحديث الاستعمار ، التجارة ، الاناجيل المتحررة ، الحرب ، المرض ، الاعضاء الاصطناعية ، المصانع ، العبيد ، الجنون ، الامراض العصبية ، الهوس ، السرطان ، السفلس ، السل ، الانيميا ، الاضرابات ، الاغلاقات التعجيزية ، الجوع ، الضياع ، الفراغ ، القلق ، الصراع ، اليأس ، السأم ، الانتحار ، الافلاس ، تصلب الشرايين ، جنون العظمة ، الانفصام ، الفتاق ، الكوكايين ، حامض البروسيك، قنابل النتن، قنابل الغاز، الكلاب المجنونة، الايحاء الذاتي، التسمم الذاتي ، العلاج النفسي ، المعالجة المائية ، التدليك بالكهرباء ، المكانس الكهربائية، الاطعمة المقددة، القنابل اليدوية، البواسير، الغنغرينا٠ لا وجود لجزر مقفرة، لا فردوس، ولا حتى سعادة نسبية٠ بل أناس يهربون من انفسهم باهتياج شديد حتى انهم يبحثون عن الخلاص تحت طبقات الجليد او في المستنقعات الاستوائية او يصعدون جبال الهيمالايا او يخنقون انفسهم في طبقات الستراتوسفير ٠٠٠

ان ما اذهل اناس القرن الثامن عشر كان رؤيا النهاية ٠ لقد نالوا الكفاية ٠ أرادوا ان يقتفوا آثار انفسهم ، ان يعودوا الى الرحم من جديد ٠ وهذا اضافة الى ما يقوله اللاروس ٠٠٠

ان ما اثر بي ، في ميولة اللوكسمبور كان قلة اهمية ما يحتويه الكتاب ، اما الاهمية فهي في لحظات قراءته ، اللحظة التي تحتوي الكتاب ، اللحظة التي تصنع الكتاب للابد وفي كل الازمان ، في جنبات الغرفة الحية بأشعة الشمس ، وجو النقاهة فيها ، وكراسيها البيتية ، بالسجادة البالية وعبق الطبخ والغسيل ، بصورة الام ذات الجسم الضخم الشبيه بالطوطم ، بنوافذها المطلة على الشارع تلقي امام شبكة العين نسخا مختلطة لقامات كسلى مبعثرة ، والاشجار ذات العقد ، وأسلاك الترولي ، وقطط فوق السطح ، كوابيس ممزقة تتراقص فوق حبال الغسيل ، تنزلق ، سباق السيارات ، الواح زجاجية متجمدة ، اشجار تشطأ ٠ ان قصة روبنسن كروزو تدين بفتنتها ـ بالنسبة لي على الاقل ـ الى اللحظة التي اكتشفتها فيها ٠ انها باقية حية عبر مشاهد متسارعة بازدياد ، جزء حي من الحياة ، ملآى بالرؤى المتسارعة ٠ روبنسن كروزو بالنسبة لي ينتمي الى نفس الفئة التي تنتمي اليها بعض اجزاء من فرجيل ـ او ، ما الساعة الان ؟ اذ ، كلما فكرت في فرجيل ، افكر اليا ، ب ما الساعة الان ؟ ان فرجيل هو بالنسبة لي فتى اصلع بنظارات يميل الى الوراء فوق كرسيه ويترك علامة

زيتية على اللوح يفتح فمه حتى اخره في انفعال يتقلده خمسة ايام في الاسبوع على مدى اربع سنين متتالية • فم كبير بأسنان اصطناعية تصدر تلك التفاهة النبوية الغربية : rari nantes in gurgite vasto (١) • انني اتذكر بحيوية المتعة الآثمة التي كان يلفظ بها هذه العبارة • انها عبارة عظيمة ، بالنسبة لهذا الاقرع ، جاحظ العينين ابن العاهرة • لقد قطعناها عروضيا ، واعربناها ، وكررناها معه ، ابتلعناها كما نبتلع زيت كبد القد ، مضغناها كأنها كبسولات سوء الهضم ، فتحنا فمنا حتى اخره كما فعل هو واطلقنا تلك المعجزة يوما بعد يوم طوال خمسة ايام من الاسبوع ، وسنة بعد اخرى ، كالتسجيلات المستهلكة حتى اعدمنا فرجيل وطردناه من حيواتنا بالحسنى والى الابد •

ولكن كلما فتح ابن الحرام جاحظ العينين هذا فمه الواسع وتدحرجت عبارته المفخمة اسمع ما كان بالنسبة لي اهم ما يمكن سماعه في تلك اللحظة ـ ما الساعة الان ؟ ثمة وقت كاف للذهاب للمعتزل ، وقت كا فللاغتسال ... انني فرد ينوي ان يكون شريفا مع فرجيل وعبارته اللعينة rari nantes in gurgite vasto انني اقول بلا خجل او تعثر ، دون ادنى اضطراب او ندم او تواضع ان عزلة المرحاض تساوي الفا من نمط فرجيل ، هكذا كانت.وهكذا ستبقى • في المعتزل كنا نستعيد الحياة • في المعتزل كنا نصير ، نحن الرقيقون ذوو الحس المرهف ، منفعلون : نركض خارجين او داخلين الى بيوت الخلاء ، نصفق الابواب ، نكسر الاقفال تبدو وكأنما تملكتنا نوبات رجفان• وبينما نحن نرشق بعضنا بالطعام ونتبادل الصيحات واللعنات ويتعثر بعضنا في بعض ، كنا نتمتم بين الحين والحين ـ rari nantes in gurgite vasto لقد كان الضجيج الذي اثرناه من العلو ، والاذى من الشمول حتى اننا نحن الرقيقون كلما ذهبنا الى المرحاض ذهب معنا استاذ اللغة اللاتينية ، فاذا كان في ذلك اليوم قد خرج ليتناول طعامه ذهب معنا استاذ التاريخ • ويا لها من وجوه ساخرة تلك التي يحملونها وهم وقوف في المرحاض يحملون في يد سندويشا رقيقا من الزبد ينصتون الى فرقعاتنا وصرخاتنا المكتومة الحادة نحن الاولاد المزعجون • وحالما يغادرون المرحاض ليلتقطوا الهواء النقي نرفع اصواتنا بالغناء ، وهذا شيء لم نكن نوبخ عليه ، ولكن كان بلا شك امرا يحسدنا عليه الاساتذة ذوو النظارات الذين كان عليهم ان يستخدموا المرحاض بين الحين والاخر بطريقة مؤدبة ، بما انهم متعلمون •

آه ما اروع اويقات العزلة في المرحاض ! انني ادين لها بمعرفتي ببوكاشيو ، ورابليه ، وبترونيوس ، وكتاب الحمار الذهبي • ويمكنك ان

---

(١) ومعناها : نسبح ، واحد هنا واخر هناك ، في الجحيم الفسيح ـ المترجم .

تقول ان جميع قراءاتي الجيدة قمت بها في المرحاض وفي اسوأ الاحوال كنت اقرأ عوليس او قصة بوليسية ٠ وهناك في عوليس فقرات لا يمكن قراءتها الا في المرحاض ـ هذا اذا أراد المرء ان يستنبط نكهتها الكاملة من محتواها ٠ وهذا لا ينتقص من موهبة الكاتب ٠ انه ببساطة يقربه الى مجموعة ابيلار وبترارك ورابليه وفيلون وبوكاشيو الجيدة ـ اي جميع الارواح الرائعة ذات العبقرية الشابة التي تميز الروث روثا والملائكة ملائكة ٠ صحبة رائعة ، بعيدا عن rari nants in gurgite vasto ٠ وكلما كان المرحاض متداعيا للسقوط وخربا كان افضل ٠ (نفس الشيء ينطبق على المبولات) فمثلا لكي تستمتع برابليه ـ بفقرة مثل كيف تعيد بناء اسوار باريس ـ انصح بمرحاض بسيط قروي ، بكوخ صغير في ارض مزروعة بالذرة ، مع شيء من نور الهلال الفضي آت من فرجة الباب ٠ بلا أزرار لتضغط او سلسلة لتشد ، او اوراق تواليت قرمزية ٠ بل مجرد مقعد خشن كبير يناسب خلفيتك بالاضافة الى ثقبين اخرين بمقاييس معقولة تناسب الخلفيات الاخرى ٠ فاذا استطعت ان تقنع صديقا لك كي يأتي معك ويجلس بجوارك لكان ذلك ممتازا ! فالكتاب الجيد لا يمكن التمتع به الا في صحبة جيدة ٠ يمكنك ان تستمتع بنصف ساعة من الوقت في كوخ مع صديق ـ نصف ساعة سوف تبقى معك طوال حياتك ، مع الكتاب الذي كان معك والعبق ايضا ٠

اقول لن يصيب الكتاب اذى اذا اخذته معك الى المرحاض ٠ ولا تعاني من هذه الحالة الا الكتب الصغيرة الحجم ، الكتب الصغيرة هي فقط التي يمكن استخدامها كورق تواليت ، من هذه الكتب « القيصر الصغير » وقد ترجمت هذه الايام الى الفرنسية وتشكل واحدة من السلاسل العاطفية ٠ بعد ان اطوى الصفحات اشعر وكأنني في بيتي اقرأ العناوين الرئيسية ، واستمع الى اجهزة الراديو الملعونة ، استقل عربات البوجيه المعدنية ، احتسي الجن الرخيص ، امارس اللواط مع عاهرات عذارى لهن شيء ككوز الذرة ، اقيد العبيد واحرقهم احياء ٠ اقوم بشيء يسبب الاسهال ٠ نفس الشيء ينطبق على شهرية المحيط الاطلسي (Atlantic Monthly) او على اي شيء على وزن (Monthly) على الدوس هكسلي ، وجرترود شتاين ، وسنكلير لويز ، همنغواي ، دوس باسوس ، داريزر الخ ٠٠٠ عندما احضر هذه العصافير معي الى دورة المياه لا اسمع جرسا يرن داخلي ٠ اشد السلسلة فتذهب في البالوعة والى اسفل السين ومنه الى المحيط الاطلسي ٠ ربما ستعوم على السطح ثانية بعد عام ـ على شواطىء كوني ايلند ، او ميد لاند بيتش ، او ميامي مع بعض الرخويات الميتة ، والقواقع والاصداف ، ولوالب منع الحمل المستعملة ، اوراق المراحيض القرمزية ، اخبار الامس ، وحوادث الانتحار الاتية ٠٠٠

كفى اختلاسا للنظر عبر ثقوب الابواب ! كفى استمناءا في الظلام ! كفى عترافات علنية، حلوا الابواب عن مفاصلها ! اريد عالما يكون فية المهبل شقا شريفا بسيطا ، عالما لديه حس بالعظم والشكـــل المنحني ، بالالوان البدائية الخام ، عالما يحتفظ بخوف واحترام لجذوره الحيوانية . اننـــي قرف من النظر الى الفروج تداعَب جميعا ، تُخفَى ، تُشوَّه ، تُصغَّر مثالية . فروج بأطرافها الحساسة بارزة . لا اريد ان اراقب عـــذارى صغيرات تستمنـــي مختفيات في غرفهن الخاصة ، او يقرصن بأطراف اظافرهن او ينتفن شعورهن او يستلقين على السرير المفروش بفتات الخبز اليابس طوال فصل كامل . اريد اعمدة جنائزية مدغشقرية وحيوانات فوق بعضها البعض وفوقهـــا جميعا آدم وحواء ، ولحواء شق بسيط شريف بين ساقيها . اريد مخنثين ذوي خنوثة حقيقية ، وليس مدعين يتجولون بقضيب ضامر او فرج منكمش . اريد نقاء تقليديا ، حيث الروث روث والملائكة ملائكة . اريد ، مثلا ، الانجيل من ترجمة الملك جيمس . وليس انجيل ويكليف ، ليس انجيل فلجيت ، ولا الانجيل اليوناني ، ولا العبري وانما الانجيل العظيم الذي يتعامل مع الموت الذي أُنتِجَ حين كانت اللغة الانكليزية في اوجها ، حين كانت مفردات عشرين الفا من الكلمات تكفي لاشادة نصب لكل زمان . اما الانجيل المكتـــوب في سفنسكا او تيغاليك ، انجيل الهتنتوت او الصينيين ، الانجيل الذي لم يَهُم على وجهه عبر رمال الفرنسيين التي تقطر ماء فليس بانجيل ـ انه مزور ومزيف . ان نسخة الملك جيمس انتجها عرق من طاحني العظام . ان يحيي الاسرار الاولية ، يحيي الاغتصاب ، والقتل ، وسفاح القربى ، يحيـــي داء الصرع ، والسادية ، وجنون العظمة ، يحيي الشياطين والملائكة ، والتنانين ، واللوثيانات يحيي السحر وطرد الارواح الشريرة ، والعدوى ، والتعاويذ ، يحيي عادة قتل الاخوة لبعضهم ، وقتل الاب ، وقتل النفس ، يحيي التنويم المغناطيسي ، والفوضوية ، والسير اثناء النوم ، يحيي الاغنية والقصة ، والحرية ، يحيي التكهن ، والتشثنيون ، والسري ، والمبهم ، يحيي القـــوة والشر والمجد الذي هو الله . كل هذا يبعث في الهواء الطلق بشكل ماردي ، وبعد ذلك يملَّح ويتبل ليدوم حتى العصر الجليدي التالي .

نقاء تقليدي ، وبعدها ـ فلتذهب سلطات مكتب البريد الى الجحيم ! اذ ما الذي يجعل الاشياء التقليدية (الكلاسيكية) تبقى ، اذا كانت حقا تبقى حية ولا تموت كما نموت ويموت كل ما حولنا ؟ ما الذي يحفظها مـــن عواتي الزمان لولا الملح الذي فيها ؟ عندما اقرأ بترونيوس او ابوليوس او رابليه ، كم يبدون قريبين مني ! يا لهذه النكهة الملحية الحادة ! يا لعبـــق الحيوانات المحنطة ! انها رائحة بول حصان وروث اسد ، رائحة انفـــاس نمر ومخبأ فيل . انه الوحش ، الشبق ، الفظاظة ، الملل ، الذكاء ، خصيان حقيقيون ، مخنثون حقيقيون ، قضبان حقيقية ، فــروج حقيقية ، ولائم

حقيقية ! ان رابليه يعيد بناء اسوار باريس بفروج بشرية • تريمالخيو يغرغر حنجرته ، يتقيأ احشاءه ، يبتلع قذاراته • في المدرج ، حيث يتمطى قيصر المتكاسل الناعس الضخم المنحرف جنسيا ، تطحن الاسود وابناء آوى ، والضباع ، والنمور ، واللبوءات المنقطة عظاما بشرية حقيقية — في حين ان الرجال القادمين الشهداء والمعتوهين يرتقون السلم الذهبي وهم يصيحون هللويا !

عندما اتناول موضوع المراحيض اعيش من جديد لحظات هي من افضل لحظات حياتي • وبينما انا واقف في المبولة الكائنة في بولونيه على يميني تقع هضبة القديس كلود وامرأة على شباك فوقي والشمس تخترق بأشعتها مياه النهر الساكنة ، ارى نفسي انا الاميركي الغريب انقل هذه المعرفة الهادئة الى الامريكيين الذين يتبعونني ، سيقفون تحت سطوع الشمس في احدى الزوايا الساحرة من فرنسا وهم يريحون مثاناتهم الملآى • واتمنى لهم جميعا الصحة التامة دون حصى في الكلى •

وعلى عجل اوصي بمبولات خاصة اعرفها جيدا ، حيث لا امرأة تبتسم في وجهك بل حائط متهدم ، وبرج جرس قديم لكنيسة ، وواجهة قصر ، وساحة مغطاة بمظلات ملونة ، ومعلف حصان ، ونافورة وسرب من الحمام ، كشك لبيع الكتب ، وسوق خضار ••• يكاد يبدو دائما ان الفرنسيين يحسنون اختيار النقاط التي يقيمون فيها مبولاتهم • وافكر الان ارتجالا بواحدة في كاركاسون التي ان انتقيت الساعة المناسبة تمنحني مشهدا لا يضاهى لحصن رائع المقام الى حد انه اذا لم يكن المرء مهموما مضطربا ، فسيثير فيك من جديد نفس الاباء الجياش ، نفس العجب والرعب ، نفس الالتصاق العنيف بهذا المشهد كما شعر به الفارس القلق او الراهب ، عندما رفع ناظريه اليه ، وقد وقف اسفل الهضبة حيث يجري الان جدول ماء يغسل الوباء ، اقول يرفع ناظره الى الابراج الصغيرة الكالحة المصبوغة بروح المعارك ترفرف في وجه السماء التي تجليها الرياح •

وفي الحال افكر في اخرى — تقع قبل قصر البابوات في افنيون • على مرمى حجر من الساحة الصغيرة البديعة التي تبدو في ليلة ربيعية ، وكأنها مفروشة بالمخمل والشرائط ، بالاقنعة وقصاصات الورق الملون ، ويمر الوقت بسكون حتى يمكن للمرء ان يسمع ابواقا صغيرة تنفخ بخفوت وينزلق الماضي كالشبح ، ومن ثم يغرق في رنين الاجراس التي كأنما تقرع بمطارق تهشم موسيقى الليل الصامتة • مجرد مسافة رمية حجر من الحي الصغير الغامض حيث تومض الانوار الحمراء • هناك ، قرب حلول برودة المساء ، سوف تجد الشوارع الصغيرة المنحنية تضج بالحيوية ، بالنساء المرتديات ملابس الاستحمام والقمصان ، يتسكعن عند عتبات الابواب ، سيجارة في الفم ،

ينادين على المارة . وحالما يحل الليل تبدو الحيطان وكأنها تستطيل معا . ويتناثر من جميع الازقة الصغيرة الممتدة بخط هزيل داخل الوادي السحيق حشد من البشر الغربيين الجائعين يخنق الشوارع الضيقة ، يحومون كالطاحونة ، يندفعون بلا هدف هنا وهناك كخط من السائل المنوي يبحث عن البويضة ، واخيرا تمتصه احشاء المواخير المفتوحة .

في ايامنا هذه ، عندما يقف المرء في المبولة الكائنة قرب القصر ، لا يكاد يعي وجود هذه الحياة الاخرى . ينهض القصر فظا ، باردا ، اشبه بقبر ، امام ساحة كئيبة مفتوحة . وقبالته بناء يثير السخرية يدعى معهد الموسيقى . يقفان يواجه احدهما الاخر عبر فناء فارغ . ذهب البابوات ، ذهبت الموسيقى ، وذهبت جميع الوان واحاديث عهد مجيد . ولولا الحي الصغير الكائن خلف المعبد ، فمن يستطيع ان يتصور ما كانت عليه الحياة مرة داخل جدران هذا القصر ؟ اعتقد انه عندما كان هذا الضريح لا يزال يضج بالحياة لم يكن هناك تفريق بين القصر والازقة المتعرجة اسفله ، اعتقد ان الاكواخ الصغيرة القذرة بسقوفها الدبشية كانت تمتد حتى باب القصر ، اعتقد انه عندما وطأ البابا اول خطوة خارج خليته البهية الى بريق الشمس الساطعة اتصل فورا مع الحياة التي تحيط به . ولا تزال بعض آثار هذه الحياة تحتفظ بها اللوحات الجصية : انها حياة الانطلاق ، حياة الصيد . وصيد السمك ، واللعب ، حياة الصقور والكلاب والنساء والسمك اللامع . حياة كاثوليكية مسيحية ملونة بالازرق والاخضر الوضاء ، حياة الخطيئة والبركة الالهية والتوبة ، حياة الوان الاصفر البهيج والبني الذهبي ، حياة المفارش الملطخة بالخمر والجداول الملونة بلون السلمون . في ذلك المهجع الرائع عند زاوية من القصر منها يشرف المرء على اسطح افنيون التي لا تنسى والجسر المكسور فوق الرون ، في هذا المهجع حيث يقال ان البابوات يدبجون اوامرهم البابوية لا تزال اللوحات الجصية على نضارتها،وطبيعتها، لا تزال تنبض بالحياة ، حتى ان هذا الضريح الذي هو القصر يبدو اليوم اكثر حياة من العالم حوله بامكان المرء ان يتصور بوضوح الاب الاعظم للكنيسة جالسا هناك على طاولة الكتابة ، امامه امر بابوي وابريق معدني هائل عند مرفقه . وبامكان المرء ايضا ان يتخيل بسهولة فتاة هيفاء ممتلئة تجلس على ركبتيه وفي الطابق السفلي ، في المطبخ الهائل تشوى جميع انواع الحيوانات فوق المذابح ، بينما الرجال الاقل مقاما في الكنيسة ، وهم في الواقع من النوع الاكول ، يشربون في هرج صاخب ، يشبعون رغباتهم خلف اطمئنان وضمان الجدران العظيمة . لا انشقاقات ، لا شعر ينتف ، لا انفصام في الشخصية . وعندما يأتي المرض فانه يغمر الكوخ والقلعة ، نافذا الى مفاصل الآباء الفخمة ومفاصل الفلاحين القوية . عندما هبطت روح الله على افنيون لم تهبط على معهد الموسيقى الكائن في الطرف الاخر ، بل اخترقت

جدران هيئة الكهنوت العليا والطبقة المنغلقة ، اخترقت اللحم ٠ ازدهـرت بعظمة في منطقة النور الاحمر كما ازدهرت فوق أعلى التل ٠ لـم يستطـع البابا ان يرفع اذياله ليمر دون ان يُمَسْ ٠ كانت الحياة واحدة داخل الجدران وخارجها : وفاء ، فسوق ، سفك دماء ٠ ألوان بدائية ٠ انفعالات بدائية ٠ اللوحات الجصية تحكي الحكاية ٠ كيف عاشوا كل يوم واليوم بطوله يحكي بصوت اعلى من صوت الكتب ٠ ان ما تمتم به البابوات من بين لحاهم هـو شيء ـ وما امروا به كي يُرسَم على جدرانهـــم هو شيء اخر ٠ لقد ماتت الكلمـــات ٠

الملاك هو علامتي الخفية

موضوع هذه الصفحات يتعلق بأصل الروائع او التحف · التحفة هي
نا معلقة على الحائط امامي ، لقد جفت الان · انني اكتب هذا لاتذكر مجرى
عمل ، اذ ربما لن اقوم بمثله بعد الان ·

يجب ان نعود القهقرى قليلا ··· انني اتصارع منذ يومين مع شيء ما ·
لو كان علي ان اصفه بكلمة لقلت انني كنت كالخرطوشة المملوءة تماما ·
ن هذا الكلام دقيق الى حد الاطلاق اذ عندما خرجت من حلمي هذا الصباح
انت الصورة الوحيدة التي الحت علي هي صورة جذعي الضخم وقد تمعج
تى صار كالقبعة العتيقة ·

يكون الصراع في اول يوم مستحيل التحديد · فهو من القوة بحيث يشلني ·
عتمر قبعتي واذهب الى معرض رينوار ومن رينوار اذهب الى اللوفر ومن
لوفر الى شارع ريفولي – حيث لم يعد يشبه شارع ريفولي في شيء ·
هناك اجلس مع كأس من البيرة مدة ثلاث ساعات · مذهول بالوحوش
لـارة بـي ·

في الصباح التالي استيقظ مع اعتقاد بأني سأفعل شيئا · وذاك التوتر
رقيق الجميل المبشر · دفتري الى جانبي · التقطه واقلب صفحاته بذهن
ارد · واعيد تقليبه – هذه المرة بانتباه اكثر · الملاحظات فيه مرتبة باسطر
وجزة : فالعبارة البسيطة تسجل صراع عام كامل اني اعجز عن فك مغاليق
عض الاسطر بنفسي – سيعنى كتاب السيرة بها على كل حال · لا زالت
كرة انني سأكتب شيئا اليوم تستحوذني · انني اقلب صفحات دفتري
قط وكأنني اقوم بتمرين تدفئة ، هذا تصوري · ولكن بينما أنا أمر سريعا
بشكل خاطف على هذه الملاحظات هناك شيء قتال يحدث لي ·

ما يحدث هو انني لمست العمة ميليا • والان صارت حياتي باكملها تندفع الى اعلى بدفقة واحدة ، كنبع حمة تفجر لتوه من الارض • انني اتوجه الى البيت مع العمة ميليا وفجأة ادرك انها مجنونة • انها تطلب مني القمر • وتصرخ قائلة : « هناك في الاعالي ! هناك في الاعالي ! »

منذ العاشرة صباحا وهذا السطر يصرخ في وجهي • ومنذ تلك اللحظة – وحتى الساعة الرابعة من هذا الصباح – وانا واقع في قبضة قوى غير مرئية • اضع الالة الكاتبة جانبا وأبدأ بتسجيل ما يملى علي • صفحات وصفحات من الملاحظات ، وعند كل حادثة ثمة ما يذكرني بالمصدر الذي استقي منه الكلام • جميع الملفات التي نسقت فيها مخطوطاتي قد افرغت على الارض • انني مستلق على الارض قلم رصاص بين اصابعي،اكتب الحواشي بشكل محموم • ودون توقف • جذلان وقلق في نفس الوقت • ولو يستمر الامر على هذا المنوال فسأصاب بنزيف دموي •

في حوالي الثالثة اقرر أن لا استسلم • سأخرج لاتناول الطعام • فربما يزول عني كل شيء بعد الغداء • امتطي دراجتي لابعد الدم عن رأسي • لا احمل معي دفترا – عن قصد • فاذا بدا الاملاء tant pis انني في الخارج اتناول الغداء !

في الثالثة لا يمكنك ان تحصل الا على ترويقة باردة • اطلب دجاجا باردا مع المايونيز وهو يكلف اكثر مما أدفع عادة بقليل ، لهذا السبب بالذات أطلبه • وبعد قليل من التدبير اطلب برغنديا ثقيلا بدل الخمر العادي المعتاد Vin Ordinaire • انني آمل من كل هذا ان يلهيني • وعلى الخمر ان يجعلني سكران قليلا •

انني اشرب الزجاجة الثانية وقد امتلأ مفرش الطاولة بكتابة الملاحظات • ورأسي يبدو خفيفا بشكل خارق • اطلب جبنا وعنبا وحلوى • انني منذهل لشهيتي ! ومع ذلك ، بطريقة ما لا يبدو انه ينزل الى معدتي ؛ يبدو وكأن شخصا اخر هو الذي يأكل كل هذا عني • ولكن ، على الاقل ، ان من سيدفع ثمنه هو أنا ! وهذا شيء قائم على أساس صلب ••• أدفع ؛ ثم انطلق ثانية على الدراجة • اتوقف في مقهى لاحتسي قهوة كثيفة • أفشل في وضع كلتا قدمي على الارض الصلبة • ان شخصا ما يلقنني باستمرار • دون اعتبار لصحتي •

انني أؤكد لك ان يومي كله يمر على هذا المنوال • لقد استسلمت منذ وقت طويل O.K. ، هكذا اقول لنفسي • إذا كان لا بد من الافكار اليوم ،

فلتكن· «ايتها الاميرة، انني طوع اوامرك»(١) · واتابع كدحي، وكأن هذا هو ما اريد القيام به ·

بعد العشاء اكون منهكا تماما · ولا تزال الافكار تغرقني ، لكنني تعب الى درجة انني استطيع ان استلقي على ظهري وأدعها تلعب فوقي كتدليك كهربائي · اخيرا انني تعب حتى لا اقوى على تناول كتاب لاخذ قسطا من الراحة · انها نسخة من جريدة · هنا سأجد السلام · فتحت الصفحة أمامي وبالذهولي لاجد هذه الكلمات : « غوته · شيطانه » · قلم الرصاص في يدي من جديد ، والهامش مزدحم بالملاحظات · وحل منتصف الليل · وانا منتعش· لقد توقف الاملاء علي · وانا حر من جديد · سعيد بشكل شيطاني حتى لاتساءل ان لم يكن ضروريا القيام بجولة قصيرة قبل ان اجلس لاكتب · الدراجة في غرفتي · انها قذرة · اقصد الدراجة · اتناول خرقة وابدأ بتنظيفها · انني انظف كل شعاع ، وازيته تماما ، الع الزفارف · وها هي جديدة تماما · سأمتطيها الى غابة بولونيه ···

وبينما انا اغسل يدي اشعر بألم ممض في احشائي · انني جائع ، هذا هو السبب ، حسن ، ما دام الاملاء قد توقف فأنا حر أفعل ما أريد · أفتح زجاجة ، أقتطع قطعة كبيرة من الخبز وأقضم قطعة من النقانق · النقانق محشوة بالثوم · رائع · ان رائحة الثوم في غابة بولونيه تنتشر دون ان يلاحظها احد · كمية اخرى من الخمر وقطعة اخرى من الخبز · هذه المرة انا الذي يأكل ولا خطأ في ذلك · الوجبات الاخرى ذهبت هباء · امتزجت رائحة الخمر بالثوم في عبق كريه · انني اتجشأ قليلا ·

اجلس قليلا لادخن لفافة · هناك عند مرفقي كتيب ، على بعد ثلاثة انشات مربعة · عنوانه « الفن والجنون » · كان وقت ركوب الدراجة · ولم يعد الوقت ملائما للكتابة · وصار يجتاحني شعور بأن ما أريده فعلا هو أن أرسم لوحة · في عام ١٩٢٧ او ٢٨ كنت على وشك أن أصبح رساما · كنت بين الحين والاخر ، في نوبات معينة وبدايات متفرقة ، أرسم لوحة مائية ان الامر يفاجئك على النحو التالي : تشعر برغبة في رسم لوحة مائية فترسمها · في مصح الامراض العقلية ينفذون جنون عقولهم في لوحات · يرسمون الكراسي ، الجدران ، الطاولات ، أعمدة السرير ··· انتاجية مذهلة · اذا شمرنا عن سواعدنا وبدأنا العمل كما يفعل هؤلاء المجاذيب فما أعجزنا عن أن ننجز أي شيء خلال حياتنا كلها !

اللوحة الموجودة امامي ، التي رسمها احد نزلاء تشارنتن ، فيها خاصية رائعة تماما · أرى فيها ولدا وفتاة جاثيان متقاربان يحملان في ايديهما قفلا ضخما · وبدل أن يرسم الرسام قضيبا ومهبلا زودهما بمفاتيح ، مفاتيح

(١) الاصل بالفرنسية ـــ المترجم ·

ضخمة جدا ومتداخلة • وهناك في القفل مفتاح ضخم ايضا • ويبدو عليهما السعادة وقليل من الشرود •• في الصفحة ٨٥ يوجد منظر طبيعي يبدو مشابها تماما لواحدة من لوحات هلير هلر • والواقع انها افضل من اي رسم من رسوم هلر • الميزة الوحيدة فيها أنه في الجزء الامامي يوجد رسم منمم لثلاثة رجال مرسومين بشكل مشوّه • وليس تشويههم خطيرا – انهم ببساطة يبدون اثقل من ان تحملهم اقدامهم • أما بقية اللوحة فهي من الجودة حتى أنه لن ينزعج منها الا من كان سريع الغثيان حقا • ثم ، هل العالم من الكمال بحيث لا يوجد في أي مكان منه ثلاثة رجال لا تقوى أقدامهم على حملهم ؟ يبدو لي أن للمجنون حقا في رؤاه كما لنا •

انني مشتاق تماما للبدء • ومع ذلك ، لدي نقص في الافكار • توقف الاملاء • ليس لدي الا نصف عقل لانسخ واحدة من هذه الصور • لكنني خجل قليلا من نفسي – لان نسخ عمل المجنون هو اسوأ شكل من اشكال الانتحال •

حسن ، فلأبدأ ! هذا هو اهم شيء • لأبدأ بحصان ! ان في ذهني صورة غامضة عن احصنة اتروسكا التي شاهدت في اللوفر • (ملاحظة : كان الحصان في جميع الفترات الفنية العظمى قريبا جدا من الانسان !) أبدأ بالرسم • ومن الطبيعي أن أرسم بادئا بأسهل الاجزاء من الحيوان – بشرج الحصان • فتحة صغيرة للذيل الذي يمكن أن يُحشر فيها فيما بعد • وما ان أبدأ برسم الجذع حتى الاحظ على الفور أنه شديد الاستطالة • تذكر ، انك ترسم حصانا – وليس نقانق الكبد ! وبغموض ، يبدو لي بغموض ان بعض تلك الاحصنة الايونية التي رأيتها مرسومة على أواني الزهور السوداء كان لها جذوع مستطيلة ، والارجل تبدأ فيها من داخل الجسم ، مرسومة بخط رائع مطبوع يمكنك أن تنظر اليها او لا تنظر وفق غرائزك التشريحية.أقرر ، وأنا أحفظ هذا في ذهني ، أن أرسم حصانا ايونيا • ولكن الان تبرز امامي مصاعب طازجة • انها الارجل • ان شكل ساق حصان هي شي محير حين لا تملك الا ذاكرتك تعتمد عليها • انني لا أتذكر الا بدءا من نتوء اسفل القدم وما تحته ، أقصد أن أقول ، أنه الحافر ، وتلبيس الحافر باللحم هو عمل دقيق ، دقيق جدا • الى جانب جعل الساقين تنضمان مع الجسم بشكل طبيعي ، وليس كما لو أنهما ملصقان بالصمغ • صار لحصاني خمسة أرجل : اسهل ما يمكن القيام به هو تحويل احدها الى قضيب منتصب (Phallus erectus) ولا أحسن من الكلام الا الفعل • والان انه يقف كتمثال طيني ينتمي للقرن السادس قبل الميلاد • الذيل لم يُركّب بعد ، لكنني تركت فتحة فوق فتحة الشرج مباشرة • فالذيل يمكن أن يوضع في أي وقت • الشيء الاساسي هو أن أجعله يتحرك ، يبدو كأنه يطفر • لذا لويت القدمين الاماميتين الى أعلى • بات جزء منه يتحرك ، اما الباقي فلا يزال جامدا • بوجود الذيل المناسب سأحوله الى كنغارو •

اثناء تجاربي مع السباق تتهدم البطن • أرفعها الى أعلى ما أمكن ـ حتى تبدو كالارجوحة الشبكية • فلتكن كما هي • فاذا لم يبد كالحصان فباستطاعتي أن أحوله في أي وقت من العمل الى ارجوحة شبكية • (ألم يكن هناك أناس نائمون في بطن حصان على احدى تلك الاواني التزيينية التي رأيتها ؟) •

لا يستطيع أحد ممن لم يسبق لهم أن تفحصوا جمجمة حصان بانتباه من قبل أن يتصور مدى صعوبة رسمها • جعلها تبدو جمجمة وليس معلفا • أن تضع العينين دون أن تجعل الحصان يضحك • كي تجعل الهيئة هيئة حصان ولا تدعه يتحول الى انسان • عند هذه النقطة ؛ أعترف صراحة انني متقزز تماما من براعتي الفائقة • يخطر على بالي أن أمحو وأبدأ من جديد • لكنني أمقت الممحاة • أفضل ان احول الحصان الى مولد او بيانو ضخم على أن أمحوه تماما •

أغلق عيني واحاول بهدوء تام أن أرسم حصانا بعينيّ عقلي • أمسح بيدي فوق العرف والكتفين والخاصرتين • يبدو لي انني اتذكر بوضوح تام كيف يشعر الحصان ؛ وخاصة الطريقة التي يرتعش بها عندما تزعجه ذبابة • وملمس العروق الدافىء المتملّص • (في تشولا فيستا كنت معتادا على تمشيط شعر الحمير قبل الذهاب للحقول • انني أفكر ـ لو أستطيع أن أحوله الى حمار ؛ اذن لكان شيئا رائعا !) وعلى هذا ابدأ من جديد ـ هذه المرة سأبدأ بالعرف • الواقع ان عرف الحصان هو شيء مختلف تماما عن ذيل الخنزير ؛ او غديرة الخادمة • شيريكو (١) يضع عروفا رائعة على أحصنته وكذا فالنتين براكس • العرف شيء مميز • أؤكد لك أنه ليس مجرد تمويجة مارسيل (Marcel Wave) • يجب أن تحوي المحيط فيها ؛ والكثير من الاساطير • ان ما يتألف منه الشعر والاسنان والاظافر لا يؤلف عرف الحصان • انه شيء مختلف ••• على كل حال ؛ عندما أجد نفسي في ورطة كهذه أعلم انني استطيع ان اخلص نفسي فيما بعد عندما يأتي وقت اضافة اللون • اللون هو بمثابة التوكاتا : فالرسم ينتمي الى عالم الفكر (ومعه حق مايكل انجلو أن يقرف من دافنتشي • هل هناك ما هو اكثر بثا للروع واثارة للخيال المقزز من العشاء الاخير ؟ هل هناك ما هو أكثر تصنعا من الموناليزا ؟)

كما أقول ؛ ان القليل من اللون سيبث الحياة في العرف • لا تزال البطن

---

(١) جيورجيو دو تشيريكو (ولد عام ١٨٨٨م) رسام ايطالي شبه سريالي ـ عاد الى الاسلوب الكلاسيكي •

تعيث في قليل من الفوضى ، كما ارى · حسن ، حينما تكون محدبة اجعلها مقعرة والعكس بالعكس وفجأة يبدو حصاني وكأنه يثب ، ومنخريه ينفثان نارا · ولكن بوجود عينيه الاثنتين لا يزال يبدو بليدا ، أو فلنقل انسانيا · اذن ، امح واحدة · عظيم · انه يتخذ شكل الحصان شيئا فشيئا · ان لديه نظرة حادة أيضا ـ مثل تشارلي تشيس ممثل السينما ···

ولكي أحافظ على الجنس الذي يمثله أقرر أخيرا ان اخططه · والفكرة هي أنه اذا لم يتخل عن هزاره سأحوله الى حمار وحشي · وهكذا رسمت الخطوط · والان ، اللعنة على كل هذا ، صار يبدو وكأنه مصنوع من الكرتون · وجعلته الخطوط يبدو مسطحا ، الصقته على قطعة ورق · حسن ، اذا اغلقت عيني ثانية فقد اتذكر حصان سنزانو ـ هذا ايضا مخطط وبخطوط جميلة ايضا · ربما علي أن أنزل لأحضر مشّة ولانظر الى السنزانو · ان الوقت متأخر على تناول المشهيات · أم أقوم ببعض الانتحال أولا · اذا استطاع مجنون ان يرسم رجلا يمتطي حصانا فيمكنه أن يرسم حصانا ايضا ·

أمر عجيب ـ أجد آلهة وآلهات ، شياطين ، وطاويط ، الات خياطة ، مزهريات ، انهارا ، جسورا ، اقفالا ومفاتيح ، صرعى ، اكفانا ، هياكل عظيمة ، لكنني لا أجد حصانا ملعونا ! اذا كان المجنون الذي جمع هذا الكراس أراد ان يلفت الانتباه العميق بحق لتوه بملاحظة ما عن هذا الحذف الغريب · عندما يفقد حصان يكون هناك خطأ فادح ! ان الفن الانساني يمشي يدا بيد مع الحصان · ولا يمكنني التنويه الى أن الرمزيين والتصويريين هم ، أو كانوا ، مفككين · نريد ان نعرف ، من خلال دراسة للجنون ، ماذا حدث للحصان !

وأقلب الصفحات من جديد على المنظر الموجود في الصفحة ٨٥ · انه قطعة ممتازة رغم جلافته الهندسية (ان المجانين لديهم وله بديع بالمنطقي) والمنظم ـ مثل الفرنسيين تماما) · صار لدي الان عمل اقوم به : الجبال ، والجسور ، والاسيجة ، والاشجار ··· ان واحدة من مواهب الفن الجنوني العظيمة أن الجسر هو دائما جسر والحصان دائما حصان · الرجال الثلاثة الذين يوازنون انفسهم على خيزراناتهم في مقدمة اللوحة ليسوا مهمين جدا بالنسبة للمجموع ، خاصة بعدما صار لدى حصان ايوني يحتل حيزا لا يستهان به · انني ابحث عن مكان أضع فيه الحصان وهناك شيء شديد الكآبة شديد الاثارة في هذا المنظر بمتاريسه ذات الفتحات وجروفه المخروطية والبيت ذي النوافذ العديدة ، وكأن نزلاءه خائفون حتى الموت من الاختناق · انها تذكّر كثيرا ببدايات رسم المناظر الطبيعية ، ومع ذلك فهي تقع خارج جميع الفترات المحددة · يجب أن أقول بشكل تقريبي انها

تقع في المنطقة ما بين جيوتو (١) وسانتوس دومونت ـ مع أثر بسيطٍ مـن الشارع السابق للعصر الميكانيكي القادم • والان ، بوجود هذا بمثابة مرشد لي استجمع شجاعتي • والـى الامام !

تحت شرح الحصان مباشرة حيث يبدأ كَفَله وينتهي ، وحيث سيودُّ سلفادور دالي أن يضع كرسي لويس كوينز أو نابض ساعة ، أرسم بضربات حرة لينة قبعة من القش ، بطيخة ، وتحت القبعة اضع وجها ـ بلا مبالاة ، لان افكاري كثيرة ومنجرفة • حيث تقع يدي أرسم شيئا ، متتبعا انحرافات الخط المندسة • وعلى هذا الشكل آخذ القضيب المنتصب ، والذي كان مكان ساق خامسة ألويها على شكل ذراع رجل ـ هكذا ! والان لدى رجل يضع قبعة كبيرة من القش تخز الحصان في ردفيه • رائع ! رائع وممتاز ! لو أنها أكثر خيالية مما هي عليه ، لو انها اقل ملازمة لشخصية القرون الوسطى ـ الكاذبة الموجودة في اللوحة الاصلية ، لكان باستطاعتي دائما ان انسبها الى زيـف المجنون الذي الهمني بها ، هنا ، ولاول مرة ، يـدخل الى رأسـك الشك في احتمال ألا اكون بنفسي هناك ! لكن الصفحة ٣٦٦ تقول : « اخيرا ، بالنسبة لماتيس ، يجب على احساس الموضوع ان يعبر عن نفسه بحرية مطلقـة ، دون اتجاه واع او دقة مرئية : هذا هو اصل التعبير (٢) » • ودعوني اتابع ••• بعد قليل من الصعوبة مع قدميّ الرجل حللت المشكلة بوضع النصف الاسفل من جسمه خلف الحاجز • انه يميل على الحاجز ، يحلم على الاغلب ، وفي نفس الوقت ينخز اضلاع الحصان • (سوف تصطدم غالبا وانت تمشي على طول انهار فرنسا برجال ينحنون فوق حاجز وهم يحلمون ـ وخاصة بعد ان يكونوا قد افرغوا مقدار حقيبة ملآى بالبول) •

ولكي أقللّ من عنائي ، ولأتبين أيضا كم بقي لدي من الخبز ، أرسم كمية من الخطوط الجريئة المائلة أو الالواح ، من أجل تبليط الجسر • وهذا العمل يقتل على الاقل ثلث اللوحة ، بالنسبة لمجموع التركيبة • والان يحين دور الحواجز ، والجروف ، الاشجار الثلاثة ، والجبال المكللة بالثلوج ، البيوت والنوافذ التابعة لها ، ان هذا يشبه لغز الصور المقطعة • وكلما رفض جرف أن يُرسَم كما يجب أحوله الى جنب لمنزل أو سقف لمنزل اخر مستتر • وهكذا حتى أصل الى أعلى اللوحة حيث ، ولحسن الحظ ، يختصر الاطار الاشياء • لم يبق الا الاشجار ـ والجبال •

---

(١) جيوتو : رسام ايطالي (١٢٦٦ ؟ ـ ١٣٣٧) يعتبر مؤسس الرسم الحديث ، اشتهر بلوحاته الجصية .

(٢) الاصل بالفرنسية . ـ المترجم .

والاشجار بدورها هي أحجام قلقة حساسة . هذا اذا كان الرسم لشجرة وليس لباقة زهر ! ورغم أني أرسم شعاعا من البرق بين مجموع الاوراق ، وذلك كي أضفي طابع البناء عليها.. الا أن هذا لا ينفع . اذن ، فلتكن بضع غيوم رقيقة هنا لا تخلص من بعض الاوراق الزائدة . (من المفيد جدا دائما أن تبسط مشكلتك بمحوها) لكن الغيوم تبدو كقطع من مناديل الورق طارت من باقات زهر زفاف . الغيمة خفيفة جدا ، هي أقل من لا شيء بكثير ، لكنها ليست منديلا من الورق وكل ما له شكل له وجود مرئي . وهذا ما نقب عنه مايكل انجلو طوال حياته – في الرخام ، والشعر ، والحب ، والعمارة ، والجريمة ، والله ... (صفحة ٢٩٠ تقول (١) : « اذا كان الفنان يقتفي اثر الخلق المبدع ؛ فهمّه عندئذ يدور حول الموضوع الذي ربما كان مضحى به وخاضع لضرورات الابداع ») .

آتي الى الجبل – مثل محمد . والان بدأت أعي معنى التحرر . انه الجبل ! ما الجبل ؟ انه كومة من القذارة التي لا تبلى أبدا . على الاقل ليس في زمن تاريخي . رسم الجبل أمر سهل جدا . أريد بركانا . أريد سببا يبرر صهيل حصاني ووثبه . المنطق ، المنطق ! « المجنون يكشف عن اهتمام بالغ بالمنطق ! (٢) » (والفرنسيون ايضا (٣)) حسن، انا لست مجنونا، وعلى الاخص لست مجنونا فرنسيا : بوسعي أن أسمح لنفسي ببعض الحرية . وخاصة في عمل قام به معتوه . لذا أرسم الفوهة أولا وهبوطا حتى سطح الجبل الذي يندمج مع الجسر وسقوف المنازل في الاسفل . والاخطاء التي ارتكبها أحوّلها الى أخاديد على جوانب الجبل – ممثلا بها الاضرار التي سببها البركان . هذا بركان حي وجوانبه تنفجر .

عندما اكون منغمسا في العمل تماما احمل قميصا على يدي . قميص ، بكل معنى الكلمة ! بامكاني ان الاحظ الياقة والاكمام . لا ينقصه الا بطاقة روجرز بيت وقياس ١٦ او حسب قياسك ... يبقى شيء واحد يبرز بوضوح وجلاء لا يخطئان ، انه الجسر . ان هذا غريب ، ولكن يكفيك ان ترسم قوسا حتى يتبع ذلك بقية الجسر بشكل طبيعي . ولا يقدر على هدم جسر الا مهندس .

تكاد اللوحة تنتهي ، اذا كان كلامنا هو عن كمية ما رسمنا . اما النهايات السائبة جميعا في الاسفل فاربطها معا لتشكل بوابات مقابر . وفي الزاوية الكائنة في اعلى الجهة اليسرى حيث ترك البركان فجوة ، ارسم ملاكا . انه موضوع ذو طبيعة اصيلة ، ابداع ليس له مبرر على الاطلاق ،

---

(١) الاصل بالفرنسية . — المترجم .

(٢) و (٣) بالفرنسية .

وعلى مستوى عال من الرمزية • انه ملاك حزين متهدل البطن ، والجناحان تسندهما اضلاع مظلة • وكأنه هابط من خلف كواليس افكاري يحوم بشكل صوفي رمزي فوق الحصان الايوني البري الذي ضاع الان بالنسبة للانسان •

هل سبق لك ان جلست في محطة قطار وراقبت الناس يقتلون الوقت ؟ أليسوا في جلستهم يشبهون ملائكة خُذّل - بأقواسهم المكسورة وبطونهم المتهدلة ؟ أليست هذه اللحظات الابدية القليلة التي حكم عليهم ان يكونوا خلالها متوحدين مع أنفسهم - أليست هي التي تضع أضلاع مظلـــة في أجنحتهــم ؟

ان جميع الملائكة الموجودين في الفن الديني زائفون • اذا اردت ان ترى ملاكا حقا عليك بالمستودع المركزي الكبير أو محطة القديس اليعازر • وخاصة محطة القديس اليعازر - في ردهة الانتظـار(١)•

نظريتي في الرسم هي انهاء اللوحة بأسرع وقت ممكن وفي تلطيخ اللون • فأنا قبل كل شيء عارف بالالوان، ولست حصـان جر • اذن ، الى الانابيب !

أبدأ برسم جانب البيت ، بلون بني مصفر • ليس مؤثرا كثيرا • وأضع ضربة حرة من الاليزارين القرمزي على الجُدار المجاور • ان هذا فائق الجمال• مفعم بالطابع الايطالي • على كل حال ، عموما لم أبدأ بشكل جيد بألواني• يسود جو ممطر يذكرني نوعا ما بأوتريللو • انني لا أحب بلاهة اوتريللو الهادئة ، ولا أيامه الماطرة ، ولا شوارعه الضواحية ، ولا حتى الطريقة التي تبرز بها نساؤه مؤخراتهن في وجهك ••• أخرج سكين الخبز • قد أجرب أيضا مقدارا من الطلاء الكثيف • وفي محاولتي ضغط تشكيلـة غنية من الالوان يحثني دافع كي أضيف قارب جندول للوحتي • أقحمه تحت الجسر مباشرة ، وهذا بدوره يحمله بشكل آلي •

/ والان صرت أعرف فجأة علة وجود الجندول • فمن بين لوحا ترينوار رأيت منذ أيام منظرا لفينيسيا • مع الجندول الذي لا غنى عنه طبعا • وما أذهلني ، بشكل طفيف ، كان ذاك الرجل الجالس في الجندول اذ أنه بدا رجلا بشكل مميز ، رغم انه مجرد نقطة سوداء ، من الصعب تمييزها عن باقي النقاط التي تكوّن أشعة الشمس ، والبحر المقطع والقصور المتقوضة ، والقوارب الشراعية •• الخ - ومع ذلك كان رجلا بارزا للعيـان • بل كان باستطاعتك ان تتنبأ بانه فرنسي وأنـه من عـام ١٨٧٠ أو حوالي هـذا التـاريخ •••

هذا لا يعني انتهاء الجندول • فقبل استعـدادي للذهاب الى اميركا

(١) بالفرنسية .

بيومين – عام ١٩٢٧ او ٢٨ – عقدنا اجتماعيا كبيرا في البيت · حدث هذا في فترة هي قمة عهدي بالالوان المائية ·

بدأ الامر بطريقة متميزة ، أقصد بكلامي الهوس باللون المائي ، ويمكنني القول أنه بدأ عن طريق الجوع · ناهيك عن البرد القارس · كنت أتسكع طوال أسابيع مع صديقي جو في مكاتب مراهنات الجياد ومحطات الاستراحة ، وحيث وجد الدفء الحيواني دون تكلفة · في طريق عودتنا الى معرض الجثث في احدى الليالي لاحظنا اعلانا عن اعادة لمعرض ترنر من واجهة أحد المخازن · هكذا تماما بدأ الامر كله · كانت فترة من أكثر الفترات حيوية وأكثرها متعة في حياتي المجدبة · وعندما أقول أننا فرشنا الارض اللوحات فأنا لا أغالي · وحالما تجف نعلقها – وفي اليوم التالي نأخذها الى الطابق الارضي ونعلق مجموعة أخرى · لقد رسمنا على خلفيات اللوحات القديمة ، كنا نمحوها أو نكشطها بالسكين ، ومن خلال هذه التجارب نكتشف بالصدفة ، أشياء مدهشة · اكتشفنا كيف نحصل على نتائج مسلية بتفل القهوة وفتات الخبز ، بالفحم وسائل زهر العطاس ، مددنا الرسومات في حوض الاستحمام ونقنعاها لساعات ، بعدئذ أتينا بفرشاة مثقلة بالالوان واقتربنا من اللوحات الشبيهة بعجة البيض وهي تقطر ورحنا نطيّرها فوقها · لقد بدأ ترنر هذا كله – ومعه بدأ شتاء عام ١٩٢٧ – ٢٨ ·

وكما قلت ، قبل رحيلي بيومين زارنا عدد من الرسامين ليفحصوا عملنا · كلهم من النخبة الممتازة ولم يرقوا لمستوى الاهتمام بعمل هواة · اللوحات المائية منطرحة في كل مكان من الارض لتجف ، كما هي العادة · وكتجربة أخيرة صرنا ندوس فوقها ونريق قليلا من الخمر ونحن نقوم بذلك · ما أدهش التأثيرات التي يقدمها كعب قذر ، او قطرة من الخمر ساقطة من علو ثلاثة أقدام بقصد مبيّت · ويتصعد الحماس · اثنان من أصدقائي يعملان على الجدار بقطع من الفحم ، واخر يغلي القهوة ليحصل على بعض التفل الرائع الطازج · والبقية جالسة تحتسي الشراب · وفي غمرة الاحتفالات – أي حوالي الثالثة بعد الظهر – تدخل زوجتي · يبدو عليها قليل من الغم · تأخذني جانبا وتريني بطاقة سفر على سفينة بخارية · آخذها · أقول « ما المناسبة ؟ » تجيب « يجب أن ترحل » · أقول « ولكن لا أريد أن أرحل ، انني سعيد تماما هنا » تقول بلهجة أقرب للسخرية « هذا ما أراه » ·

ومع ذلك أرحل · وبينما نحن نرتقي نهر التيمس تكون الفكرة الوحيدة في رأسي هي أن أشاهد مجموعة ترنر الشهيرة · وكما يشاء الحظ أن يراني أحد انصاف الحمقى هناك فيولع بي · وأجد أنه أحد خبراء الرسم المائي الرائعين ايضا · يعمل طوال الوقت على نور المصباح · كرهت مغادرة

لندن ، وقد جعلني أرى الامر مقبولا • مهمـــا يكن ، فكرت ونحن نغادر ساوثمتن بيني وبين نفسي ـ « لقد اكتملت الدائرة الان : من واجهة المخزن العام الى هنا » •

على اية حال ، دعني أتابع ••• سيكون هذا الجندول بمثابة «الطبق الرئيسي»[1] ولكن علي أولا أن أنظف الجدران • أتناول سكين الخبز وأغمسها في الصباغ القرمزي ، وأضيف مقدارا اضافيا لنوافذ البيوت • ويا ليسوع المقدس ! لقد تلظّت البيوت باللهب على الفور ! لو كنت مجنونا حقـا ، ولا أتقلد جنون أحد المجانين ، لوضعت رجال اطفاء في الصورة ولصنعت من ألواح أرضية الجسر القطرية الشديدة الانحدار سلالم • لكن جنوني يتخذ شكل اضرام حريق هائل • انني أضرم النار في البيوت جميعا ـ أولا بلون القرمزي ، بعدها بلون الـ Vermillion ، وأخيرا بمزيج دموي من الثلاثة مجتمعة • ان هذا الجزء من الصورة واضح وجاسم : انه محرقة جماعية •

ونتيجة هذا الحرق الجماعي هي أنني سبّبت شياط ظهر الحصـــان • والان لا هو حصان ولا هو حمار وحشي • لقد صار تنينا آكلا للنار • ومكان الذيل المفقود مجموعة من مفرقعات نارية ، وبهذه المجموعة من مفرقعات النار المتوضعة فوق فتحة شرجه لم يعد باستطاعة ولا حتى حصان أيّوني أن يحتفظ بجلاله • كان باستطاعتي طبعا أن أستمر فأحوله الى تنين ، لكن هذا التحويل والتبقيع أصبح يسيطر على أعصابي ، فعنـدما تبدأ بحصان يجب أن تحافظ عليه حصانا ـ أو أن تتخلص منه نهائيا • وحالما تبدأ بالعبث بتشريح حيوان ما يمكنك أن تحيط بكل جوانب العمليـة النشوئية العرقيـة •

رحت الطّخ الحصان بلون الاخضر المبهم القاسي ولون النيلة • وكن واثقا انه لا يزال يشغل بالي • قد ينظر الناس الى هذه المادة المبهمـة ويفكرون قائلين ـ ما أغربها ! ما أعجبها ! ولكن أنا وحدي أعرف أنها في الاعماق حصان • ففي أعماق أي شـيء هناك حيوان : هـذا هو شاغلنا الشاغل • عندما أرى بشرا يتلوون باتجاه النور كأزهـار عباد الشمس الذابلة ، أقول لنفسي « تلووا ، يا أولاد الحرام ، وادّعوا كل ما تشاؤون ، ولكنكم في الاعماق ستبقون سلحفاة أو خنزيرا غينيا • كان الاغريق مولعين بالخيول ولو كانت لديهم الحكمة لبقوا أنصاف أحصنة بدل أن يلعبوا دور التيتان ـ حسن ، ربما كنا بهذا وفّرنا الكثير من الآلام الاسطورية •

عندما تكون عارفا فطريا بالالوان المائية فكل ما يحدث هو بمشيئة الله ـ لذا ، اذا دعيت لرسم بوابات المقبرة باللون الاصفر الفاتح الفاقع ، فافعل هذا ولا تتذمر • ولا بأس اذا كانت فائقة الحيوية بالنسبة لبوابات

(١) بالفرنسية

رزينة كهذه • ربما هناك تبرير مجهول • وأقول الحق عندما أرسم بهذا السائل الاصفر البراق ، هذا اللون الاصفر الذي اعتبره أجمل ألوان الاصفر (وهو أكثر صفرة من مصب يانغتس ـ كيانغ) فانني أبتهج ، أبتهج ، وقد انزاح عني شيء موحش ، متخم ، مضايق الى الابد • لن أدهش ان كان هذا الشيء هو مقبرة تلال السرو التي مررت بها وأنا اشعر بالاشمئزاز والخزي لسنوات عدة التي اطليت عليها من المنحنى الموجود على الخط المرتفع الذي بصقت عليه من رصيف القطار او كان مقبرة القديس يوحنا بملائكتها الرصاصية البليدة ، حيث عملت كحفار قبور • أو كان مقبرة مونبرناس التي تبدو في الشتاء وكأنها قد دُمِّرت بقنبلة يدوية • مقابر ، مقابر ••• يا لله ، أرفض أن أدفن في مقبرة ! لا أريد أن يقف بعض البلهاء فوق رأسي يحملون بأيديهم الرذاذات ويبدو عليهم الاسى • لا أريد هذا !

بينما هذه الامور تمر في رأسي كنت الطخ بلا قصد الاشجار والاسوار بفرشاة جافة • صارت الاشجار الآن تلمع كمعطف ذات درع ، والاغصان مرصعة بحلقات من الفضة والفيروز • ولو كانت حادثة الصلب في حضوري لغطيت أجساد الشهداء بندوب من الجواهر • على الحائط المقابل يوجد مشهد من مجاهل أثيوبيا • وجسد المسيح المصلوب الممدد على الارض مغطى بالجدري ، واليهود مصاصو الدماء ـ يهود اثيوبيون سود ـ يوثقونه بحلقات حديدية • انهم يحملون على وجوههم تعبيرا جذلانا بضراوة • اشتريت اللوحة لاجل البثور ، ولم أكن أعرف سبب ذلك عندئذ • لم اكتشف السبب الا الآن • لم أتذكر الا الآن صورة بعينها معلقة فوق قبو في الباوري ، تحت عنوان « الموت للبق » • حدث هذا اثناء عودتي من زيارة رسمية لاحد المجانين لم تكن مزعجة بشكل عام • الوقت منتصف الظهيرة وحلقوم الباوري القذر محشو بكتل البلغم • وعند اسفل ساحة كوبر يتمدد ثلاثة سكارى قرب عمود النور على طريقة بروغل (١) • وملهى بنسي مزدحم تماما • وترنيمة سحرية علوية تصدح منبعثة من الشوارع ، كرجل يحمل ساطورا يلوح به شاقا طريقه تنتابه نوبات عنيفة • هناك فوق باب القبو المنحرف توجد تلك اللوحة المسماة « الموت للبق » • امرأة عارية ذات شعر منهمر طويل مستلقية على سرير تهرش نفسها • والسرير معلق في الهواء وحوله يرقص رجل يحمل بندقية رشاشة • يحيط به جو البله الذي يحيط اولئك اليهود ذوي الحلقات الحديدية • الصورة مبقعة بالبثور ـ لتمثل تلك البقة العالمية ماصة الدم المنزوعة الاجنحة

---

(١) بيتر بروغل : رسام فلامنكي (١٥٣٠ ؟ ـ ١٥٦٩) يعتبر تلميذ هيرونيموس بوش أبو السيريالية في الرسم •

الكئيبة ذات اللون الاسمر المائل للحمرة والرائحة الكريهة التي تعم البيوت والاسرة والمتداولة بالاسم الرائع المعروف بالـ Cimex Lectularius ·

وها انا الان احمل فرشاة جافة اضع النقط علـى الشجرات الثلاث · الغيوم مغطاة بالبق ، والبركان ينفث بقا ، والبق يتدحرج هابطا المنحدر الطباشيري غاطسا في النهر · انني كذاك المهاجر الشاب في الطابق الثاني من قصيدة كتبها احدهم يدعى ايفانوفيتش او اخر يقفز من مكان لاخـر فوق نوابض السرير يتملكه بؤس الحياة المعدمة المسفوحة يائسا من كـل الجمال الواقع تحت قبضته · حياتـي كلها تبـدو متدثـرة بذلك المنـديل الوسخ ، الباوري ، الذي مشيت خلاله يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ـ انه جرعة من الجدري لا تندمل ندوبها أبدا · فـاذا كـان لي أسم فهـو Cimex Lectularius · · واذا كان لي بيت فهو عظمة المترددة الملتزمة واذا كانت بي رغبة فهي أن أغتسل تماما ·

وفي ثورة غضب أتناول الفرشاة واغمسها في جميع الالوان على التوالي وأبدأ بتلطيخ بوابات المقبرة · الطخ الطخ حتى يصبح النصف الاسفل من اللوحة بسماكة الشوكولاتة ، وحتى تعبق اللوحة برائحة الخضاب · وعندما تتدمر تماما أجلس أمامها باستمتاع فارغ وانا اعبث بأصابعي ·

وفجأة احصل على الهام حقيقي · اخذها الى المغطس وبعد ان انقعها جيدا اكشطها بفرشاة ذات ظفر · اكشط واكشط وبعدها اقلب اللوحة رأسا على عقب تاركا الالوان تتخثر · وبحذر ، بحذر شديد ، أمدها فوق المقعد · فاذا بها تحفة فنية ، أؤكد لك هذا ! انني أدرسها منذ ثـلاث ساعـات مضـت ···

قد تقول انها مجرد صدفة ، أقصد هذه التحفـة ، نعم انها كذلك ! ولكن على هذا الاساس يصـح قـول نفس الشيء عـن المزمـور الثالث والعشرين · ان كل ميلاد هو أعجوبي ـ والهامي · وما يتبدى أمام ناظري الان هو نتيجة اخطاء لا عد لها وارتدادات ومحو وترددات ، وهو ايضا نتيجة اليقين · انت تميل لان تضع ثقتك بالفرشاة ذات الظفر ، وبالماء · اذن افعل ـ وبكل الوسائل · ضع ثقتك في كل شخص وكل شيء · ثق بدانتي ، ثق باسبينوزا ، ثق بهيرونيموس بوش · ثق نقدا وكن مدينا للمجتمع المجهول· واكتب في السجل اليومي : العمة ميليا · هكذا · ارسم توازنا · بـواسطة بنس ، هه ؟ اذا استطعـت ان تخـرج بنسا مـن جيبـك وتوازن الكتب فستفعل · لكنك لم تعد تتعامل مع بنسات حقيقية · فليس هناك آلـة من المهارة بحيث تلفق ، تزيف هـذا البنس الـذي لا وجـود له · ان عالم الحقيقي والزائف بات خلفنا · وقد أوجدنا اللامادي من المـادي ·

عندما تتمكن من رسم توازن نظيف لن يكون ما بين يديك مجـرد صورة ، فقد صار لديك الان اللامحسوس ، الصدفة ، فتجلس ، طـوال الليل ودفتر الحسابات بين يديك تعصر جمجمتك فوقه وتحمل علامة ناقص على يديك ، ان كل المعلومات الحية الممتعة مصنفة في فئة الناقص ، وعندما تجد المكافىء الموجب يكون لديـك ـ لا شيء ، يكون لديـك ذاك الشيء الخيالي ، اللحظي المسمى « التوازن » ، ان التوازن لا يوجد أبدا ، انـه خدعة ، كتوقيف الساعة ، او كالمناداة بالهدنـة ، انـك تكتشف توازنا لتضيف ثقلا مفترضا ، لتخلق سببا لوجودك ،

لم أتوصل مرة الى رسم توازن ، انـني دائما ناقص شيء ما ، لـذا فلدي سبب لاستمر ، انني اضع حياتي برمتها في التوازن لكي تنتج لـي لا شيء ، ولكي تصل الى اللاشيء عليك ان تطرح ارقاما لا متناهية ، هذا هو الامر كله ، في المعادلة الحية الاشارة بالنسبة لي هي اللامتناهي ، ولكي تصل الى اللامكان عليك ان تعبر كل كون معروف : يجب أن تكون في كـل مكان لكي تكون في اللامكان ، ولكي تحصل على الفوضى عليك أن تحطم كل شكل من أشكال النظام ، ولكي تصير مجنونا يجب ان تحصل علـى ركام بديع من العقلانية ، لم يعلموني شيئا ـ لان لوائح التوازن التـي سلموها لنا قد زُيِّفت ، حساباتهم لا تعني لي شيئا ـ لان الارقام قـد بُدِّلت ، ودفاتر الحسابات المذهبة الحواف الرائعة التي أعطـوني اياها تحوي الجمال الخفي للنباتات التي افحموها في الليل ،

يا لتحفتي ! انها مثل شظية تحت الظفر ، انني أسألك الان وأنت تنظر اليها هل ترى البحيرات الكامنة وراء جبال الاورال ؟ هل ترى كوتشي المجنون يوازن نفسه بمظلة ورقية ؟ هل ترى قوس تراجان[1] يشق دخان اسيا ؟ هل ترى طيور البطريق تذوب في جبال الهيمالايا ؟ هل ترى الاغريق والسيمونولز ينزلقون مجتازين بوابات المقبرة ؟ هل ترى الجداريات الجصية من النيل الاعلى ، بأوزاتها الطائرة ، ووطاويطها والاقفاص الهائلة ؟ هل ترى مقابض السيوف الرائعة للصليبيين والرضاب الذي كان يغســلهم تماما ؟ هل ترى الاكواخ البدائية تشتعل نارا ؟ هل ترى الكالي Alkali يغوص وعظام الابغال والبوراكس البراق ؟ هل ترى ضريح بلثـازار او الغول الذي يرميه ؟ هل ترى المصبات الجديدة التي ينوي نهر الكلورادو شقها ؟ هل ترى اسماك النجمة المنطرحة على ظهورها والذرات التـي تسندها ؟ هل ترى عيني الاسكندر الملتهبتين ، او الحزن الذي الهمهما ؟ هل ترى البحر الذي تتغذى عليه الخربشات ؟

لا ، اخشى انك لا ترى شيئا ! انت لا ترى الا الملاك الازرق الكئيب الذي جمدته انهار الجليد ، بل حتى انك لا ترى دعامات المظلة ، لانك لم تدرب

---

(1) تراجان : احد اباطرة روما المتأخرين .

على البحث عن دعامات المظلات لكنك ترى ملاكا ، وترى فتحة شرج حصان • وبامكانك الاحتفاظ بهما : انهما لك ! لم يعد هناك بثور على الملاك ـ بل مجرد بقعة من الضوء الازرق البارد تبرز بوضوح معدته المتدلية وأقواسه المكسورة • ها هنا يقف الملاك كالعلامة الخفية ، انه بمثابة ضمان لرؤاك المعصوبة • ليس للملاك غدة درقية متضخمة ، أما الفنان فله • الملاك مستعد لوضع اغصان بقدونس فوق صحنك المملوء بعجة البيض ، او يضع النفل (١) في عروتك • بامكاني ان اكشط الاسطورة عن عرف الحصان ، بامكاني ان اكشط لون الاصفر عن اليانغتس ـ كيانغ ، بامكاني ان اكشط الموعد الذي ينتظره الرجل الجالس في الجندول : بامكاني ان اكشط الغيوم والمنديل الورقي الذي يغلف الباقات ذات البريق المتشعب ••• لكنني لا استطيع ان امحو الملاك • اذ ان الملاك هو علامتي الخفية •

(1) Shamrock.

دكـــان الخياط

عندي لك شعار : فلتكن دائما مرحا متألقا !

كان يومي يبدأ عادة كما يلي : « اطلب من فلان الفلاني قليلا من شيء ما على الحساب ولكن لا تهنه ! » كانوا أولاد حرام حساسين ، وكنا ندين لكل هذا الروث العتيق بطعامنا • وكان هذا كفيل بدفع اي انسان الى ادمان الخمر • كان محلنا هناك ، مقابل اولكوت ، في شارع الخياطين الخامس ومع ذلك لم نكن نطل على الشارع • كنا شركة مؤلفة من أب وابن مع ام تحمل الرشوة •

في كل يوم ، الثامنة صباحا او نحوها ، اقوم بمسير فكري رشيق من شارع ديلانسي وباوري وحتى مشارف اسفل والدورف • ومهما اسرعت في خطوي كان من المؤكد ان العجوز بندكس سيسبقني الى هناك ، ليقيم الدنيا ويقعدها على مفصّل الثياب لانه لم يكن اي من رؤساء العمل في عمله•• لم اعرف ابدا كيف لم اتمكن مرة من التقدم على هذا الصقر العجوز بندكس ؟ لم يكن لدى هذا البندكس ، ما يفعله غير الركض من عند الخياط الى صانع القمصان ، ومن صانع القمصان الى الجواهري ، كانت خواتمه إما واسعة جدا او ضيقة جدا ، وساعته اما متأخرة خمس وعشرين ثانية أو متقدمة ثلاثا وثلاثين ثانية • كان غاضبا مع الجميع ، بما فيهم عائلة الطبيب • لان هذا الاخير لم يتمكن من تنظيف كليتيه من الحصى • واذا صنعنا له معطفا من النوع الفضفاض في آب فما إن يحل تشرين الاول حتى يصبح كبيراً جدا عليه ، او صغيرا جدا • فإذا لم يجد ما يشتكي منه يلبس ملابسه على أفضل ما يرام لكي يحصل على متعة تعنيف صانع الملابس الداخلية لانه يسبب خنق خصيتيه، هه• • وبندكس• كان انسانا صعب الارضاء • سريع الغضب • ذو نزوات • حقير • أطواره غريبة ، بخيل ، كثير التقلب حاقد • عندما أستعيد كل هذا الان ، أرى

العجوز جالسا الى طاولة وهو سكران ويقول اللعنة لماذا لا يبتسم احدكم ، لماذا تبدو الكآبة عليكم جميعا ، أشعر بالاسف لاجله ولجميع الخياطين التجار الذين يضطرون لتقبيل مؤخرات الاغنياء ٠ ولولا حانة اولكوت الكائنة عبر الشارع والسكارى الذين يجتمع بهم هناك يعلم الله الى اي حال كان سيؤول اليه العجوز ٠ من المؤكد ان العطف كان مفقودا في بيته ٠ لم يكن لدى امي أدنى فكرة عما يعني تقبيل مؤخرات الاغنياء ٠٠كل ما كانت تحسن عمله هو التأوه والتحسر طوال اليوم ، ونتج عن تأوهها وتحسرها سكير وحلوى البطاطا لا يمسها أحد ٠ لقد نقلت الينا مرض العصبي بقلقها الذي جعلنا نغص بلعابنا انا واخي ٠ كان اخي قليل الذكاء الى حد انه يستنفذ اعصاب العجوز اكثر من هـ٠ و٠ بندكس بعبارته « القس فلان الفلاني ذاهب الى اوروبا ٠٠٠ القس فلان الفلاني سيخصص مساحة للعبة البولينغ ٠٠ الخ ، » « القس الفلاني هو فتحة شرج » هكذا كان يقول « ولماذا ليست البطاطا ساخنة ؟ »

كان هناك ثلاثة بندكسات ـ هـ٠ و٠ الكثير الشكوى ، ثم ا٠ ف الذي اشار اليه العجوز في دفتره باسم البرت ، ر٠ ن٠ الذي لم يزر الدكان لانه كسيح ـ وهذا لم يمنعه على اية حال من ارتداء السروال في وقته ٠ وانا لم أر ر٠ ن٠ رؤية العين ، بل كان مجرد عبارة في دفتر تحدث عنه بحماس لانه كان يوجد دائما بعض شراب الشنبس عندما يحين وقت قياس السروال ٠ كان الاخوة الثلاثة اعداء ابديين ، لم يصدف مرة أن أشار أحدهم الى الاخر في حضورنا فاذا ما رأى البر ت، وكان به مس قليل ووله بالالبسة المنقطة ، معطف الـ Cutawav معلق على الشماعة والاسم هـ٠ وبندكس مكتوب بالحبر الاخضر على لوحة الاعلان عن القياس ، أصدر همهمة تذمر ضعيف وقال ـ « يبدو أن الربيع قد حل اليوم ، هه ؟ » ولم يكن من المفروض وجود شخص يدعى هـ٠ وبندكس ، رغم أنه من الواضح للجميع مهما اختلفت أصنافهم اننا لا نصنع الثياب للاشباح ٠

أحببت البرت اكثر من اخويه الاخرين ٠ كان قد وصل الى تلك السن الناضجة عندما تصبح العظام هشة كالزجاج ؛ لعموده الفقري الانحناءة الطبيعية لكبر السن ، وكأنه مستعد للتكوم تمهيدا للعودة الى الرحم ٠ كان باستطاعتك ان تعرف متى يصل البرت بسبب جلبة المصعد ـ سيل من اللعنات والتأوهات تتلوه نقرة خفيفة رشيقة تصحب عملية رفع مستوى أرض المصعد الى مستوى أرض دكان الخياطة ٠ فاذا لم تتم هذه العملية بدقة تصل الى ربع انش لم تسمع الضربة الخفيفة ، وبعدها يقضي البرت بعظامه الهشة وعموده الفقري المنحني وقتا غير محدود ينتقي الازرار التي تتماشى مع البذلة المنقطة ، أقصد اخر بذلة منقطة يخيطها ٠ (عندما مات البرت ورثت كل بذلاته المنقطة وقد خدمتني حتى نهاية الحرب)

فاذا ما حدث ، وهذه هي الحال احيانا ، وكان العجوز في الطرف الاخر من الشارع يرشف قليلا من مشروب ثم وصل لاضطرب نظام اليوم كله ٠ اذكر مرات كان يثور فيها البرت مع العجوز حتى اننا لم نكن نراه لثلاثة ايام ، في حين تكون ازرار البذلة مبعثرة في كل مكان على قطع من الكرتون ولا يدور الحديث بعدها الا عن ازرار البذلة ، أزرار البذلة ، وتصبح البذلة نفسها غير ذات اهمية ، ولا يغدو هناك الا الازرار ٠ بعدها عندما اعتاد البرت على اهمالات العجوز ـ اذ أن عملية التعود بعضهما على بعض استغرقت معهما مدة سبع وعشرين سنة ـ صار يخبرنا بالتلفون انه قادم ٠ وقبل ان يعلق الهتاف يضيف : « أعتقد أنه لا بأس من مجيئي في الساعة الحادية عشرة ٠٠٠ الا يناسبكم هذا ؟ » وكان لفحوى هذا التساؤل الصغير وجهان ٠ فهو يعني ـ « أعتقد انكم ستكونون من اللباقة بمكان لتنتظروا قدومي ولا تتركوني اتسكع نصف ساعة بينما انتم تملأون بطونكم مع أقرانكم في الطرف الاخر من الشارع » وهو ايضا يعني ـ « اعتقد انه في الساعة الحادية عشرة هناك خطر صغير بالالتقاء فجأة مع شخص يحمل الحرفين هـ٠ و ؟ » خلال السنين السبع والعشرين والتي صنعنا اثناءها ١٥٧٨ بذلة للاخوة البندكسات لم يصدف أن اجتمع الاخوة الثلاثة مرة ، ليس في حضورنا على الاقل ٠ وعندما مات البرت وضع كل من ر٠ن و هـ٠و شريطي الحزن على كميهما وعلى جميع الاكمام اليسارية لمعاطفهما الكيسية ومعاطفهما العادية ـ اعني معاطفهما التي ليست سوداء اللون ـ ولكن لم تُذكَر كلمة واحدة عن الميت ، او عن حياته ٠ وطبعا كان لـ ر٠ن عذره لكي لا يذهب الى الجنازة ـ فهو كسيح ٠ أما هـ٠و فكان من الحقارة والغطرسة بحيث لم يُحمِّل نفسه عبء تقديم عذر ٠

كانت الساعة العاشرة هي التوقيت الذي يختاره العجوز عادة ليعب رشفته الاولى ، كنت اجلس عند النافذة أواجه الفندق وأراقب جورج صاندسكي وهو يعتل الصناديق الكبيرة الى السيارة وعندما لا تكون هناك صناديق لتُعتَل يقف جورج هنا ويداه مضمومتان خلف ظهره ويروح ينحني ويَجر قدمه على الارض للزبائن وهم خارجون وداخلون من الابواب الدوارة ٠ عندما أتيت لاول مرة الى دكان الخياط واتخذت وقفتي عند النافذة الامامية ، كان صندسكي قد قضى حوالي عشرين عاما يجر قدمه الى الوراء وينحني ويعتل ويفتح الابواب ٠ كان رجلا ساحرا ناعم الحديث ذا شعر أبيض جميل ، وقوي كالثور ٠ لقد جعل من وظيفة تقبيل المؤخرات فنا ٠ وقد ذهلت مرة عندما ارتقى المصعد وطلب أن نخيط له بذلة ٠ وفي أوقات راحته يصبح الجنتلمان جورج صندسكي ٠ كان لديه ذوق هادئ ـ دائما يرتدي

المسرح (١) الازرق او الاكسفورد الرمادي • كان رجلا يحسن التصرف في المآتم او الاعـراس •

وبعد ان متنت معرفتنا ببعض حاول ان يفهمني انه عثر على المسيح• وقد نجح بفضل لسانه الناعم وبمساعدة اليسوع الحيوية والعضلية في ادخار بعض المال ليرد عنه عواتي الشيخوخة • كان الرجل الوحيد الذي قابلته في تلك الفترة ولم يكتب باسمه بوليصة تأمين على الحياة • كان مقتنعا أن الله يتكفل بالمنبوذين كما تكفل به شخصيا ، جورج صندسكي • لم يكن يخشى ان ينهار بعد موته • فالله قد رعى كل شخص وكل شيء حتى الان – ولا مبرر لافتراض تخلي الله عن هذا العمل بعد موت جورج • وعندما سيتقاعد جورج يوما سيكون من الصعب ايجاد رجل اخر يحل مكانه • ولم يكن هناك من يجاريه في تملقه ومداهنته ليستحق سد الثغرة في اللائحة • ولم يكن لاحد أن ينحني ويجر قدمه كما يفعل جورج . لقد كان العجوز يكن دائما عظيم الحب لجورج • ويحاول اقناعه بين حين واخر بتناول كأس معه لكن جورج كان يرفض دائما بأدبه المعتاد العنيد والذي حببه الى قلوب ضيوف اولكوت •

وغالبا ما يكون العجوز معتدل المزاج عندما يطلب من احدهم ان يشاركه الشراب ، حتى ولو كان شخصا مثل جورج صندسكي • ويحدث هذا عادة في وقت متأخر من بعد ظهر احد الايام عندما تسوء الامور ، ولا يتسلم المرء الا الفواتير • احيانا يمضي اسبوع دون ان يمر زبون واحد ، فاذا ما مر احدهم فللشكوى فقط ، ليطلب تعديلا ما ، او ليثير حفيظة الخياط ، او ليطلب تخفيضا للسعر • كانت هذه الاشياء تربد وجه العجوز وكل ما كان يفعله هو أن يعتمر قبعته ويذهب لتناول كأس • وبدل أن يعبر الشارع كما اعتاد ان يفعل يتجول قليلا بعيدا عن القاعدة ، ويغوص في برسلن ، بروزتل ، واحيانا يحيد في نزهته بعيدا عن الطريق حتى يصل انسونيا وهناك يحتفظ معبوده ، جوليان ليغرى ، بمجموعة من الغرف •

وكان جوليان ، معبود فترة الصباح ، لا يرتدي آلا البذلات الرمادية اللون ، بكل تدرجاته التي يمكن تخيلها ، المهم ان تكون رمادية • كان له وجه ممثل انكليزي سمين ذي سلوك مرح مقبض يتجول هنا وهناك يقايض القصص مع بائعي الصوف المتجولين ، وتجار الكحول واخرين لا اهمية لهم • لكنته كافية لتجعل الناس يتحلقون حوله ، وهي لكنة انكليزية من النوع المسرحي التقليدي ، دافئة ، متملقة ، لزجة تضفي على الفكر مهما كان تافها إهمية • لم يكن جوليان يقول شيئا يستحق التسجيل الا أن صوته ذاك

---

(1) Serge.

كان يعمل عمل السحر في معجبيه • وبين الحين والاخر عندما يقوم هو والعجوز بجولاتهما يأخذان أحد المنبوذين مثل كورس بيتون الذي يقطن في الجانب الاخر من النهر منذ مطلع هذا القرن • كان كورس بيتون في الفن مثل ما كانه بات ماكارن في السياسة •

كان ما يقوله العجوز خلال هذه المناقشات بالنسبة لي مصدرا للغموض • لم يقرأ العجوز كتابا في حياته ، ولم يشاهد مسرحية منذ الايام التي تخلى فيها شارع بوري عن مكانه لبرودواي • اذكره وهو يقف هناك عند مائدة الغداء المجاني – وكان جوليان مولع بالكافيار مع سمك الحفش الذي يقدم في اولكوت – وهو يمتصه ككلب عطشان • ويناقش معبودا الصباح شيكسبير – يتساءلان ان كانت هاملت او لير هي المسرحية الاعظم على الاطلاق • او يتناقشان في مواهب بوب انغرسول •

في ذلك الوقت وقف خلف البار ثلاثة ايرلنديين شجعان ، وثلاثة رعاع كهؤلاء كانوا كفيلين بتحويل بارات تلك الايام الى ما هي عليه من مراتع ملائمة • كان يظن بهم افضل الظنون ، هؤلاء الثلاثة ،حتى أنه لمن قبيل الامتياز أن يناديك شخص مثل باتسي اودون : ابن عاهرة مصاص الاير سافل ملعون ليس لديه من الحس ما يجعله يزرر فتحة بنطاله • فاذا ما سألته ، على سبيل المجاملة ، ان كان يريد أن يتناول شيئا لنفسه لاجابك باتسي أودون برد بارد ساخر أنه يلائم شخصا مثلك أن يصب غائطا عفنا في جوفه ، وبعد ان يقول هذا سوف يرفع كأسك من عنقه بازدراء ثم يمسح خشب الماهوغوني لان هذا جزء من عمله وهو يقبض مقابل القيام به لكن سيلعنك اذا ظننت ان باستطاعتك اغراء شخص مثله لتيسمم أمعاءه بشيء حقير كهذا • وكلما ازدادت رداءة اهاناته كلما صار محترما ، وخبراء المال الذين اعتادوا ان يمسحوا مؤخراتهم بمناديل حريرية سوف يتوجهون الى البلدة فورا ، بعد أن يغلق مكتب البرق أبوابه ، لكي يسمحوا لذاك الابن الحرام كريه الفم الايرلندي ان يطلق عليهم اسم الملاعين السفلة مصاصي الاير اولاد العاهرات • ويكون هذا ختام يوم عارم بالنسبة لهم •

كان رئيس هذا المخزن المتنوع السلع الانيق رجلا قزما مهيبا ذا أرجل ارستقراطية ورأس أسد • يمشي دائما يتقدمه كرشه ، وقد خبأ دنا من الخمر تحت ردائه ، وهو عادة يومىء برأسه ايماءة متصلبة متشامخة للسكارى الجالسين على البار ، الا اذا كانوا ضيوفا على الفندق • ففي هذه الحال سوف يتوقف لحظة ، ويمد ثلاثة من أصابعه الصغيرة السمينة ذات العروق الزرقاء ، ومن ثم ، وبتدويم شاربه وباستدارة حذرة تصدر صريرا حول الكعب ينطلق ذاهبا • كان العدو الاوحد للعجوز • ببساطة لم يكن العجوز يحتمله • كان يشعر أن توم موفات يرمقه بنظرة ازدراء • وعندما

يأتي الوقت ليطلب زوجا من الملابس الداخلية او معطفا بلا ذيل أو جاكيتا العشاء ، يندفع كالقارب بأبهته الجليلة المعتادة بطنه بارزة الى الامام ، وشاربه مشمّع ، وحذاؤه ملمع براق ودائما يصدر صريرا ، وبمزاجة اللامبالي الضجر ذي الازدراء المتحفظ يحيي العجوز كما يلي : « حسن ، ألم تصلح هذا الخطأ بعد ؟ » مما سيضرم غضب العجوز ويجعله يخفي براحة يده قطعة قماش امريكي او بقاياها عن عدوه توم موفات · يتلو هذا محاورة طويلة حول « الخطأ الصغير » في ادعاءاتنا · ويخرج العجوز عن طوره · وقد استأجر محاسبا خبيرا ليخط له كشوف حسابات بطول ثلاثة اقدام ـ ولكن بدون فائدة · واخيرا يطبق العجوز على فكرة ·

وعند حوالي ظهيرة أحد الايام ، وبعد أن نال حصته المعتادة ، بعد أن استضاف جميع بائعي الصوف المتجولين وبائعي الزركشات المجتمعين عند البار ، شرع يلتقط أعقاب السجائر الموجودة على البار وتناول قلم رصاص فضي معلق الى سلسلة ساعته ووقّع باسمه على الشيكات واعطاها لاودود وقال : « قل لموفات ان يسددها على حسابي » وغادر بعدها بعد أن دعا بعضا من اصدقائه المقربين ، واتخذ له طاولة في غرفة الطعام وأمر باعداد مائدة · وعندما قدّمت له ادريان الضفدعة فاتورة الحساب قال بهدوء : « اعطني قلم رصاص · هاك ··· هؤلاء أمناء سري تقريبا · دعيهم يسددوها على حسابي » وبما أنه من الامتع تناول الطعام مع الاخرين كان دائما يدعو أصدقاءه المقربين لتناول الغداء معه ، قائلا للجميع على اختلافهم « اذا امتنع ابن الحرام موفات عن دفع اجرة ملابسه فسنأكلها » · وبعد هذا القول يجند فرخ حمام يقطر سمنا ، أو سرطانا بحريا على طريقة نيوبرغ ، ويتبعها بموزيل رائع او اي نوع اخر من الخمر المعتق ينظف به جوفه قد تتوصى به ادريان الضفدعة أحيانا ·

ومما يثير الدهشة أن موفات يدّعي عدم انتباهه حيال كل هذا · ويستمر في طلب حصته المعتادة من ثياب الشتاء ، والربيع والخريف ، والصيف ، ويستمر أيضا في التشاجر بشأن الفاتورة التي صارت سهلة الانجاز بعد أن اختلطت مع شيكات البار ومخابرات التليفون ، وأفراخ الحمام ، وشمبانيا سرطان البحر ، والتوت البري الطازج ، والخمر البندكتيني ، الخ الخ · والحقيقة ان العجوز كان يسرع في قضم هذه الفاتورة حتى ان موفات ذا الساقين المهزولين لم يستطع ان يستهلك ثيابه بسرعة كافية · فعندما يأتي طالبا زوجا من الثياب الداخلية يكون العجوز قد أكلها في اليوم التالي ·

واخيرا ابدى موفات رغبة رصينة في تسديد الحساب بلا تردد · وانتهت المناقشة · في احد الايام ربت على ظهري بينما كنت اقف في الردهة وتلبّس

مظهرا وديا ودعاني الى الطابق العلوي حيث مكتبه الخاص . قـال أنه طالما اعتبرني شابا عاقلا وأن بامكاننا تسوية المسألة فيما بيننا دون ازعاج العجوز . واطلعت على الحسابات فرأيت أن العجوز أكل باتجـاه الجانب السالب منها . وربما كنت انا ايضا قد استهلكت بضعـا من معاطف الرغلان وجاكيتات الصيد . لم يكن أمامنا لنحافظ على زبانة توم موفات المكروهة الا أن نجد خطأ في الحساب . تأبطت حزمة من الفواتين ووعدت العجوز الغريب الاطوار أن أمحتص المسألة بكاملها . ابتهج العجوز عندما رأى ما آلت اليه الامور وبقينا ننظر في المسألة لسنوات . وكلما أتى توم موفات ليطلب بذلة يرحب به العجوز بسرور قائلا : « أما سويت أمر الخطأ الصغير بعد ؟ والان ، هاك قطعة باراثي رائعة حفظتها خصيصا لك ... » أما موفات فيعبس ويكشر ويختال رائحا غاديا كديك رومي . منتصب العرف ، وقدماه الهزيلتان مزرقتان من الخبث . بعد نصف ساعة يكون العجوز واقفا عند البار يجرع الكؤوس . ويقول « بـع موفات جاكيتا اخر للمساء ، على فكرة ، يا جوليان ، ماذا تريد على الغدا ءاليوم ؟ »

قلت ان العجوز اعتاد ان ينزل نحو الظهيرة طلبـا لمشية ، وكان الغداء يستمر في اي وقت من الظهيرة وحتى الرابعة او الخامسـة بعد الظهر . والصحبة التي كان العجوز يستمتع معها في تلك الايام رائعة . وبعد الغداء يخرج أفـراد الجوقة من المصعد وهـم يترنحون ، يبصقون ويقهقهون ، متوردو الوجنات ، ويغوصون في مقاعد جلدية كبيرة بجانب المبصقة . كان هناك فيرد باتي الذي يبيع مفارش حريرية ، ومزركشات مثـل بكرات الخياطة ، والازرار ، والحشيات مع صناديقها ، والكانفا الخ . كان رجلا ضخما ، كسفينة منتظمة ضربها اعصار ، ودائما يتجول وكأنه نائم ، تعبا الى حد أنه لم يكد يقوى على تحريك شفتيه ، ومـع ذلك فتلك الحركة الطفيفة من شفتيه جعلت كل شخص يقف معـه ينفجر ضاحكا دون ان يتحكم في نفسه . دائما يغمغم لنفسه بكلام – عـن الجبن خاصة . كان كلفا بالجبن ، والشميركاز وخاصة نوع اللمبرغر – وكلما كان عفنا كان افضل . وبين احاديث الجبن يحكي لنا حكايا عن هاينه وشوبرت ، او قد يطلب عود ثقاب حالما يريد أن يطلق ريحا ويضغط نفسه على الكرسي حتى نستطيع أن نخبره بلون اللهب . لم يقل مرة الى اللقاء أو الى الغد ، بل يصل ما انقطع من حديث اليوم الفائت ، وكأنما لم تقطعه فترة من الزمن. وسواء كان الوقت التاسعة صباحا او السادسة مساء يمشي نفس المشية الداخطة البطيئة المتثاقلة ، يغمغم بطريقته الساخرة خافض الرأس ، متأبطا مزركشاته وبطاناته ، نفسه فاسد ، وأنفه قرمزي اللون شفاني . يمشي مطأطأ الرأس في أكثف حركات المرور ، يضع جبن الشميركاز في جيب واللمبرغر في الاخر . بعد خروجه من المصعد يقول بصوته المرهق الرتيب

أن لديه بطانات جديدة وأن الجبن كان رائعا في الليلة الفائتة وهل تفكر في اعادة الكتاب الذي استعرته منه ومن الافضل أن تدفع حالا اذا كنت تريد مزيدا من البضاعة أو اذا أردت أن ترى صورا قذرة أرجوك حك لي ظهري هناك الى الاعلى قليلا نعم هكذا عن اذنك أنا ذاهب لأتبرز الان هل لديك وقت لا يمكنني أن أبدد اليوم هنا من الافضل اخبار العجوز أن يضع قبعته على رأسه حان وقت الذهاب لتناول شراب ٠ ويظل يتمتم ويدمدم وهو يقلب ماعونه الكبير ويضغط على زر المصعد بينما العجوز بقبعته المصنوعة من القش المائلة الى الوراء يتسلل الى البيت من خلف المخزن ، ووجهه مضاء حبا وعرفانا ويقول : « حسن يا فيرد ، كيف حالك هذا الصباح يسعدني ان اراك » وينفرد قناع وجهه الكبير الثقيل لحظة الى ابتسامة عريضة ، تدوم لحظة واحدة فقط بعدها يرفع صوته بأقصى ما تستطيع رئتاه قائلا — حتى أن توم موفات الواقف على الطرف الاخر من الشارع يسمعه — « الافضل أن تدفع حالا بحق الجحيم ، لماذا تظنني أبيع هذه الاشياء ؟ »

وحالما يبدأ المصعد بالهبوط يأتي روبن الصغير من غرفة الاصلاح ويقول لي وفي عينيه نظرة وحشية : « أتريد أن أغني لك ؟ » وهو يعلم جيدا اني اريد ٠ ويعود الى المقعد ، يلتقط معطفه الذي يرتقه وينطلق مرسلا صيحة قوقازية وحشية ٠

اذا صدف ومررت به في الطريق ، أقصد روبن الصغير ، فستقول عنه « كعكة صغيرة قذرة » وربما كان حقا كعكة صغيرة قذرة لكنه يحسن الغناء وعندما تكون مفلسا يعرف كيف يمد يده الى جيبه وعندما تكون حزينا يبقى هو أشد حزنا منك واذا حاولت أن تطأه بقدمك يبصق على حذاءك فاذا أعلنت توبتك يمسحه لك وينفض الغبار عنك ويزرر لك ثيابك الداخلية بما لا يستطيعه حتى ولا يسوع ٠ هـ ٠ المسيح ٠

كانوا جميعا أقزاما تضمهم غرفة الاصلاح — روبن وراب وتشيموفيتز ٠ عند الظهيرة يخرجون أرغفة كبيرة مستديرة من الخبز اليهودي دهنوها بزبدة محلاة واسماكا من نوع اللاكس ٠ وبينما العجوز يطلب أفراخ الحمام وخمر الراين يكون بنتشك المفصل مع ثلاثة من مساعدي الخياط جالسين على مقعد كبير بين المكاوي الاوزية والارجل والاكمام ويتكلمون برصانة ورزانة عن أشياء مثل الايجار أو أنواع القرحة التي أصيبت بها السيدة تشيموفيتز في رحمها ٠ كان بنتشك عضوا متحمسا في الحزب الصهيوني، ويعتقد أن اليهود ينتظرهم مستقبل سعيد ٠ ولكن رغم كل شيء لم يكن يستطيع أن يلفظ كلمة مثل « يخرط » كما يجب ، ويقول دائما : «خلطها» ٠ ثم الى جانب تحمسه للحركة الصهيونية كان لبنتشك وله اخر وهو أن

رتدي في أحد الايام معطفا يحيط بالعنق • كان جميع الزبائن تقريبا ذوي كناف مستديرة ، منتفخي البطون ، خاصة العجائز أولاد الحرام الذين لم كن لديهم ما يقوموا به طوال يومهم غير الركض من عند صانع القمصان لى الخياط ومن الخياط الى الجواهري ومن الجواهري الى طبيب الاسنان من طبيب الاسنان الى الصيدلي • كان من المتوجب اجراء تغييرات عديدة نتى اذا جهزت الثياب للارتداء فات أوانها وصار من اللازم وضعها جانبا لى العام القادم ، فاذا حلت السنة التالية يكون العجائز أولاد الحرام اما د ربحوا عشرين جنيها او خسروا عشرين وبوجود قليل من السكر في بولهم بالماء في دمهم يصير من المستحيل ارضاؤهم حتى عندما تكون الثياب مناسبة •

وكان هناك أيضا بول دكستر صاحب دخل الـ ١٠٠٠٠ دولار سنويا لكنه دائما دون عمل • وكاد يحصل مرة على عمل لكن الدخل كان ٩٠٠٠ دولار فقط ولم يسمح له كبرياؤه بقبوله • ولما كان من المهم أن يكون متهيئا تماما في بحثه عن هذا العمل الخرافي ، شعر بول ان التنازل لخياط جيد كالعجوز يشكل عبئا عليه • ولو أنه ثبت في ذلك العمل لاستقر كل شيء على أكمل وجه • ولم يكن في ذهن بول أي سؤال حول هذا الامر • كان شريفا تماما • لكنه كان حالما • جاء من انديانا ، وككل حالمي انديانا تمتع بمزاج محبب ، بطريقته الناعمة اليانعة الحلوة التي تقول انه حتى ولو اقترف السفاح لسامحه العالم اجمع • وعندما كان يضع ربطة العنق المناسبة ، ويختار العصى والقفاز المناسبين ، ويملأ بطنه بالطعام ولا يكون الطقس شديد الرطوبة او موحشا عندئذ ينبض من شخصيته ذلك التيار الدافىء من الحب والتفاهم الى درجة انه حتى بائعي المزركشات المتجولين المخشوشنين بالنسبة لهذه اللغة الناعمة يذوبون في احذيتهم • كان بامكان بول عندما تكون الظروف مجتمعة بشكل ملائم ، ان يمشي الى رجل ، اي رجل فوق ارض الله الخضراء ، يجره من طية معطفه ويغرقه في الحب • لم أر عمري رجلا لديه قوة اقناع كهذه ، ومغناطيسية • وعندما يبدأ الفيض بالارتفاع فيه يصبح لا يقهر •

يقول بول عادة : « ابدأ بماركوس اورليوس (١) او ابيكتيتوس وسيتبع الاخرون » لم يكن ينصح بدراسة اللغة الصينية او بتعلم الادب الريفي : كان يبدأ بسقوط الامبراطورية الرومانية • وكان طموحا عظيما بالنسبة لي في تلك الايام ان احظى باستحسان بول ، لكن بول صعب

---

(١) ماركوس اورليوس : امبراطور روماني (١٦١ — ١٨٠ م) له « تأملات » يعرض فيها نظرته الخلقية الرواقية .

الارضاء • يعبس عندما اريه « هكـذا تكلـم زرادشـت » • ويعبس عندما يراني جالسا مع اقزامي محاولا شرح معنى التقييم الخـلاق • وكان قبل كل شيء يكره اليهود • وعندما يظهر بنتشك مفصل الثياب وهو يحمـل قطعة طباشير ومقياس شريطي يتدلى من عنقه ، يصبح بول مهذبا مفرط التهذيب ومتواضع • كان يعلم ان بنتشك يحتقره ، ولكن لما كان بنتشك هو يد العجوز اليمنى ، راح يدلكه بالزيت ، ويداهنه بالتملقات • حتى ان بنتشك نفسه صار مضطرا للاعتراف بأن بول لديه شيء ، علامة مميزة غريبة في شخصيته حببته في نظر الجميع بالرغم من نقائصه •

ظاهريا كان بول مملوء بالحبور • لكنه في الاعماق كئيب نكد • وبين الحين والحين تدخل زوجته كورا مندفعة بعينين مبللتين بالدمع تناشد العجوز ان يستخدم بول • كانا يجلسان عادة حول طاولة قرب النافذة ويتحادثان بصوت خفيض • كانت زوجته امرأة جميلة ، ممشوقة كتمثال رائع لها صوت رنان ينساب بلمسة ألم كلما ذكرت اسم بول • رأيت العجوز يضع يده على كتفها ، يهدئها ولا شك انه وعدها بأشياء كثـيرة ، ولاحظت ان العجـوز يعجبها • كانت تقف بالقرب منه تنظر في عينيه بأسلوب لا يقاوم • احيانا كان العجوز يعتمر قبعته ويذهبان معا يهبطان المصعد ، ذراعا بذراع ، كما لو انهما ذاهبان في جنازة • ويبدآن بالبحث عن بول من جديد ، وعندما كانت تجتاحه حمى الشرب لم يكن احد يعلم اين هو • كان يختفي عن الانظـار ولأيام • وفي احد الايام يظهر خجلا ، نادما مذلا ، مستجديا عفو الجميع • وفي نفس الوقت يمد يده ببذلته لكي تنظف على الناشف ، وتزال بقع القيء عنها ، ويُجرى لها اصلاح فني عند الكعبين •

بعد ذلك بفترة قصيرة صار بول يتكلم بطلاقة متناهية • يجلس في احد مقاعد الجلد العميقة ، قفاز في يد ، والعصى بين ساقيه ويروح يتحدث عن ماركوس اورليوس • ويكون حديثه افضل اذا كان عائدا من المستشفـى ، بعد ان يعالج ناسوره • وجلسته المنزلقة في كرسي الجلد كانت تجعلني اظن عندئذ انه من الواضح انه اتى الى دكان الخياط لانه المكان الوحيد الـذي يجد فيه مجلسا مريحا • كان الجلوس او الوقوف بالنسبة له عملية موجعة • ولكنه حالما يستقر يبدو على بول وكأنه في الجنة وتنهمر الكلمات من لسانه كمخمـل سائـل • وكـان بامكـان العجـوز ان ينصـت لبـول طـوال اليوم ، وعـادة يقـول ان لديـه موهبـة الثـرثرة ، الا انهـا طريقتـه غير المنطوقة لقول ان بول هو احب المخلوقات على ارضه وان في احشائه نارا • وعندما كان يشعر بوخز ضمير فائق ليأمر بثوب جديد يتملقه العجوز بسبب ذلك قائلا لبول طوال الوقت : « لا شيء يعز عليك يا بول ••• لا شيء » •

ولا بد ان بول ايضا قد لاحظ لطف العجوز الزائد • لم ار في حياتي شخصين على هذا القدر من تبادل الاعجاب الحميم المتوهج • كانا احيانا يجلسان قبالة بعضهما ينظر الواحد منهما في عيني الاخر في تعبد حتى تنهمر الدموع من عينيهما • ولم يكن اي منهما في الحقيقة يشعر بالخجل في اظهار دموعه ، هذه سمة لم يعد يحتويها العالم الان • لا زلت اذكر وجه بول المنمّش البشع وشفتيه المائلتين للغلظة الزائدة ترتعش بعد ان يكون العجوز قد اخبره للمرة الالف ما اعظمه من شاب • لم يتكلم بول مرة مع العجوز كلاما لا يفهمه• اما ذخيرة الحنان لديه فكان يسخّرها ليتحدث عن الاشياء البسيطة العادية وبجدية كبيرة حتى ان روح العجوز تبدو وكأنها تغادر جسده وعندما يغادره بول يبدو كرجل مسلوب • بعد هذا يلجأ الى زاويته الضيقة من المكتب ويجلس هناك بهدوء وحيدا يحملق بنشوة في صف من خنن الحمام المملوء بالرسائل التي لم تُفتح وفواتير غير مسدّدة • كانت رؤيتي له في جلسته هذه في اوقات كآبته يؤثر بي تأثيرا بالغا ، فكنت اتسلل بهدوء نازلا الدرج واتوجه ماشيا الى المنزل مارا بالجادة الى الباوري ومن الباوري الى جسر بروكلن ، واعبر الجسر مرورا بالاسلاك الرخيصة التي تمتد من سيتي هول الى فلتن فيري فاذا كان الوقت امسية صيف ، ازدحمت مداخل الطرق بالمتسكعين ، وكنت انقل ناظري بين هذه الاشكال العبثية باحثا متعجبا كم بولا هناك بينهم ، وعمّا في الحياة يجعل هذه المخلوقات الواضحة في فشلها محبّبة لدى الناس • اما الاخرون ، اقصد الناجحين ، فقد رأيتهم بدون ملابسهم الداخلية ، رأيت ظهورهم المقوسة ، وعظامهم الهشة ، وعروقهم المنتفخة ، وأورامهم ، وصدورهم الغائرة ، وسلالهم الكبيرة المخصصة للخبز والتي لم يعد لها شكل بعد سنين من حشوها بطعام الخنازير • نعم ، عرفت كل الاشياء التافهة المزخرفة بالحرير • عندنا افضل العائلات الامريكية مدونة في الجدول • واي صكي وفحش يخرج من محابس روائحهم المفتوحة ! كان يبدو كأنهم عندما يتعرون امام خياطهم يشعرون باضطرارهم الى افراغ قذاراتهم التي كدسوها في بالوعات متخمة من ادمغتهم انها كل هذه الامراض الجميلة للملل والغنى • يتحدثون عن انفسهم حتى يثيروا فيك القرف »[1]• دائما « انا » ، « انا » • انا وكلاويي • انا وداء النقرس • انا وحشائش الكبد • عندما افكر في بواسير بول المريعة ، في بواسيره التي استأصلوها ، في كل الحب والعلم اللذين انبثقا من جراحه المثخنة ، عندئذ أرى ان بول لم يكن ينتمي الى هذا العصر بالمرة ، وانما هو الاخ الاقرب لموسى المعمودي Moses Maimomides ، الذي اعطانا تحت حكم المسلمين تلك الدراسات المذهلة في « البواسير » والثؤلول ، والدمل الخ •

وفي حالة كل هؤلاء الرجال الذين احاطهم العجوز باعجابه كان الموت يأتي بغتة وبسرعة • في حالة بول حدث الموت بينما كان على الشاطىء •

---

(١) الاصل باللاتينية : ad nauseam (المترجم)

غرق في شبر من الماء • قالوا انه هبوط في القلب • وهكذا ، في يوم جميل رائع ارتقت كورا المصعد ، وهي بثوب الحداد الجميل ، وراحت تبكي في كل موقع من المكان • لم تكن في حياتها اجمل منها عندئذ ، اكثر عذوبة ، اكثر مثالية في جمالها • خاصة خلفيتها ـ اذكر كيف تعلق المخمل يعانق جسمها ؟ وقفا ثانية حول الطاولة قرب النافذة ، وهذه المرة بكت بحرقة • ومن جديد اعتمر العجوز قبعته وهبطا المصعد ذراعا بذراع •

بعد ذلك بوقت قصير قام العجوز بدافع نزوة غريبة وصار يستحثني لتقديم التعازي لزوجة بول • وعندما كنت اقرع جرس شقتها رحت ارتجف ، وتوقعت منها تقريبا ان تندفع وهي عارية تماما • وربما ارتدت عصابة الحداد حول ثدييها • لقد فتنت بحسنها ، بسنوات عمرها ، بطبيعتها الناعسة التي تشبه النباتات التي ورثتها من انديانا والعطر الذي تمضخت به • رحبت بي وهي في ثوب الحداد المنزلي القصير ، ثوبا جميلا ضيقا من المخمل الاسود •كانت تلك هي المرة الاولى التي اكون فيها وحيدا مع امرأة محرومة امرأة بثديين ينتفضان صارخين • لم اعرف ماذا اقول لها ، خاصة عن بول • تلعثمت وتضرجت وعندما طلبت مني ان اجلس الى جانبها على المقعد كدت اقع فوقها من الاضطراب •

جلسنا هناك على الصوفا الواطئة ، يغمر المكان انوار خافتة ، وردفيها الضخمين يحتكان بي ، والمولاغا تضرب على صدغي وذاك الحديث الجنوني عن بول وحسناته ، واخيرا انحنيت الى الامام ودون ان اتفوه بكلمة رفعت ثوبها وزلقته فيها • وبعد ان زلقته وصرت اديره فيها راحت هي تتأوه ، في نوع من شعور الذنب الممزوج بالهيـاج والحزن ، مع فواصل من اللهاث وصرخات خافتة من المتعة والألم ، وهي تقـول وتعيد ـ « لم اكن اظن انك ستفعل هذا ••• لم اكن اظن انك ستفعل هذا ! » وعندما انتهى كـل شيء مزّقت ثوب المخمل عنها ، ثوب الحداد الجميل القصير ، واخفضت رأسي اليها وطلبت ان اقبله وراحت تضغطني بكلتا ذراعيها ، وبقوة حتى خلت اني انقسمت نصفين وهي تتأوه وتنشج • بعدئذ قامـت وبدأت تتجول في الغرفة فترة وهي عارية • واخيرا ناخت على ركبتيها قرب الصوفا حيث كنت متمددا وقالت في صوت منخفض ممزوج بالدموع ـ « انك تعدني ان تظل على حبي أليس كذلك ؟ » فقلت نعم وإحدى يديّ تعمل في فرجها • قلت نعم وقلت لنفسي اي احمق كنت حتى تنتظر كل هذا الوقت • كانت متعرقـة غزيرة السائل عند فرجها ، اشبه بطفل ، موثوق • كيف لم يأت اي عابـر سبيل ليأخذ ما تيسر • انها سهلة •

فلتكن مرحين دائما ومشرقين ! في كل فصل ، وبانتظام ، كانت تحدث بعض الميتات • احيانا تكون ميتة جيدة كما في حالة بول ، او جوليان ليغري ،

واحيانا ساقي يلكز انفه بظفر صدىء ـ في اول يوم يكون مرحّبا ودودا ، وفي اليوم التالي يموت ـ ولكن كحركة الفصل نفسها تسقط الصقور العجائز وعلى التوالي ، واحدا اثر اخر . وهكذا ، ما عليك الا ان ترسم خطا احمر مائلا تحت الجهة اليمنى من الدفتر وتكتب « ميت » . كل ميتة تجلب شيئا من الانشغال ـ فهذا يعني ثوبا اسود جديدا او عصابات حداد على الكم الايسر لكل معطف . الذين يطلبون عصابات الحداد كانوا من البخلاء ، هذا في رأي العجوز . وهكذا كانوا حقا .

عندما يموت العجائز كانوا يُستَبْدَلون بالدم الشاب . الدم الشاب ! هذه الصرخة كانت تسمع على طول الشارع وحيث وجد دكان لبيع بذلات مزركشة بالحرير . كانوا مجموعة رائعة ، اقصد ذوي الدم الشاب . مقامرون، رجال حلبة سباق ، سماسرة بورصة ، ممثلون فاشلون ، متنافسون على الجوائز الخ .. في يوم يصبحون اغنياء وفي اليوم التالي فقراء . ليس لديهم شعور بالشرف او الولاء او حتى شعور بالمسؤولية.لقد كانوا مجموعة مصابة بغرغرينا السفلس ، او اغلبهم . عادوا من باريس الى مونت كارلو ببطاقات قذرة وخيط يتدلى منه حجران كبيران ازرقان عند أعلى الفخذين ، ولدى بعضهم كرات بحجم كبد الحمل .

احدهم يدعى البارون كارولافون ايشنباخ . كان قد ربح مبلغا صغيرا من المال في هوليود لقيامه بدور ولي العهد . كانت فترة اعتُبِرت فيها رؤية ولي العهد ملطخا بالبيض الفاسد مشهدا يثير مرحا صاخبا . ومن الواجب القول لصالحه ان البارون كان بديلا رائعا لدور ولي العهد . له رأس الموت بأنف أنوف ، ومشية غضوب ، وخصر نحيل مياس وفاتن مثل مارتن لوثر ، صار كئيبا ، متعصبا ، له تلك النظرة الوقحة الحمقاء التي تتمتع بها طبقة الارستقراطيين البروس ، وقبل ذهابه الى هوليوود كان مجرد نكرة ، ابن بائع خمر الماني من فرانكفورت . لم يكن حتى بارونا . الا انه بعد ذلك حين صبح ممثلا ثانويا للادوار العنيفة يضرب ككرة التريض ، عندما سقطت سنانه الامامية في بلعومه وترك عنق زجاجة مكسور ندبة عميقة على خده الايسر ، بعد ذلك عندما تعلم كيف يتباهى بربطة عنقه ، ويدور عصاه ، ويقص شاربه قصيرا ، مثل تشارلي تشابلن ، عندئذ صار شخصا معتبرا . بعدها اصبح يضع نظارة مونوكل على عينيه واطلق على نفسه بارون فون يشنباخ . وكان من الممكن ان يسير كل شيء كأجمل ما يكون لو لم يقع في حبائل احدى المتسكعات حمراء الشعر يعشش فيها السفلس . وهذا سبّب نهايته .

استقل يوما المصعد مرتديا بذلة زي رسمي وحذاء ذا عنق عال وقد وضع وردة حمراء نضرة في عروة السترة ونظارة انفية على عينيه . بدا

مرحا رشيقا ، والبطاقة التي اخذها من المحفظة كانت منقوشة بأناقـة ٠ تحمل شعار النبالة الذي تتميز به العائلة ، هكذا قال ، منذ تسع مائة سنة خلت ٠ قال انه « هيكل العائلة » ٠ وقد سعد العجوز كثيرا ان يكون بين زبائنه باروبا ، خاصة اذا كان يدفع مقدما ؛ كما وعد هذا الاخير ٠ وكان من المثير ايضا رؤية البارون يدخل مبتهجا وقد تعلقت الى ذراعه فتاتان مغناجان ـ وفي كل مرة كانتا مختلفتين ٠ ويبدو اكثر مرحا وابتهاجا عندما يدعوهما الى غرفة تغيير الملابس ليساعداه في خلع سراويله ٠ ويقول معلقا على هذا بأنها عـادة أوروبيـة ٠

وشيئا فشيئا تعرف بجميع العجائز الذين تسكعوا حول الدكان ٠ كان يعرض عليهم طريقة المشي عند ولي العهد ، وكيف يجلس ، ويبتسم ٠ في احد الايام احضر معه نايا واخذ يعزف اللوريللي عليه ٠ في يوم اخر اتى وقد برز اصبع قفازه المصنوع من جلد الخنزير من فتحة بنطاله ٠ كان في كل يوم يبتكر خدعة جديدة ٠ كان مرحا ، ذكيـا ومسليا ٠ يعرف مئات النكات ، بعضها جديد تماما ٠ لقد كان عربيدا ٠

وفي يوم تنحّى بي جانبا وسألنـي ان كـان باستطاعتي ان اقرضه دايما (١) ـ اجرة المواصلات ٠ قال انه ليس باستطاعته تسديد ثمن الملابس التي طلبها لكنه يتوقع ان يحصل على عمل قريبا في احدى دور السينما في الشارع التاسع ، كعازف على البيانو ٠ وبعد ذلك ، وقبل ان اعـرف هذا ؛ كان قد بدأ يبكي ٠ كنا واقفين في غرفة الملابس ، ولحسن الحظ كانت الستائر مسدلة ٠ وصار عليّ ان اعيره منديلي ليمسح عينيه ٠ قال انه ملّ تمثيل دور المهرج ، وانه انما يأتي الينا كل يوم لانه مكان دافىء ومقاعدنا مريحة ٠ وسألني ان كان باستطاعتي ان ادعوه الى الغداء ـ فلم يكن قد تناول فـي الثلاثة ايام المنصرمة غير القهوة والكعك المحلّى ٠

اخذته الى مطعم الماني صغير في الشارع الثالث ، كان مطعما وفرنا في وقت واحد ٠ وقد جعله جو المكان ينهار تماما ٠ لم يكن يستطيع الكلام الا عن الايام الخوالي ، ايام ما قبل الحرب ٠ كان ينوي ان يصير رساما ، وبعدها جاءت الحرب ٠ رحت أنصت اليه بانتباه وعندما انتهى عرضت عليه ان يأتي معي الى البيت لتناول العشاء ـ فربما استطعت ان اقيله عندنا مقيما ٠ وبدا ان شعور العرفان يغمره ٠ سوف يأتي ، حتما ـ في الساعة السابعة ـ عظيـم !٠

تسلّت زوجتي بحكاياه ونحن على طاولة العشاء ٠ لم اتفوه بكلمة عن

---

(١) Dime : عملة نقدية صغيرة ٠ ـ مترجم ٠

فلابيه . لم اذكر الا انه بارون ـ البارون فون اشنبـاخ ، صديق تشارلي شابلن . شعرت زوجتي ـ وكانت احدى أولاهن ـ بالاطراء لجلوسهـا على طاولة واحدة مع بارون . ورغم انها كانت بنت حرام تعتنق مذهبا تطهريا ، لم يحمر" وجهها مرة عندما راح يلقي بعض نكاته المكشوفة . بل رأت انها متعة ـ اوروبية جدا . واخيرا كان لا بد ان يأتي وقت نشر البذور . حاولت ان القي الاخبار بلطف ، وكيف يمكن للمرء ان يتحدث عن موضوع كالسفلس بلطف ؟ وانا لم اذكر اسم سفلس في اول الامر ـ بل قلت « مرض تناسلي » Maladie intime, quoi ولكن مجرد ذكـر كلمـة « تناسلي » جعلـت الرعشة تسري في جسم زوجتي . ونظرت الى الكأس الذي كان يقر"به من شفتيه ونقلت نظرها الي بتوسل وكأنها تقول لي ـ « كيف تجرؤ على ان تطلب من رجل كهذا ان يجلس على طاولة واحدة معنا ؟ » ورأيت من الضروري ان أصل المسألة الى أوجها وعلى الفور . فقلت بهدوء « ان صاحبنا البارون سيمكث معنا فترة قصيرة . انه مفلس ويحتاج الى مكان يأوي اليه » . ويا الهـي لم أر في عمري تعبيرا على وجه امرأة يتبدل بهذه السرعة . قالت « انت ! انت تطلب مني ان افعل هذا ؟ وماذا عن الطفل ؟ انت تريدنا ان نمرض جميعا بالسفلس ، أليس كذلك ؟ الا يكفيك ان يكون وحده المصاب بـه ـ وتريـد ان يمرض بـه ابنك ايضا ! » .

ومن الطبيعي ان يضطرب البارون اضطرابا فظيعا بهذا الانفجار . وأراد ان يغادرنا في الحال . ولكني طلبت منـــه ان يحتفظ بقميصه . فقد اعتدت على هذه المشاهد . على كل حال ، بدا مثارا الى درجة انه صار يغص من قهوته . فأخذت أربت على ظهره حتى احتقن وجهه . وسقطت الوردة من العروة الى الصحن ، وبدا مظهرها غريبا هناك ، وكأنه لفظها توا مـن دمه . جعلني ذلك اشعر بالعار حتى العظم من زوجتي وكـان بامكاني ان اشنقها حيث كانت . واخذته الى الحمـام وكـان اثناء ذلك لا يزال يغص ويبقبق . قلت له ان يغسل وجهه بالماء البارد . لحقت بنا زوجتـي وراحت تراقبه بصمت قاتل وهو يغتسل . وبعد ان جفف وجهه اختطفت المنشفة من يديه وفتحـت النافـذة علـى مصراعيها ، ورمتهـا بعيدا . جعلنـي هذا استشيط غضبا وقلت لها ان تخرج من الحمام على الفور مذكّرا اياها ان تبقى وشأنها . لكن البارون وقف بيننا وهتف امام زوجتي متوسلا « سترين يا سيدتي الطيبة ، وانت يا هنري ، لن ادعكما تقلقان بشأن اي شيء . سوف احضر حقني ومراهمي وسأضعهم في حقيبة صغيرة ـ هناك ، تحت المغسلة يجب ان لا تطرداني . ليس لدي مكان اخر اذهب اليه . انني يائس . انا وحيد في هذا العالم . لقد كنتما طيبين معي من قبـــل ـ لماذا اصبحتما قاسيين الان ؟ اهي غلطتي اني مصاب بالسفلس ؟ اي شخص بامكانه ان يصاب بـه . انه شيء انساني . سوف ادفع الاتعاب آلاف الاضعاف . سوف

افعل كل ما تريدان سوف ارتب الاسرّة ، واغسل الصحون ... سوف اطهو لكما ... » واستمر على هذا المنوال دون ان يتوقف ليأخذ نفسه مخافة ان تقول لا .وبعد ان انهى جميع وعده ، بعد ان التمس الغفران منها مئات المرات ، بعد ان خرّ على قدميه وحاول تقبيل يديها ابعدتهما عنه وبسرعة ، جلس على مقعد المرحاض ببذلته الرسمية ونظارته ، وبدأ ينشج وينشج كالطفل . كان الحمّام شاحبا مقفرا ، ابيض براقا والضوء المنتثر وكأن الاف المرايا قد تحطمت تحت عدسة مكبرة ، ومـــن ثم حطام البارون ، ببذلته الرسمية ونظارته وعموده الفقري مملوء بالزئبق .، ونشيجه القصير يخرج منه كنفخات قطار يمر من تحت الارض . لم أكن اعلم ماذا افعل . ان منظر رجل جالس على مرحاض ينشج ـ شيء لا اقوى عليه . واخيرا تعودت على الامر حتى بت متحجر القلب . بت . متأكدا الان انه لو لم يكن الامر يتعلق بـ ٤٥٠ سرير مريض كان ملزما بزيارتهم مرتين يوميا في مستشفى ليـون رابليه لما كان على هذا القدر من المرح ، انا واثق من هذا .

على كل حال ، فيما يتعلق بموضوع النشيج ... بعد قليل ، ولما كـان هناك طفل اخر قادم على الطريق ولا سبيل الى التخلص منه ، رغم ان الامل كان لا يزال موجودا ، كنت آمل في حدوث شيء ، ربما معجزة ، وكانت بطنها منتفخة كالبطيخة الناضجة ، عند حوالي الشهر السادس او السابـــع ، وكما قلت ، كانت معتادة على الاستسلام لنوبات من الكآبة ، وبينما تكون مستلقية على السرير والبطيخة تحملق في عينيها تبدأ بنوبة من النشيج لتحطم قلبك . احيانا اكون عندئذ في الغرفة الخارجية ، متمددا على الاريكة ، احمل بين يديّ كتابا ضخما سميكا ، وتجعلني نوبات النشيج هـذه افكـر في البارون كارولا فن اشنباخ ، وبنظارته الرمادية وبذلته الذيلية الرسميـة بطيتها الصدرية المزركشة والورود الحمراء الكبيرة مثبتة في عروته . كانت تنهداتها بالنسبة لي كالموسيقى . ترسل نشيجها استدرارا للعطف ، ولم يكن في البيت كله قطرة عطف واحدة . كان مظهرها مثيرا للشفقة ، وكلما زادت الهستيريا كلما صرت اكثـــر صممـــا . كأنـنـــي انصت لهدير امواج الشاطىء المتكسرة وطشيشها علـــى طول الشاطىء في ليلة صيفية : حيث يصبح بامكان ازيز بعوضة ان يمحي هدير المحيط . على كل حال ، وبعد ان اهلكت نفسها حتى الانهيار ، وحين لم يعد بامكان الجيران تحمل الضجيج اكثر من ذلك ، فيدقون على الباب ، تزحف امها العجوز خارجة من غرفة النوم تتوسل الي والدموع تملأ عينيها ان ادخل اليها واهدىء من روعها قليـلا . فأقول « اوه ، دعيها كما هي ، سوف تتغلب على كل هذا» في اثناء ذلـك توقف الزوجة نشيجها قليلا وتقفز عـــن السرير واقعة وقد أعماها الغضب الوحشي ، وشعرها شعث ومنفوش ، وعيناها منتفختان ، ومجهدة مـــن الارهاق ، وهي لا تزال تحزق وتجهش ، وتأخذ بضربي بكلتا قبضتيهـــا ؛

وتوبخني حتى تصيبني هستيريا الضحك • وعندما تراني اهتز الى الامام والى الخلف كالمجنون ، وتتعب ذراعاها وتلتهب قبضتاها ، وتستسلم كمومس سكرى • « شيطان ! ملعون ! » – وبعدها تنسلّ مبتعدة ككلب قلق • وبعد ذلك ، وبعد ان اهدّىء من روعها قليلا ، انطرح فوقها على السرير ثانية وألغ فيها لغوة جيدة • لعنني الله ان لم تكن تصبح أروع قطعة يمكن تصورها بعد مشاهد الحزن والغم تلك ! لم اسمع في حياتي ان امرأة تنوح وتثرثر كما تفعل هي • فتقول احيانا « افعل بي أي شيء ! افعل بي ما تشاء ! » كان باستطاعتي ان اجعلها تقف على رأسها ومن ثم انفخ فيه ، كان باستطاعتي ان الغ فيها من الخلف ، ان اجرها مارا ببيت الكاهن ، كما يقولون ، اي شيء على الاطلاق – وتكون هي على اشد ما يكون الهياج البسيط من الفرح انها الهستيريا الرحمية ، نعم هذه هي حالتها ! وليأخذني الله ، هكذا كان يقول لي سيدي المحترم ، اذا كنت اكذب بكلمة واحدة مما أقول •

(الله ، المذكور آنفا ، كما عرفه القديس اغسطين هو كما يلي : هو كون لا محدود ، مركزه كل مكان ومحيطه اللامكان) •

ممها يكن ، كنا دائما مرحين ومنتعشين ! فسواء كان الوقت قبل الحرب وقياس الحرارة يشير الى الصفر او ما دونه ، او كان يوم تقديم الشكر ، او رأس السنة او عيد الميلاد ، او حتى مجرد وجود اي عذر كنا نجتمع سوية ونذهب لنخبّ ، العائلة كلها ، لننضم الى بقية المخلوقات العجيبة التي تشكل شجرة العائلة الحية • كان دائما يبدو لي ان المرح الذي يشيع في عائلتنا شيء مذهل رغم المصائب التي كانت تهددنا على الدوام • مرحون رغم كل شيء • كان هناك السرطان وداء الاستسقاء • وتلف الكبد ، الجنون ، السرقة ، كثرة الكذب ، اللواطة ، سفاح القربى ، الشلل ، الديدان الشريطية ، عمليات الاجهاض ، التوائم الثلاثة ، البلهاء ، السكارى ، المتبطلون ، المتعصبون ، البحارة ، الخياطون ، صانعو الساعات ، الحمى القرمزية ، السعال الشهاق ، التهاب السحايا ، جريان الإذن ، تشنج الاطراف ، المتأتئون ، السجناء المزمنون ، الحالمون ، قصاصو الحكايا ، الساقون – واخيرا كان هناك العم جورج والعمة ميليا ، معرض للجثث ومستشفى للمجانين • مجموعة مرحة والمائدة عامرة بما لذ وطاب – مع الملفوف الاحمر والسبانخ الخضراء ولحم الخنزير المشوي والديك الرومي والكرنب المخمر ، مع الكارتوفل كلوس وصلصة مرق اللحم الاسود الحامض ، مع الفجل والكرفس ، مع الاوز المحشو والبقول والجزر ، مع القرنبيط الابيض الجميل ، مع التفاح المطبوخ وتين سميرنا ، مع الموز الكبير الحجم كالهراوة الجلدية مع كعكة القرفة والستروسل كوشن ، مع الكعكة المغطاة بالشكولا والبندق ، بكل انواع البندق ، والجوز والجوز الارمد ،

واللوز ، وجوز البقان ، والجوز القاري ، مع البيرة المعتقة والجعة ، مع النبيذ الابيض والاحمر ، مع الشمبانيا ، والكوفل ، والخمر المالقي ، والخمر البرتغالي ، والخمر الهولندي ، والجبن الحار ، ومع الجبن المخزن البريء : والجبن الهولندي المسطح ، وجبن اللمبرغر والشميركاس ، والخمور المنزلية ، وخمر الخمان ، وعصير التفاح ، القاسي والحلو ، مع كعكة الارز بنشاء التابيوكا ، والجوز المحمص وبرتقال اليوسفي ، والزيتون ، والمخلل ، والكافيار الاحمر والاسود ، والسمك المدخّن ، مع كعكة الميرنغ مع الليمون ، مع اصابع الست ، واصابع الشوكولا ، وحلوى المعكزون وفطائر الكريما المنتفخة ، مع السيغار الاسود وسيغار الستوغي الطويل الرفيع ، مع علامة ثور ديرهام ومدفع لونغ توم وغلايين مرشوم وغلايين من خشب الذرة وخلاّيات الاسنان التي تسبب لك خراجا لثويا في اليوم التالي ، مع مناديل بطول ياردة مع الاحرف الاولى من اسمك مدروزة على زاويته ، ونار الفحم المتأججة : والنوافذ ترسل البخار ، كل شيء في العالم جاثم امام عينيك ما عدا اناء غسل الانامل ٠

انه مناخ درجة الصفر وجورج المجنون ، ذو اليد التي سبب له حصان بترها ، وقد ارتدى مخلفات الموتى ٠ مناخ درجة الصفر والعمة ميليا تبحث عن العصافير التي تركتها في قبعتها صفر ، صفر ، وزوارق القطر تشخر هناك في الميناء ، وقطع الجليد الطافية تتهادى صاعدة هابطة وخيوط رفيعة من الدخان تتعالى بشكل لولبي من مقدم المركب الى مؤخره ٠ والريح تهبط هابّة بسرعة سبعين ميلا في الساعة ، واطنان واطنان من ندف الثلج مقطعة الى قطع صغيرة كل واحدة منها تحمل خنجرا والدلالات الجليدية المعلقة كفتّاحات القناني خارج النوافذ ، والريح تزأر ، وزجاج النوافذ يقعقع ٠ والعم هنري يغني « المجد للخامس الالماني ! » بثوبه الكهنوتي المفكوك وأحزمته المحلولة وعروقه المنتفخة البارزة عند صدغيه ٠ « المجد للخامس الالماني ! » ٠

مدت طاولة متضدعة في العلية ، وفي الاسفل كان الاسطبل الدافيء ، والاحصنة تصهل في مرابطها ، تصهل وتمضغ وتنبش الارض بحوافرها وتضربها بقوة ، ويفوح عبق السماد وبول الاحصنة ، ورائحة التبن والشوفان ، والملاءات المتبخرة والمضغ الجافة ، رائحة الشعير الذي طالت رطوبته والخشب العتيق ، وطقم الفرش الجلدي ، ولحناء الدباغة تحوم رائحته القوية وتعلق كالبخور فوق رؤوسنا ٠

الاسطبل واقف على الاحصنة ، والاحصنة تقف على البول الدافيء وبين الحين والاخر تصبح مرحة وتحرك اذيالها برشاقة وتتبرز وتصهل ٠ المدفأة تتوهج كالياقوت ، والجو مزرق من الدخان ، الزجاجات موضوعة تحت

الطاولة ، وعلى الخزانة ، وفي المغسلة • ويحاول جورج المجنون ان يحك عنقه بكم فارغ • ويدير ند مارتيني ، المتعطل ، الحاكي وتسقيه كاري زوجته من وعاء من التنك • الاولاد عند اسفل السلم في الاسطبل يلعبون لعبة الاصبع القذر في الظلام • وفي الشارع يقوم الاولاد ، حيث تبدأ منطقة الاكواخ ، بصنع بركة للانزلاق عليها ، اللون الازرق موجود في كل مكان مع البرد والدخان والثلج • العمة ميليا جالسة في الزاوية تتحسس بأصابعها مسبحة • والعم ند يصلح طقم الفرس • والجدود الثلاثة مع اثنين من جدود الجدود مجتمعون حول المدفأة يتحدثون عن الحرب الفرنسية ـ البروسية • وجورج المجنـــون يلعق الثفل • والنسوة يتجمهرن وألسنتهن تتكتك بصوت منخفض • كانت الاشياء تكمل بعضها كأحجية الصور المقطوعــــة • ـ وجوه ، اصوات ، تلميحات ، اجساد • كل يدور في فلكه • والحاكي يعزف من جديد ، والاصوات تزداد علوا وحدة • وفجأة يتوقف الحاكي • ما كان يجب ان اكون هناك عندما أفشوا الامر ، لكنني كنت هناك وسمعته • سمعت ماغي الضخمة ، التي تدير صالوننا في فلشنغ ، هذه الماغي اضطجعت مع اخيها اللزم وهذا هو سبب جنون جورج • لقد اضطجعت مع الجميع ـ ما عدا زوجها • وبعدها سمعت انها كانت تضرب جورج بحزام جلدي ، اعتادت ان تضربه حتى يخرج الزبد من فمه • وهذا ما سبب ظهور النوبات • اما مل الجالسة عند الزاوية فلهـــا حكاية اخرى • فهي شاذة منذ طفولتها • وكذا الام لنفس السبب • كان من فائق الاسف ان بول مات • كان بول زوج مل • نعم ، كان يمكن ان تجـري الامور على ما يرام لو لم تظهر هذه المرأة من هامبورغ وتفسدت حياة بول فماذا كان باستطاعة مل ان تفعله ضد امرأة ذكية كهذه ـ ضد مومس داهية ! كان يجب القيام بشيء من اجل مل • صار من الخطر الاجتماع معها • لقد ضبطوها قبل ايام جالسة على المدفأة ولحسن الحظ كانـــت النار خافتة • ولكن ماذا لو انها ركبت رأسها وأرادت ان تضرم النار في البيت ـ والكـل نيام ؟ من المؤسف انها لم تتمكن مـن الاستمـرار في العمـل بعد ذلـك • واخر مكان وجدوه لها كان في وظيفة جميلة ، كم كانت امرأة لطيفة، واخـذت مل تزداد كسلا • كان الامر بالنسبة لها غاية في السهولة مع بول •

١

كـان الجـو رائقـا صقيعـا عنـدما خطـونا خارجـا • والنجـوم جليـة براقة ، وانا اميل على الدرابزين والدرج وافريز النافذة والشعرية ، والثلج الابيض الناصع منتثر في كل مكان ، ثلج يحمله الهواء ، هذا الغلاف الابيض الذي يغطي الارض القذرة الآثمة • رائقا وصقيعيا كان الهواء ناصعـا كجرعة قوية من الامونيا ، والبشرة الناعمة كجلد الشامو • مجموعات ومجموعات من النجوم الزرقاء تتدفق مع الظباء • ما كان اجملها من ليلة ساكنة عميقة وكأن قلوبا من ذهـب تستلقـي تحـت الثلـج ، وهـذا الـدم الألماني الحار يتدفق في قناة ليسد فم الاطفال الجائعين • ليمحو الجريمة والبشاعة عـن

العالم . ليل عميق ونهر يخنقه الثلج ، والنجوم ترقص ، وتدور ، وتشمخ كالذرى . كانت عائلتنا كلها تتيه جائبة الطريق المكسورة . تمشي على قشرة الارض الناصعة البياض . مخلفين وراءنا آثار اقدام وسخة . العائلة الالمانية العتيقة تكنس الثلج بشجرة الميلاد . العائلة كلها موجودة ، الاعمام، وأبناء العم والاخوة ، والاخوات ، والآباء ، والجدود . كل العائلة مبتهجة منتعشة ولا احد يفكر في الاخر ، في الشمس التي ستشرق في الصباح ، في مهمة الركض ، في شهادة الطبيب ، في جميع الواجبات الفظة المروعة التي تفسد اليوم وتضفي القداسة على هذه الليلة ، هذه الليلة ذات النجوم الزرقاء وتيارات الثلج ، ازهار العطاس والامونيا ، وزهر البروق ومسحوق الكاربورندوم .

لا احد يعرف ان العمة ميليا كانت مخبولة تماما ، واننا حالما نصل الى الزاوية تقفز امامنا كظبي الرنة وتقضم قطعة من القمر . عند الزاوية تقفز امامنا كالرنة وتزعق قائلة : « القمر ! القمر ! » وبعد هذا تنطلق روحها ، وتنفصل عن جسدها تماما . وتسافر بسرعة ستة وثمانين مليون ميل في الدقيقة . عاليا ، عاليا نحو القمر ، ويفكر الجميع وبسرعة في ايقافها . يحدث كل هذا بنفس الخطوات . في لمح النجم .

والان سأخبركم ما قاله لي اولاد الحرام اولئك ...

قالوا – هنري ، خذها انت الى المصحة غدا . ولا تقل لهم انه ليس في مقدورنا ان نسدد نفقاتها .

عظيم ! دائما مرحون ومشرقون ! وفي اليوم التالي استأجرنا ترولي جميعا واتجهنا الى الريف . فاذا سألت مل الى اين نحن ذاهبون كان يجب ان اقول « لنزور العمة مونيكا » . لكن مل لم تسأل اي سؤال بل جلست هادئة بقربي وهي تومئ للابقار بين الحين والحين . رأت ابقارا زرقاء وخضراء ، وعرفت اسماءها . سألت ماذا حدث للقمر نهارا . وسألت ان كان لدي اية قطعة من نقانق الكبد صدفة ؟.

اثناء الرحلة بكيت – لم استطع كبح نفسي . عندما يوجد اناس فائقو الطيبة في هذا العالم فيجب وضعهم تحت الحجز . ففي الناس الطيبين علة . صحيح ان مل كانت بليدة . انها بليدة منذ ولادتها . وصحيح انها كانت مدبرة منزل بائسة . وصحيح انها لم تكن تعرف كيف تحتفظ بزوجها عندما وجدوه لها . عندما هرب بول مع المرأة الهامبورغية جلست مل في الزاوية وبكت . وتمنى لها الاخرون ان تقيم دعوى للحصول على نفقتها . ولكن مل جلست دون ان تحرك ساكنا . وبكت مل ورفعت رأسها . كانت تشبه

زوجا من الجوارب الممزقة المرمية باهمال هنا وهناك ، وفي كل مكان ٠ كانت دائما تظهر في الوقت غير المناسب ٠

وفي احد الايام جلب بول حبلا وشنق نفسه ٠ ولا بد ان مل قد فهمت ما حدث لانها صارت مجنونة تماما ٠ وقبل ذلك وجدوها تأكل برازها ٠ وقبلها رأوها تجلس على المدفأة ٠

والان صارت هادئة جدا وتنادي على الابقار بأسمائها الاولى ٠ كان القمر يسحرها ٠ لم تكن تخاف شيئا لانني كنت الازمها وكانت توليني ثقتها ٠٠ كنت المفضل لديها ٠ ورغم انها لم تكن تملك الا نصف وعيها فكانت طيبة معي ٠ كان الاخرون اكثر ذكاء ، لكن قلوبهم كانت من حجر ٠

عندما كان الاخ ادولف يأخذها في نزهة بالعربة كان الاخرون يقولون ـ « ان مل تضع عينها عليه ! » لكنني اظن ان مل كانت تتكلم بنفس البراءة التي تتحدث فيها معي الان ٠ واعتقد ان مل اثناء ادائها لواجباتها الزوجية كانت تحلم احلاما بريئة عن الهدايا الجميلة التي ستهديها للجميع ٠ لا اعتقد انه كان لمل اية معرفة بالاثم او بالذنب او بالندامة ٠ اظن انها ولدت ملاكا نصف واع ٠ اظن ان مل كانت قديسة ٠

عندما كانت تطرد من عملها احيانا كانوا يطلبونني لاخذها ٠ مل لم تعرف ابدا الطريق الى البيت ٠ اذكر مبلغ سعادتها عندما تراني آت اليها ٠ كانت تقول احيانا انها تريد ان تمكث معنا ٠ لماذا لم يكن باستطاعتها ان تمكث معنا ؟ هذا هو السؤال الذي طالما طرحته على نفسي مرارا كثيرة ٠ لماذا لم يتمكنوا من ايجاد مكان دافىء لها ، وان يدعوها تجلس هناك وتحلم، اذا كانت هذه رغبتها ؟ لماذا يتوجب على الجميع ان يعملوا ـ حتى القديسين والملائكة ؟ لماذا يتوجب على انصاف العقلاء ان يكونوا القدوة الصالحة ؟

يخطر ببالي الان انه بعد كل شيء ربما كان من صالح مل ان تذهب الى حيث آخذها ٠ لا مزيد من العمل ٠ فالامر سيان ، كنت افضل لو خصصوا لها زاوية في مكان ما ٠

وما ان مشينا في الممر المغطى بالحصى مقتربين من البوابة الضخمة سيطر القلق على مل ٠ حتى الجرو الصغير يعرف عندما يؤخذ ليغرق في البحيرة ٠ والان صارت مل ترتجف ٠ كانوا بانتظارنا عند البوابة ٠ يحاولون ملاطفتها ليخثوها على التقدم ٠ صاروا لطفاء معها الان ٠ ويكلمونها في منتهى اللطف ٠ لكل مل مصعوقة بالرعب ٠ واذ بها تستدير وتهرع مندفعة الى البوابة ٠ وكنت لا ازال اقف هناك ٠ مدت ذراعيها من خلال القضبان

وتعلقت بعنقي · قبلتها برقة على جبينها · وأزحت ذراعيها بلطف ، فقد جاء الاخرون ليأخذوها ، ولم احتمل هذا المنظر · يجب ان اذهب · يجب ان اركض · وظللت واقفا دقيقة كاملة وانا انظر اليها · بدت عيناها هائلتي الاتساع · عينان عظيمتا الاستدارة ، ممتلئتان وحالكتا السواد كالليل ، كانتا تتفرسان بي دون فهم · لا يمكن لمجنون ان ينظر هكذا · لا يمكن لابله ان تصدر عنه نظرة كهذه · الا اذا كان ملاكا او قديسا ·

قلت ان مل لم تكن مدبرة منزل جيـــدة ، لكنهـــا تعرف كيف تصنع الفريكاديلا · واليك طريقة طهيها ، ما دامت على بالي : طلاء مكون مـن دبال الخبز المرطب (من مبولة جيدة) بالإضافة الى لحم حصان (مأخوذ من قائمة الفرس) مفروم ناعما جدا وممزوج مع لحم النقانق · ويكوّر في راحة اليد · كان الصالون الذي تديره مع بول قبل ان تأتي تلك المرأة مـن هامبورغ ، قائما قرب التفاف الشارع الثاني ولا يبعد كثيرا عن المعبد الصيني (باغودا) الذي كان يستخدمه جيش الخلاص ·

بعدما أسرعت مبتعدا عن البوابة وقفت بجانب جدار عال ودفنت رأسي بين ذراعيّ ، وذراعيّ تستندان الى الجدار ، ورحت اجهش بالبكاء ، ولم اكن قد اجهشت هكذا منذ كنت ولدا · في تلـــك الاثناء كانـــوا يحمون مل ويلبسونها الرداء النظامي · فرقوا شعرها عند المنتصف ومشطوه وأرسلوه وربطوه على شكل عقدة عند مؤخر العنق · وذلك كي لا يبدو ان احدا منهـم مختلفا · الجميع لهم نفس النظرة الجنونية ، سواء كانوا أنصاف مجانـين او ثلاثة ارباع المجانين ، او بهم مجرد صدع جنوني بسيط · فعندما تقول لهم « هل لي بقلم وحبر لأكتب رسالة يقولون « نعم » ويعطونك مكنسة لتكنس بها الارض · واذا تبولت على الارض وانت شارد الذهن فيجب ان تمسح المكان · يمكنك ان تبكي ما شاء لك البكاء ولكن لا يسمح لك بانتهاك قوانين البيت ، فيجب ان تجري الامور في مستشفى المجانين بنظام دقيق كما في كل منزل اخر ·

سمحوا لمل باستقبال الزوار مرة كل اسبوع · وظلـــت الاخوات تزور المستشفى مدة ثلاثين سنة · وملأهم السأم منهـــا · عندمـــا كنّ لا يزلن صغيرات كن يزرن امهن في جزيرة بلاكول · ويقال ان الام كانت ترعى مل وتعتني بها · وعندما وقفت مل بعينين شديدتي البريق مستديرتين عنـــد البوابة كان ذهنها يرحل عائدا الى الوراء كقطار الاكسبريس · لا بد ان كلّ شيء قفز الى ذهنها مرة واحدة · كانت عيناها كبيرتين جدا ولامعتين وكأنهما رأتا اكثر مما تحتملان · كانتا تبرقان من الرعب ، وتحت الرعب كانت تكمن الفوضى الابدية · وهذا ما جعلها براقتان بجمال · يلزمك ان تكون مجنونا لترى الاشياء باستبصار كبير ، بشمولية تامة · اذا كنت عظيما تستطيع

البقاء هكذا وسيؤمن الناس بك ، ويحلفون باسمك،ويقلبون العالم رأسا على عقب اكراما لك . اما اذا لم تكن عظيما الا قليلا ، أو ليس عظيما ابدا ، فالضياع هو مصيرك .

في اوقات الصباح اذهب في نزهة رشيقة فكرية تحت الخط المرفوع الصارخ ، اتمشى شمالي شارع ديلانسي متجها الى شارع والدورف حيث كان العجوز يتسكع في الليلة الفائتة في زقاق الطاووس مع جوليان ليفري . في كل يوم اكتب كتابا جديدا ، اتمشى من محطة شارع ديلانسي شمالا الى والدورف على كل ورقة بيضاء موجودة في اول كتاب واخره كتب بالزاج : جزيرة سفاح المحارم . كل صباح يبدأ بتقيؤ ناتج عن سكر الليلة الفائتة ، ينتج عنه بقعة تشبه زهرة الغاردينيا كبيرة كالتي اضعها في زر طية سترتي ، طية بذلتي ذات الصدر المزدوج والمخططة كلها بخطوط الحرير . وأصل الى محل الخياطة بمسحته الكئيبة السوداء ، وربما لأجد توم جوردان ينتظر في غرفة اصلاح الثياب ليزيل البقع عن فتحة بنطاله . بعد ان اكتب ٣٦٩ صفحة عن نص مترجم حرفيا منعني عقم القاء تحية الصباح من ان امارس تهذيبي المعتاد . انهيت هذا الصباح المجلد الثالث والعشرين من الكتاب السلفي ، لا ترى فيه فاصلة واحدة بما انه كتب ارتجالا وحتى دون استخدام قلم حبر . انا ، ابن الخياط ، الان على وشك القاء تحية الصباح على بائع الصوف الممتاز التابع لانديكوت ممفورد الواقف امام المرآة في ثيابه الداخلية وهو يفحص التجعدات الموجودة تحت عينيه . كل غصن وورقة من شجرة العائلة يهتز امام عينيه ، ومن خلال الضباب الاسود الجنوبي للالب تظهر جزيرة السفاح المتغيرة طافية ،هذه الجزيرة التي تنتج ازهار الغاردينيا الرائعة التي اضع واحدة منها في عروة سترتي كل صباح . انني على وشك ان القي تحية الصباح على توم جوردان . انها ترتجف على شفتي . ارى شجرة ضخمة تنهض من قلب الضباب الحالك وفي تجويف الجذع منها تجلس امرأة هامبورغ وفتحة مؤخرتها مزمومة ومثبتة باحكام الى ظهر الكرسي ، الباب مغلق بمزلاج ومن خلال الشق ارى وجهها ذا اللون المخضر ، وشفتيها المغلقتين بتزمت ، وفتحتا منخريها منتفختان . وجورج المجنون ينتقل من باب الى باب يحمل بطاقات بريدية مصورة ، وذراعه التي سبب قطعها حصان مخبأة ومموهة ، والكم الفارغ يرفرف في مهب الريح . بعد ان تنزع جميع أوراق الروزنامة ما عدا الورقات الست الاخيرة سيقرع جورج المجنون جرس الباب وسيقف على العتبة ونوازل الجليد تتدلى من شاربه ، وقد امسك قبعته بيده ، ويهتف ـ « عيد ميلاد سعيد ! » هذه هي اكثر اشجار الالب جنونا ، كل غصن فيها مصمغ وكل ورقة ذاوية . انها الشجرة التي تهتف كل عام وبشكل منتظم « عيد ميلاد سعيد ! » رغم الكوارث رغم تدفق السرطان ، ومرض الاستسقاء ، واللصوصية ، وشيوع الكذب ،

واللواط ، والشلل ، والديدان الشريطية ، والاذن الجارية ، والاضطراب العصبي ، والتهاب السحايا ، وداء الصرع ، وحشائش الكبد ٠٠ الخ ٠٠

انني على وشك القاء تحية الصباح ٠ انها ترتجف هناك على شفتي ٠ المجلدات الثلاثة والعشرون من كتاب يوم الحساب كتبت باخلاص لعلاقات السفاح ٠ الاغلفة مجلدة بأفخر انواع الجلد المراكشي ولكل مجلد قفل ومفتاح ٠ عينا توم جوردان الدمويتان مسددتان الى المرآة ، انهما ترفان وترتعشان كما يهتز حصان ليبعد ذبابة عنه ٠ توم جوردان يظهر دائما اما وهو يخلع ملابسه الداخلية او وهو يرتديها اما يزرر او يفك ازرار بنطاله ٠ اما يزيل اللطخ او يسبب لطخا جديدة ٠ العمة ميليا تجلس في البراد ، تحت ظلال شجرة العائلة ٠ الام تزيل بقع القيء من غسيل الاسبوع المنصرم الوسخ ٠ والعجوز يشحذ موسى الحلاقة ٠ اليهود ينهضون من تحت ظل الجسر ، والايام تقطر ، وزوارق القطر تشخر او تنعق كالضفادع الاميركية ، الميناء مزدحم بالكعك المثلج ٠ كل فصل من فصول الكتاب المكتوب في الهواء الطلق يجمد العروق ، وموسيقاه تمنع تسرب القلق الوحشي للعالم الخارجي ٠ يهبط الليل كقصفة صاعقة تاركا اياي على ارض رصيف الشارع العام الذي يؤدي طبعا الى لا مكان ولكني محاط بمرح بمرامق (اشعة) دولاب براقة اتجاه طريقه ليس له خط للعودة ولا نقطة وقوف ٠

ينهض الغوغاء من ظل الجسور ، ويتجمعون شيئا فشيئا ، كالدودة الحلقية ، مخلفين وراءهم تقرحا متقيحا يجري من نهر الى نهر على طول الشارع الرابع عشر ٠ هذا الخيط من القيح ، والذي يجري غير مرئي من محيط الى محيط ، ومن عصر الى عصر ، يقسم بدقة العالم المهذب الذي عرفته من عرض الرصيف من العالم اليهودي الذي كدت اعرفه من الحياة ٠ بين هذين العالمين ، عند منتصف خط القيح الذي يجري من نهر الى نهر ، يقف وعاء زهور صغير مملوء بأزهار الغاردينيا ٠ ويستمر هذا طالما ان حيوان المستودن البائد يتجول ، حيث لا تعود الجواميس تستطيع ان ترعى ، هنا يبزغ العالم الماكر العويص كجرف طمرت في وسطه نيران الثورة ٠ كل يوم اعبر الخط ، وانا اضع زهرة غاردينيا في عروة طية سترتي مع مجلد طازج مكتوب في الهواء الطلق ٠ اخوض كل صباح مخترقا خندقا مملوءا بالقيء لاصل الى ارض السفاح الجميلة ، في كل يوم يرتفع الحرف بتشامخ اكبر ، وصفوف النوافذ تمتد كقاطرة سكة حديد ويكون بريقها اكثر توهجا من بريق جماجم ملمعة ٠ وفي كل صباح يزداد انفراج شدقي الخندق بعظيم توعد ٠

يجب ان القي تحية الصباح الان على توم جوردان ، لكنها تظل معلقة هناك على شفتي وهي ترتجف ٠ اي صباح هذا ابدّده في القاء التحية ؟ أهو

واحد من الصباحات الجميلة ؟ انني افقد قدرتي على التفريق بين صبــــاح واخر • على الرصيف يوجد عالم الجاموس السريــــع الاختفاء • في البيت المجاور تعمل آلات البرشمة تدق روافد ناطحات السحاب القادمة • رجــال جهرة شرقيون يرتدون احذية رصاصية وجمجمة زجاجية وهم يخططون لعالم الغد الورقي ، عالم مصنوع بكامله من السلع الرائجة التي تتكوم صندوقــا فوق اخر كمصنع للعلب الكرتونية ف• و• ب• كانازسايــز • لا يــزال يوجد حتى اليوم وقت لمرافقة الميت الحديث • غدا لن يتبقى وقت لذلك ، لان الميت سيترك حيث هو والويل لمن يذرف دمعة • هذا الصباح ملائم لقيام ثورة لو انه بدل مفرقعات النار وجدت مدافع رشاشة • كان يمكن لهذا الصباح ان يغدو رائعا لو ان صباح الامس لم يكن اخفاقا تاما • الماضي يهرع مارا ، ويزداد الخندق اتساعا • الغد هو اكثر بعدا مما كان عليه بالامس لأن حصان الامس ازداد وحشية ولم يعد بامكان الرجال ذوي الاحذية الرصاصية اللحاق به • بين جودة الصباح والصباح نفسه خط من القيح ينفث رائحة نتنة على الامس ويسمّم الغد • انه صباح مضطرب الى حد انه لو كان مجرد مظلة عتيقة فان اقل عطسة كانت ستقلبها الى الخارج •

حياتي كلها تمتد في كل اتجاه من صبــــاح مترام • كل يوم اكتب من اللاشيء • كل يوم يخلق عالم جديد ، منفصل وكامل ، وها انا بــين الكواكب اله فائق الجنون بنفسه حتى لا يسعد الا الغناء وتصميم عوالم جديدة • وفي هذه الاثناء يتفتت الكون القديم الى شذر صغيرة • الكون القديم يشبه غرفة اصلاح الملابس حيث تكوى السراويل وتزال البقع وتخاط الازرار • تصدر عن الكون القديم رائحة درزة رطبة تستقبل قبلة من قطعة حديد حامية حتــى الاحمرار • تغييرات واصلاحات لا نهاية لها كمّ يطوّل ، قبة تخفّض ، زر يقرّب ، مقعدة تجدّد • ولكن لا وجود ابدا لاثواب جديدة ، لا خَلق • هناك عالم الصباح ، والذي يبدأ من الحك اليومي ، وغرفة الاصلاح التي تغير فيها الاشياء وترمم دون نهاية • لــذا ترى ان بالوعة الليــل تجري من خــلال حياتي • طوال الليل اسمع ازيز المكواة الاوزّية وهي تقبّل الدرزات الرطبة ، تنهمر قشور الكون العتيق على الارض ونتانتها حامضة كالخل •

كان الرجال الذين احبهم ابي ضعفاء ومحبوبين • يخرج كل واحد منهم على حدة ، وكأنهم معا نجوم براقة في وجه الشمس • يخرجون بهدوء وبمظهر فاجع • لا يبقى منهم ولا قطعة صغيرة ـ لا شيء عدا ذكرى توهجهم ومجدهم • انهم ينهمرون داخلي كنهر هائل مختنق بالنجوم الساقطة • انهم يشكلون النهر الاسود والمنهمر والذي يحافظ على محور عالمــي في حركــة دائمة • وينبثق من هذا الليل الحالك الابدي ، كطوق دائم الاتساع ، الصباح المستمر الذي قضيَ في الخلق • كل صباح يطوف النهر على ضفتيه ، مخلفا وراءه

الاكمام والعراوي وجميع قشور كون ميت منثورة على طول الشاطىء حيث اقف متاملا محيط صباح الخلق والابداع ٠

أري وانا اقف على شاطىء المحيط جورج المجنون مستندا الى جدار دكان الحانوتي ٠ يضع بالاضافة الــى قبعة صغيرة مضحكــة ، ياقــة من السيللوز بدون ربطة عنق ، يجلس على المقعد الى جانب التابوت ، لا هو حزين ولا مبتسم ٠ يجلس هناك هادئا ، كملاك خارج من لوحة لرسام يهودي٠ والرجل الموجود في التابوت ، والذي كان جثمانه لا يزال حديثا ، قد دثر ببذلة متواضعة رقطاء تلائم جسم جورج تماما ٠ كان يضع قبة وربطة عنق وساعة في جيب سترته ٠ يخرجه جورج من التابوت ، يجرده من ملابسه ويضعه فوق الجليد ، في حين يتبادل معه الثياب ٠ ويضع الساعة على الجليد الى جانبه غير راغب في سرقتها ٠ والان الرجل ممدد على الثلج وهو يرتدي ياقة مصنوعة من السيللوز حول عنقه ٠ عندما يطأ جورج خارجا من باب دكان الحانوتي يكون الليل قد هبط ٠ صار لديه الان ربطة عنق وبذلة جيدة ٠ ويقف امام الصيدلية الكائنة عند الزاوية ليشتـري كتــاب نكــات وجــده معروضا في الواجهة ، ويقف على طريق جانبــي يستذكـر بضع نكــات ٠ انها نكات جــو ميلــر ٠

في نفس الوقت تقريبا تكون العمة ميليا ترسم التهاني بعيد القديس فالنتين الى الاقارب انها ترتدي ثوبا رماديا وشعرها مفروق عند المنتصف ٠ تكتب قائلة انها سعيدة جدا بأصدقائها الذين اكتشفتهم حديثا وان الطعام جيد ٠ وتود لو انهم يتذكرون انها طلبــت بعض الفاستنشت كوشن اخر مرة ــ فهل بامكانهم ارسال كمية منه بالبريد ، على شكل طرد بريدي ؟ وتقول انه يوجد بعض البتونيا تنمو حول برميــل النفاية الموجود خارج المطبخ ٠ وتقول انها مشت مسافة طويلة خلال بعد الظهر يوم الاحـد الماضي وراء الكثير من الظباء ، والارانب ، والنعام ٠ وتقول ان تهجئتها سيئة جدا ، وانها ليست بارعة في الكتابة على اية حال ، الكل لطيف معها ويوجد الكثير من العمل ينتظر التنفيذ ٠ تتمنى لو تصلها كمية من الفاسناشت كوشن في اقرب فرصة بالطائرة او بالبريد العــادي اذا امكــن ٠ وطلبــت مــن المدير أن يصنع كمية منه بمناسبة عيد ميلادها لكنهم نسوا ذلك ٠ وتطلب ارسال بعض الجرائد لانها تحب ان تنظر الى الاعلانات التجارية ٠ رأت مرة قبعة ، في محل بلومنغديل ، على ما تظن ، وكانــت مخفضة السعر فربما امكنهم ارسال تلك القبعة مع الفاسناشت كوشن ؟ وهي تشكرهم جميعا للبطاقات البريدية التي بعثوا بها اليها في عيد الميلاد ــ انها لا تزال تذكرها ، وخاصة البطاقة التي فيها نجوم فضية ٠ الكل قالوا انها جميلة ٠ وتقول انها ستأوي الى السرير بعد قليل وانها ستصلي لاجلهم جميعا لانهم كانوا دائما طيبين جــدا معها ٠

انها تعتّم ٠ دائما تعتم في مثل هذه الساعة ، وانا واقف هناك احدّق في مرآة المحيط انه زمن البرد الصقيعي ، لا هو سريع ولا هو بطيء ، بل جامد ملقى على الجليد مع ياقة من السيللوز — ويا ليت كان عنده انتصاب اذن كان المنظر رائعا ٠٠٠ بل اكثر من رائع ! وتوم جوردان ينتظر نزول العجوز في الممر المظلم السفلي ٠ وبصحبته اثنتان من المومسات البدينات احداهن تثبّت جوربها ، وتوم جوردان يساعدها في تثبيت الجورب ٠ وكما قلت ، وفي نفس الوقت تمشي المسز دوسن قرابة الغروب متجولة في المقبرة لتلقي نظرة اخرى على قبر ابنها العزيز ٠ وهي تسمي ابنها«الحبيب جاك»مع انه كان في الثانية والثلاثين عندما رُفس من العالم قبل سبع سنين ٠ ويقال ان سبب موته روماتيزم في القلب لكن الحقيقة هي ان الولد العزيز كان قد خرق العديد من العذارى المصابات بمرض تناسلي حتى اذا استنفذن الصديد من جسده انحطّ فجأة كقرص من الغائط ، ولا يبدو ان المسز دوسن تذكر شيئا من كل هذا ، انه ولدها العزيز جاك والقبر دائما مرتّب وانيق ، انها تحمل قطعة من الشاموا في حقيبة يدها لتلمّع حجارة جدثة عند كل مساء ٠

انه نفس الوقت المعتم ، والجثة ممددة هناك على الجليد ، والعجوز واقف في حجيرة التليفون وهو يمسك المهتاف بيد ويحمل شيئا حارا ورطبا عليه شعر باليد الاخرى ٠ وهو يتلفن ليخبرهم ان لا ينتظرونه على العشاء وانه سيسهر مع احد الزبائن وانه سيتأخر ، لا تقلقوا ٠ يقلب جورج المجنون أوراق كتاب نكات جو ميلر ٠ وفي الاسفل هناك ، باتجاه موبيل ، يتدربون على احزان القديس لوقا دون اية نوتة امامهم ويكاد الناس ينحدرون نحو الجنون عندما يسمعونها بالامس واليوم وغدا ٠ الكل على استعداد لأن يغتصب ، ويخدّر ، يدنس ، ان يمطر بوابل من الموسيقى الحديثة التي تنز من تعرق الاسفلت ٠ قريبا ستكون الساعة واحدة في كل مكان ٠ يكفي ادارة قرص او ستارة فوق الارض بواسطة بالون ٠ انها ساعة الكافي كلتشرز(١) الجالسات حول مائدة العائلة ٠ كل منهن تعمل لهدف مختلف ، وتلك ذات السوالف والخواتم الثقيلة في اصابعها عملت بجهد شاق اكثر من الاخريات لمجرد انها استطاعت الاحتمال ٠

في هذه الساعة يكون من الجمال المذهل ان يذهب كل في طريقه الخاص ٠ لا يزال الحب والجريمة بعيدين عن بعضهما عدة ساعات ٠ اشعر بالحب والجريمة قادمين مع الغروب : اطفال جدد آتون من الرحم ، ناعمون ، ذوو لحم قرمزي يجب ان يدلوا من سلك شائك، يصرخون ويزعقون طوال الليل ويتعفنون كعظام ميتة يبعدون الف ميل عن اللامكان ٠ عذارى مجانين وايقاع الجاز البارد كالثلج يجري في عروقهن يحثون الرجال ليقيموا أبنية جديدة ورجال بأطواق كلاب حول اعناقهم يخوضون في الروث حتى اعناقهم وذلك

(1) KAFEE - KLATSCHERS.

لكي يتحكم قيصر الكهرباء في الامواج • ما الذي في البذرة يخيفني حتى ينز البول الحي مني : ان عالما جديدا آت من البيضة ومهمـــا كنـت سريعا في الكتابة فلن يموت العالم القديم بسرعة كافية • اسمع هدير مدافع رشاشة اخرى وملايين العظام تتقصف في الحال ، ارى كلابا مجنونة وحمائم تتساقط وقد رُبطت رسائل الى كواحلها •

مرحون دائما ومبتهجون ، اسواء كان هـذا شمالي شارع ديلانسي او جنوبا صوب خط الحديد ! يداي الناعمتان هما على جسد العالم ، تغز عميقا في الاحشاء الدافئة ، تنظم ، تعيد التنظيم ، تقطعها ، وتخيطها معا مـن جديد • ان تحسس الجسد الدافيء الذي يعرفه الجراح ، بالاضافة الـــى المحار ، والثآليل ، والقروح ، والسرطـــان ، والشطؤ ، ابو ركب ، مشابك وكلابات ، والمقصات ، والمزروعات الاستوائيـــة ، السموم والغازات كلها مقفول عليها معا وتغطيها البشرة بعنايـــة • وينبجس الحب مـن وسائل الرشح كغاز المجرور : حب مهتاج بقفازات سوداء واصناف براقة من اربطة الجوارب ، حب يقضم ويزأر ، حب مخبأ في برميل وينسف ثقب البرميل ليلة بعد ليلة • الرجال الذين كانوا يدخلون دكان ابي كان الحـــب يعبق منهم : كانوا ودودين سكارى ، ضعفاء ومتراخين • يخوت بيض يجللها الجنس ، وعندما يمرون بي ليـلا يبخـرون احلامـي • كـان باستطاعتـي وانا اقـف وسط نيويورك ان اسمع رنين اجراس الابقار او ، وباستدارة رأس ، اسمع موسيقى قرقعة الموت الحلوة ، وخط احمر اسفل الصفحة وعصابة حداد على كل كم • وبالتواء بسيط من عنقي استطعت ان اقف شامخا فوق اعلى ناطحة سحاب واطل لارى الاخاديد التي تخلفهـا الدواليـــب الضخمة التي انتجها التقدم الحديث • لم يكن ليصعب علي شيء اذ يكفي ان بحـوي قليلا من الالم والاسى • كان يوجد عندنا جميع انواع الامراض العضوية وقليل مــــن اللاعضوية • كنا نمتد كحجر الكريستال من جريمة الى اخرى • ونشكل دوامة مرحة وفي منتصفها سنتي الحادية والعشرين غطيت لتوها بالصدأ •

وعندما ستتوقف ذاكرتي عن العمل سأظل اذكر الليلة حين كنت اتناول جرعة لداء السيلان وأخذ العجوز المخمور حتى النتانة بيد صديقه توم جوردان ليضاجعه في السرير • انها لفتة جميلة مؤثرة ـ اقصد بهـذا ان تخرج انت لتناول جرعة لمرض السيلان ويكون شرف العائلة مشدود الـى خازوق ، اي عندما يباع بالسعر الاصلي ، ان صح التعبـيـر • شرط ان لا تكون موجودا عندما يحتدم الشجار ، ويتصارع الاب والام علـى الارض وتتطاير عصا المكنسة • وان لا تكون موجودا في بزوغ فجر صقيعي ويكون توم جوردان راكعا على ركبتيه يلتمس العفو ولا يغفر له حتى وهو على هذه الحال لان قلبـا لوثريا متحجرا لا يعرف معنى التسامح • شيء مؤثـر وجميـــل ان تقرأ في

صحيفة اليوم التالي انه فـي نفس هذا الوقت من الليلـة الفائتة قُبض على القس الذي انشأ ارض ملعب البولينغ في غرفة مظلمـة مع صبي عار جالس في حضنه ! ولكن ما يضفي على الامر اللمسة المؤثرة جدا والجميلة هو ما يلي : لما لم اكن اعرف شيئا عن هذه الامور ، دخلت البيت في اليوم التالي طالبـا السماح لي بالزواج من امرأة عجوز في عمر امي وما ان لفظت كلمة « اتزوج » حتى التقطت العجوز سكين المطبخ وهرعت خلفي ٠ اذكر ، بما اني تركت المنزل الان ، انني توقفت امام صندوق للكتب ابغي انتزاع كتاب منـه ٠ عنوانه ـ مولد المأساة (١) ٠ مضحك هذا ، عصا المكنسة في الليلة الفائتة وسكين المطبخ ، وجرعة مرض السيلان ، والقس الذي قبض عليه متلبسا بالجريمة ، والعجوز البدين وهو يبرد ، والسرطان يستفحل ، الخ ٠٠٠ كنت اظن عندئذ ان كل احداث الحياة المفجعة مكتوبة مسبقا في كتب وان ما يجري في الخارج ما هو الا لعبة مرقّقة ٠ ظننت ان كتابا جميلا هو القسم الموبوء من الدماغ ٠ لم اكن اعلم انه يمكن لعالم بأكمله ان يكون موبوءاً !

أمشي جيئة وذهابا وانا اضع لفافة تحت ذراعي ٠ لنقل انه صباح رائق جميل ٠ وجميع المبصقات مغسولة وملمعة ٠ وأتمتم لنفسي وانا ادخل مبنى وول وورث ـ « اسعدت صباحا يا سيد ثورندايـك ، نهـار رائع يا سيد ثورندايك ٠ هل انت من المهتمين بالملابس يا سيد ثورندايك ؟ ويبـدو ان السيد ثورندايك لا يأبه بموضوع الملابس هذا الصباح ، ويشكرني لاتصالي به ، ويرمي البطاقة في سلة المهمـلات ٠ لا داعي للاحبـاط واجرّب مبنـى الاكسبرّيس الاميركي « اسعدت صباحا يا سيد هاثاواي ، نهار رائع ! » السيد هاثاواي ليس بحاجة الى خياط جيد ـ انه يتعامل مع خياط منذ خمس وثلاثين سنة خلت وثار غضب السيد هاثاواي قليلا وافكر مع نفسي قائلا معه حق وانا اسرع هابطا الدرج ٠ انه صباح رائق جميل ، لا احد ينكر هذا ؛ وافكر في تخليص فمي من المذاق السيء ولألقـي نظرة على الميناء استقل الحافلة من فوق الجسر متوجها الى احد البخلاء اسمه دايكر ٠ ودايكر هـذا رجل كثير المشاغل ٠ من النوع الذي يتناول طعامه في غرفته ويلمع حذاءه وهو يأكل ٠ ودايكر يعاني من مرض سببتـه له المضاجعـات الفاشلة ٠ يقول ان بامكاننا ان نصنع له بذلة منقطة اذا امتنعنا عن الالحاح في مطالبته كل شهر ٠ لم تكن الفتاة تتعدى السادسة عشرة ولم يكن يريد ان يطرحها ٠ نعم ، بجيوب مثبتة ، من فضلك ! ثم انه متزوج وله ثلاثة اولاد بالاضافة الى انه سيلجأ الى القاضي قريبا ـ قاضي محكمة الاستئناف ٠

الوقت يقترب من الظهر ٠ واخب عائدا الى نيويورك واتوقف عند مسرح

---

(١) مولد المأساة : أول مؤلّف للفيلسوف الالماني فريدريك نيتشـه .

المساخر والحاجب يعرفنـي • الصفـوف الثلاثـة الاولى مشغولـة بالقضاة والسياسيين • المكان مظلم وماغري بينيتي واقفة على معبر خشبة المسرح وهي ترتدي زوجا من لباس البهلوانات المحكم الابيض المتسخ • لديها اجمل خلفيه لاي امراة تعمل على المسرح والجميـع يعرف هـذا ، بما فيهم هي نفسها • بعد انتهاء العرض رحت اتجول بلا هدف ، انظر الى صالات السينما ومخازن المأكولات المعلبة اليهودية • اقف برهة في ملهى بنسي استمع الى الاصوات الفانئة الاتية عبر الميغافون • ما الحياة الا شهر عسل متواصل محشو بكعكة مغطاة بطبقة من الشوكولاة وفطيرة التوت البري • ضع بنسا في الشق لترى امرأة تتعرى وهي تستلقي على العشب • ضع بنسا في الشق هتربح مجموعة من اطقم الاسنان الاصطناعية•العالم مصنوع من اجزاء تجدد كل ظهيرة : تُرسَل الاجزاء الصلبة الى مؤسسة التنظيف علـى الناشف ، والاجزاء المستعملة تقطتع وتباع كخردة •

امشي في المدينة وامر بخط الحديد واتسكع عبر ردهات الفنادق الكبرى • واذا رغبت اجلس وأراقب الناس يعبرون الردهة • الكل معرض لمراقبتـي • الامور تحدث في كل مكان • ان صفة انتظار حدوث شيء هي الانفعال الشديد • الهابطون والصاعدون بالمصعد يندفعون ، والتاكسي يزعق ، وسيارة الاسعاف تقرقع ، وعمال البرشمة يبرشمون • الغانيات الحسان بثيابهن البهية يبحثن عن اناس لا يردون على الهاتف بأسمائهم • وفي المراحيض الذهبية السفلية يقف الرجال في صف بانتظار دورهم ، كل شيء مصنوع من البلس والرخام ، والروائح عطرة مترفة ، والنضارة تتدفق بروعة • وعلـى المشى الجانبي هناك منصب للجرائد ، لا تزال العناوين الرئيسية طازجة بأخبار الجريمة ، والاغتصاب ، واحراق المبانـي عمدا ، والاضرابـات ، وعمليـات التزوير والثورة • الناس يطؤون فوق بعضهم ليقتحموا الطريق الفرعي • وهناك في بروكلن تنتظرني امرأة عجوز في سن امي ، تنتظرني لأتزوج منها •والابن المسلول وحالته من السوء بحيث لم يعد يستطيع مغادرة الفراش بعد الان • وصاحبة الحلمة الرخوة تصعد الى العلية لتمارس الحب والابـن في الغرفة المجاورة يكاد يلفظ رئتيه • وهي قد اجرت عملية اجهاض حديثة وانا لا اريد ان اطرحها من جديد ليس فورا على اية حال •

انها ساعة الزحام ! والطريق الفرعي جنة مجانية للجميع • انني ملتصق بالمرأة حتى انني اشعر بالشعر على فرجها • ملتصقين باحكام معا حتى ان براجمي تحفر انبعاجات في أعلى فخذيها وهي تنظر امامها مباشرة ، علـى نقطة مجهرية تقع مباشرة تحت عيني اليمنى • انجح في وضع ايري حيث كانت براجمي من قبل في شارع القناة • انه يقفز كالمجنون وحيثما اهتـز القطار تتخذ هي الوضع المقابل تماما والملائم له • وحتى عندما يخف الزحام

نف هي وحوضها مدفع الى الامام وعيناها مثبتتان على النقطة المجهرية كائنة تحت عيني اليمنى مباشرة • وعند قاعة بورو تخرج ، حتى دون ان قي علي نظرة واحدة • اتبعها حتى الشارع معتقدا انها قد تلتفت لتقول ى اللقاء على الاقل ، او تدعني اشتري لها شوكولا مثلجة مفترضا قدرتي لى شرائها • ولكن لا ، انها منطلقة كالسهم ، دون ان تدير رأسها حتى لا ثمن الانش • لا اعلم كيف يفعلن هذا • ان ملايين الملايين منهن يقفن كل وم بلا ملابس داخلية ليقوموا بمضاجعات لا حسّ فيها • ما النتيجة ـ دش؟ دليك ؟ ان عشرة منهن مقابل واحدة يندفعن الى السرير ويقمن بالعمليـة أصابعهـــن •

لى أية حـال ، الوقـت يقتـرب مـــن المساء وانا اتمشـى في كـل مكان ع انتصاب جدير باقتحام فتحة البنطال • ويزداد الازدحام ويزداد • الكـل قرأ الجريدة الان • السماء مختنقة بالسلع التجارية المضاءة ، كل صنف منها ضمون على انه سارّ ، صحي ، يدوم ، طيب المذاق ، لا يثير ضجيجا ، ضد لمطر ، لا يبلى ، وانه ne plus ultra[1] بدونه ما كان للحياة ان تُحتمل لولا ان لحقيقة تقول ان الحياة غير محتملة فعلا لانه لا وجود للحياة • في نفس الساعة تقريبا التي يغادر خلالها العجوز هنشك دكان الخيـاط ليذهب الى نـادي عب الورق في المدينة • عمل جانبي صغير مقبول يبقيه مشغولا حتى الثانية صباحا • لا يوجد الكثير يعمله ـ مجرد تناول قبعـــات الرجال ومعاطفهم ، ويقدم الشراب على صينية صغيرة ، ويفرغ صحاف الرماد ويسهـر على ان تكون علب الكبريت ممتلئة • انه عمل مسل فعلا ، كل شيء محسوب • وعند حلول منتصف الليل يهيأ ترويقة للسادة ، فيما لو رغبوا • وهناك مبصقات طبعا واناء الغسل • ومع كل هؤلاء الاسياد فهي على اي حال لا تحوي شيئا يذكر • وتوجد دائما قطعة جبن صغيرة وقطع حلوى للتسلية ، واحيانا ملء كشتبان من البورت • وبين آن واخر سندويشا من اللحم البارد للغد • يا لهم من سادة ! لا يمكن انكارهم • يدخنون افضل انواع السيجار • حتى اعقـاب السجائر مذاقها جيد • انه عمل سار جدا جدا والحق يقال !

الوقت يقترب من العشاء • اغلب الخياطين اغلقوا محلاتهم •وقليل منهم، اولئك الذين ليس عندهم غير الاشخاص الغريبي الاطوار العجائز الهشين الذين نقرأ عنهم في الكتب ، بانتظار ان يقوموا بالبروفة • انهم يتنقلون في كل مكان وايديهم خلف ظهورهم • الكل ذهب ما عدا رئيس الخياطـين وربما معه مساعده او المفصّل • ويفكر الرئيس أن كان عليه ان يضع المزيد من العلامات الطباشيرية وان كان الشك سيصل في نفس وقت تسديد الايجار • والمفصّل يقول لنفسه ـ « ولكن نعم ، يا سيد كذا وكذا ، ولكن تأكد ••• نعم ، انها جاهزة ••• انها مائلة قليلا الى الجانب الايسر ••• نعم ، يـا

(١) لا مثيل له .

سيد كذا وكذا ··· سننهي لك البذلة خلال الايام القليلة القادمة ··· نعم ، نعم ، نعم ، نعم ، نعم · نعم ، نعم · الثياب الجاهزة والثياب غير الجاهزة معلقة جميعا على المنصب ، الاحزمة مكومة باتقان فوق الطاولات ، ولا توجد غير غرفة الاصلاح مضاءة · فجأة يرن جرس الهاتف · السيد كذا وكذا على الخط ولن يتمكن من المجيء هذا المساء ويتمنى لو ترسل له البذلة على الفور ، البذلة ذات الازرار الجديدة التي انتقاها الاسبوع الفائت · وهو يأمل مبتهلا باسم المسيح ان لا تكون عالية على مقاس عنقه · ويعتمر المفصل قبعته ويرتدي معطفه ويسرع هابطا السلم ليحضر المجمع الصهيوني في البرونكس· ويترك الرئيس وحده يغلق الدكان ويطفىء جميع الانوار اذا كانت متروكة خطأ ، والصبي الذي سيقوم بارسال البذلة في الحال يكون هو نفسه وهذا لا يهم كثيرا لانه سيزوغ من مخرج التجار ولن يكون هناك من يفوقه دهاء · لا أحد يبدو عليه انه مليونير اكثر من رئيس الخياطين وهو يسلم بذلة الى السيد كذا وكذا · انيق ورشيق ملمع الحذاء ، منظف القبعة ، وقفاز مغسول . وشارب مشمع · ولا يتسرب اليهم القلق الا عندما يجلسون على مائدة العشاء · لا شهية · لا طلبات اليوم · لا شيكات · ويبلغ بهم الحزن مبلغا يجعلهم ينامون في العاشرة وعندما تحين ساعة الذهاب الى السرير يكون النوم قد غادر عيونهم ·

أتمشى فوق جسر بروكلن ··· هل هذا هو العالم ، هذا المشي هبوطا وصعودا ، وهذه الابنية المضاءة جميعا ، واولئك الرجال والنساء الذين يمرون بي ؟ عما يتكلمون – فالبعض يبدو عليهم الجد ؟ أكره أن أرى الناس غارقين في الجد في حين أن معاناتي أشد سوءا من معاناة أي منهم لا نعيش الا حياة واحدة ! في حين هناك ملايين من الحيوات تنتظر ان تعاش · وحتى الان لم أقل شيئا واحدا عن حياتي الخاصة · ولا شيء · ربما ليس لدي أحشاء · يجب أن أعود الى الطريق الجانبي ، وأمسك باحداهن وأغتصبها في منتصف الشارع · يجب أن أعود الى السيد ثورندايك في الصباح وأبصق في وجهه · يجب أن أقف في ساحة التايمس ممسكا ايري بيدي وأتبول في المجرور · يجب أن انتزع مسدسا واطلق النار مسددا نحو الحشد · العجوز يوجه حياة رايلي · هو واصدقاؤه الحميمون وانا امشي في كل اتجاه ، وقد اخضرّ لوني من الحقد والحسد · وعندما سأعود سأجد العجوز تنتفض في نوبة من البكاء لتؤثر بي · لا يمكنني البقاء ليال كاملة انصت اليها · انني اكرهها أيضا لنوباتها تلك · واحدة تسرقني والاخرى تعاقبني · كيف أقدر على الدخول فيها وأريحها عندما تكون رغبتي القصوى هي في تحطيم قلبها ؟

أتمشى في البورى ··· والكلأ الاخضر المخاطي الجميل في مثل هذه

الساعة • قوادون ، مجرمون ، عاهرات ، شحاذون ، معدمون ، سارقو اخبار المراهنات ، قناصون ، صينيون ، ايطاليون ، سكارى • كلهم بلهاء يسعون من أجل كسرة طعام ومكان ينطرحون فيه • أمشي وأمشي وأمشي • وأنا في الحادية والعشرين ، أبيض ، مولود وناشىء في نيويورك ، رياضي البنية ، يبدو علي الذكاء ، مولد جيد ، ليست لدي عادات سيئة الخ الخ • سجلها على اللوح وبعها بسعر التكلفة • لم أقترف أية جريمة ، اللهم سوى أني مولود هنـا •

في الماضي كان كل فرد من عائلتنا يفعل شيئا بيديه • وأنا أول ابن عاهرة عاطل عن العمل ذو لسان زلق وقلب مريض • أمخر عباب الحشـد ، اصبعا بين الاصابع • اخاط ، واخاط من جديد .الاضواء تومض ـ تضـيء وتختفي ، تضيء وتختفي • أحيانا نكون اطارا مطاطيا ، وأحيانا قطعـة علكة • والمأساة في هذا تكمن في أن لا أحد يرى نظرة اليأس علـى وجهي • الاف والاف منا يمر الواحد منا بالاخر دون أن يلقي عليه نظرة تعرف • وتهتز الاضواء كالابر الكهربائية • وتجن النوى بتأثير الضوء والحرارة أرى مـن خلف الزجاج حريقا يشب ولا شيء يحترق • رجال يقصمون ظهورهم ، ورجال ينسفون أدمغتهم كي يبتكروا الة سيُحسِن ولد استعمالها جيدا فيما بعد • ليتني أجد طفلا وهميا من المفروض أن يشغل هذه الالة لاضع بين يديه مطرقة وأقول : حطمها ! حطمها !

حطمها ! حطمها ! هذا كل ما استطيع قوله • العجوز يتجول في عربة باروش مكشوفة • انني أحسد ابن الحرام هذا على هدوء باله • الى جانبـه صديق حميم ويضع كمية من الطعام في جوفه • أصابع قدمي تتقرح مـن الحقد • لا تزال امامي عشرون سنـة وهـذا الشيء لا يفتأ يزداد سوءا كل ساعة • انه يخنقني • في غضون عشرين عاما لن يبقى هناك رجال رقيقون احباء ينتظرون ليحيوني • كل صديق حميم موجود حاليا هو ثور ضائع والى الابد • انني محاصر بسور من الفولاذ والاسمنت • والرصيف يزداد صلابـة على صلابة • العـالم الجديد ينهشني من الداخل ، يصادرنـي • وقريبـا لن احتاج حتى الـى اسم •

ظننت مرة أن هناك أشياء رائعة يخبئها لي القدر • ظننت أنني استطيع بناء عالم في الهواء قلعة من الندف الابيض النقي يرفعني عبر أعلى بناء ، بين المادي والروحي ، يضعني في فضاء رحب كالموسيقى حيث ينهار كـل شيء ويندثر ولكن هناك سأكون منيعا ، عظيما ، شبيها بالاله ، أقـدس القديسين • كنت أنا الذي يتخيل هذا ، أنا ابن الخياط ! أنا الذي ولدت مـن بلوطة صغيرة فوق شجرة كثيفة قوية وفي تجويـف كل بلوطة تصلني أوهى

ارتعاشات الارض : كنت جزءا من الشجرة العظيمة ، جزءا من الماضي ذا بأس ونسب ، وكبرياء ، كبرياء ٠ وعندما سقطت الى الارض ودفنت هناك تذكرت من أنا ومن أين أتيت والان أنا ضائع ،ضائع ٠ هل تسمع ؟ ألا تسمع ؟ انني أعوي وأصرخ – ألا تسمعني ؟ أطفيء الانوار ! اكسر اللمبات ! والان ألا تسمعني ؟ أتقول : بصوت أعلى ! أعلى من هذا ؟ يا للمسيح ، هـل تتسلى بي ؟ هل أنت أطرش ، وأخرس وأعمى ؟ هل يجب أن أمزق ثيابي ؟ هل أرقص وانا اقف على قمة رأسي ؟

حسن ، اذن ! ها أنا ارقص لك ! لفـة جميلـة ، أيها الاخوة ، دعوها تدور ، وتدور ، وتدور ! انزعوا زوجا اخر من السراويل ما دام باستطاعتكم ذلك ٠ ولا تنسوا ، يا شباب ، انني اغطي الجزء الهام ٠ أتسمعون ؟ دعوها تستمر ! كونوا دائما مرحين مشرقين !

جابر فهورل كرونستات

هذا الرجل ، هذا العقل ، هذه الموسيقى ...

انه يسكن في الجزء الخلفي لحديقة غائرة ، وهي أشبه بفسحة مشجَّرة مضيئة مظللة بأعمدة أفقية وأشواك ، وبنبات الارز الهندي وبشجر الباوباب الضخم ، انها أشبه بالبكستيود المثير للغثيان المزين بعشب الاليترا وبقوارب الفلوكة ٠ وتمر بصندوق الخفير فترى البواب يبرم شاربه con fürioso كما في الفصل الاخير من ouida ٠ كانوا يقطنون الطابق الثالث خلف بناء يطل على مشهد جميل مخرَّم ومعمَّد وكلاب مشكمة بأكياس تفرز الدهن ؛ وسندات وأسماك المغريم منشورة لتجف ٠ وفوق جرس الباب عبارة تقول : جابر فهورل كرونستادت ، موسيقي شاعر ، واختصاصي بعلم الاعشاب ؛ متنبىء طقس ، لغوي ، عالم بمجال المحيطات ، والثياب العتيقة ، والغرويات٠ وتحت هذا تقرأ : « امسح قدميك وتمخط ! » وتحت هذا وضعت حلية وردية أخذت من ثوب مستعمل ٠

قلت لمرافقتي التي كان اسمها دشيلي زيلابيه « ثمة غرابة تحوط كل هذا ، لا بد ان النوبة قد عاودته من جديد » ٠

بعد أن ضغطنا على الزر سمعنا صغيرا يبكي، بكاء نائحا صريفيا وقحا يشبه نهاية حلم متعهد شراء الاحصنة الهزيلة ٠

واخيرا جاءت كاتيا الى الباب ـ وكاتيا هي مس هش كاسل ـ وخلفها تقف بينوتشيني الصغيرة نحيلة كرقاقة وهي تمسك بلعبة من الحلوى المثلجة٠ وتقول بينوتشيني « يجب أن تدخلوا غرفة الاستقبال انهم لم يرتدوا ملابسهم بعد » ولما سألت ان كانوا سيتأخرون لاننا جائعان قالت: « أوه ، لا !

انهم يرتدون ملابسهم منذ ساعات • يمكنك ان تلقي نظرة على القصيدة التي كتبها أبي اليوم ـ انها فوق الرف » •

وبينما دشيلي تسوى عمامتهاراحت بينوتشيني تضحك وتضحك وهي تقول أوه ، يا الله ، ماذا دهى العالم ، كل شيء عتيق وهل قرأت عن الكسلى التي خبأت عيدان اسنانها تحت الحشية ؟ انه شيء غريب جدا ، لقد قرأها لي ابي من كتاب ضخم حديدي •

ليس ثمة قصيدة فوق الرف ، بل أشياء أخرى ـ كتاب«تشريح الكآبة»، وزجاجة برنود فيلز فارغة ، وكتاب«البحر البيضوي»وشريحة من التبغ المضغوط ، ودبابيس شعر ، قاموس بأسماء الشوارع ومزمار الاوكارينا ••• والة للف السجائر • وتحت الالة كتبت ملاحظات على لوائح الطعام ، وبطاقات الزيارة ، وورق المرحاض ، وعلب الكبريت ••• « قابل الكونتيسة كاثكارت في الرابعة» ••• « مخاط ميشليت البراق » ••• « سوائل مخاطية ••• فلقات ••• سلي» ••• « اذا وقع يوم العنصرة في حضن يوم السيدة ، فحذر انكلترا العجوز من الصفعة » ••• « من مهله نهض خليفته » ••• « الرنة القضاعة ، المارمنك ، وضفدعة المنك » •

البيانو قائم عند الزاوية قرب سيجار البلفدير ، وصندوق اسود هش عليه شمعدان فضي • كانت المفاتيح السود قد اهترأت من عض الكلاب •• وهناك البومات لبتهوفن ، وباخ ، وليست ، وشوبان ، مملوءة بالفواتير ومجموعات طلاء للاظافر ، وأحجار شطرنج وقطع الرخام والنرد • وعندما يكون كرونستادت معتدل المزاج يفتح الالبوم الذي كتب عليه « غويا » ويعزف لك مقطوعة من مقام C • بامكانه أن يعزف أوبرات ، مينويتات ، الشوتشات ، والرندو ، والسارابند ، والافتتاحية ، والفيوغ ، والفالسات ، والمارشات العسكرية ، يمكنه أن يعزف لتشيريني ، وبروكوفييف أو لغرانادوس ، بل يمكنه حتى أن يرتجل ويصفر لحنا قرويا في نفس الوقت • لكنها يجب أن تكون من مقام C •

لا يهم عدد المفاتيح السود المفقودة أو ان كانت الكلاب تلد او لا تلد ، أو تعطل جرس الباب ، وكان المرحاض مسدودا ، ولم تكن القصيدة مكتوبة ووقع الشمعدان ، ولم يسدد الايجار ، وانقطع الماء ، وكانت الخادمات سكارى ، وانسدت البالوعة وتعفنت النفاية ، وسقطت قشرة الرأس وتصدع السرير أو اذا تعفنت الزهور ، وصارت البالوعة زلقة وبهت لون ورق الجدران ، وكانت الاخبار قديمة والكوارث فاشلة، او كانت رائحة الفم كريهة والايدي دبقة ، او لم يذب الجليد او لم تدر الدواسات . فكله سواء

ويأتي عيد الميلاد لإن كل شيء سيتناغم على مقام C اذا اعتدت على النظر الى العالم بهذه الطريقة .

يُفتح الباب على حين غرة ليسمح بدخول وحش هائل مصاب بالصرع له شاربان فطريا الشكل انه جوكاتا القط الجائع ، وهو بهيمة ضخمة فتية ذات فراء أغبر داكن وجوزتين سوداوين مخبأتين تحت ذيله المستقيم . ويجري في كل مكان كاللبؤة ، وهو يرفع قائمته الخلفية كالكلب ، ويتبول كالبوم .

ويقول جابر فهورل من خلال اطار الباب « سآتي بعد دقيقة . انني أرفع سروالي » .

والان تأتي الزا – الزا من باد نوهايم – وتضع صينية عليها كؤوس حمراء بلون الدم فوق رف المدفأة . ويثب الوحش ويموء ويضرب مخالبه ويشدد مواءه : فقد وصلت بضعة حبيبات من بهار الكاين الى انفه الرقيق الذي يشبه الورقة الطانية ، والجزء الغليظ من أنفه الرقيق يشبه رصاص دمدم . انه يضرب مخالبه في كل مكان بنوبات غضب سيامية عظيمة وعظام ذيله أدق من أدق انواع السردين . وهو ينتف السجادة بمخالبه ويمضغ ورق الجدران ، يدور بشكل لولبي ويتمدد كالتويج ، وهو يخلص ذيله من العقد بخفة ، وتهتز الفطور عن شاربيه ، ويعض جيدا مخترقا الارض الى صلب القصيدة . انه في مقام C وهو في جنون مطبق . له عينان حمراوان بلون الارجوان كأنهما زرا بذلة من النمط العتيق ، انه أجرد ، أسمر اللون كزهرة الغطاس وأيضا اخضر بلون النيل ، وهو مهزوز ، مثير للقرف والاشمئزاز والازعاج ، ويمضغ أردية الكهان الرسمية .

والان تدخل آنا – آنا التي تقطن هانوفر ميندن – وتحضر معها كونياك ، وفلفل احمر وعشبة الافسنتين وزجاجة من صلصة الوروسسترشير . ومع آنا تأتي قطط العبد الصغيرة – لاهور وميسور وكونبور . كلهم من الذكور ، حتى أمهم . يتدحرجون على الارض بهياكلهم الضئيلة ، ويلوطون بعضهم بلا رحمة . والان يظهر الشاعر نفسه وهو يسأل عن الوقت رغم أن الوقت هو كلمة كان قد أسقطها من حسبانه . فالوقت ضد الموت . الموت هو اللفظة الصامتة والوقت هو الصنو والان ثمة وقت بين الفصول ، سمن صناعي يمزج فيه الرجل المستقيم شرابا حتى يجعل عضلات بطنه تنتفض . ويقول الوقت ،الوقت وهو يخلط قليلا من فلفل الكين بهزه في الكونياك . وقت لكل شيء . رغمأني لم أعد استخدم هذه الكلمة على الاطلاق ،وبينما هو يقول هذا كان يتفحص ذيل لاهور الذي تشكلت فيهفتلة ويضيف قائلا وهو يهرش

عصعصة الاخير ان المرحاض طليّ باللون الفضي ويمكنك ان تجد نسخة من جريدة الـ Humanite .

ويقول لدتشيلي زيلابيه : « انت جميلة جدا » ومع هذه الجملة يُفتح الباب ثانية وتندفع جيل داخلة مرتدية شالي بلون النيل الاخضر . ويقول جاب : « الا تظن انها جميلة ؟ »
كل شيء صار جميلا فجأة حتى هذه الجوكاتا الضخمة اللواطة المتوحشة بجوزتيها السمراوتين كالسينامون والناعمتين كالاشنة .

انفخ محارة الاذن ودغدغ الترقوه ! بطن جاب تؤلمه حيث يجب ان يؤلم زوجته . وهذا الالم يأتيه مرة في الشهر ، بانتظام مع كل قمر ويجعله ينطرح متوعكا ، ولا تفيده المراهم في شيء . ويكفي الكونياك مع الفلفل الاحمر ـ حتى تبدأ عضلات بطنه تنتفض . ويقول : « سأعطيك ثلاث كلمات بينما أنا أقلّب الاوزة في المقلاة : « نزويّ ، استسقائيّ ، سليّ » .

يقول جيل « لماذا لا تجلس ؟ لقد جاءته النوبة »

كونبور مستلق على ألبوم يحتوي ٢٤ افتتاحية . ويقول : « سأعزف لكم واحدة سريعة»ويرفع غطا الصندوق الصغير الاسود ويبدأ بالبلينك . بلانك ، بلونك ! « سأعزف الاهتزازه » وباستخدام كل اصبع من أصابع يده اليمنى في تتابع سريع يضرب المفتاح الابيض C في منتصف اللوحة وأحجار الشطرنج ومجموعة طلاء الاظافر والفواتير غير المسددة تقرقع كعلبة الاقراص والكأس السكري . ويقول وقد ساد عينيه لون ازرق شاحب واحاطهما اطار من الندى المتجمد . « انه تكنيك ! » . « لا يوجد الا شيء واحد ينتقل بسرعة الضوء وهو الملائكة . الملائكة فقط يستطيعون الانتقال بسرعة الضوء يستغرق الانتقال الى كوكب أورانوس ألف سنة ضوئية ولكن لم يحدث أن وصل أحد الى هناك ولن يصل اليه أحد . هاكم صحيفة من أميركا . هل لاحظتم كيف يقرأ المرء صحف الاحد ؟ اولا الـ rotogravure ومن ثم الصفحة الفكاهية ، ثم عمود الرياضة ، بعدها السلبع فأخبار المسرح ، فمراجعات الكتب ، ثم العناوين الرئيسية . تلخيص . تطور الكائن الفرد ـ التطور النوعي. حددوا عباراتكم ولن تضطروا لاستخدام كلمات مثل وقت ، موت ، عالم ، روح . ثمة في كل حالة خطأ صغير فاذا بالخطأ يكبر ويكبر حتى تسحق الحية . القصيدة هي الشيء الوحيد المعصوم ، اللهم ان كنتم تعرفون ما هو الوقت . فالقصيدة هي نسيج يغزله الشاعر من جسده طبقا لحسابات لوغاريتمية لنبوءته . وهي دائما صحيحة ، لأن الشاعر يبدأ من المركز ويعمل منطلقا للخارج ... »
الهاتف يرن .

« كان بيتاغورات محقا ··· ونيوتن كان مَحقا ··· وأينشتاين كـان نقـا ··· »

تقول جيل : « أجب على الهاتف ، من فضلك » ·

« هالو ! نعم ، انني هو المسيو كرونستادت · ما اسمك من فضلك ؟ مبرغ ؟ اسمع ، هل تتكلم الانكليزية ؟ وأنا أيضا ·· ماذا ؟ نعم ، لدي ث شقق _ للايجار أو للبيع · ماذا ؟ نعم هناك حمام ومطبخ ومرحاض ضا ··· نعم ، مرحاض سالك · لا ، ليس في الصالة _ انه في الشقة · ن النوع الذي تجلس عليه · هل تود أن يكون مغطـى بورق فضـي أم عبي ؟ ماذا ؟ لا ، انني أتكلم عن المرحاض ! معي رجل من ميونيخ ، انه جيء ! هتلر ! هتلر ! أتفهم[1] ؟ أيـوه ، هذا هو · انه يحمل رسم الصليب عكوف على صدره ، باللون الازرق ··· ماذا ؟ لا ، انني جاد فيما أقول · ل أنت جاد ؟ ماذا ؟ اسمع ، ان كنت تريد حقا فالدفع نقدا ··· نقدا ! جب أن تدفع نقدا · ماذا ؟ الحقيقة ، هذه هي الطريقة التي نتعامل بها · فرنسيون لا يثقون بالشيكات · في الاسبوع الماضي قابلت شخصا كاد سلب مني ٧٥٠ فرنكا ، أيـّوه ، شيكا اميركيا · ماذا ؟ اذا لم يعجبـك لوجود لدي آخر مع طاولة نقالة · انها معطلة الان ولكن يمكن اصلاحها · اذا ؟ أوه ، حوالي الالف فرنك · هناك غرفة للعب البليارد في الطـابق علوي ··· ماذا ؟ لا ··· لا ليس لدي أشياء من هذا القبيل هنا · اسمع ، ا سيد بمبرغ يجب أن تدرك انك في فرنسا الان · أيـّوه ، هذا ما أقصد ··· حالة أفضل في روما ··· اسمع لماذا لا تخابرني غدا ؟ انني أتناول العشاء لان · العشاء · انا اتناول الطعام · ماذا ؟ أيـّوه ، نقدا ··· باي ! » ·

ويقول وهو يعلـّق المهتاف : أترى ، هكذا ندير الامور في هذا البيت · ملنا سريع · ماذا ؟ انها ملك ثابت · أنتم أيها الشعب تعيشون في ارض لخيال · أنتم تظنون أن الادب هو كل شيء · أنتم تأكلون أدبا · ونحن في ذا البيت نأكل الاوز ، مثلا ·· نعم ، لقد انتهى الامـر تقريبا · أنتـّا ! Wie geht es ?· Nicht fertig اللعنة اذن ! ثلاث فتيات ··· لاجئات · لا أعلم من ين يأتين · أحدهم أعطاهن عنواننا · فتيات رائعات · صحيحات ، قويات ، متلئات ، لذيذات كطعم التوت البري · لا مكان لهن في المانيا · اينشتاين شغول بكتابة قصائد عن الضوء · هؤلاء الفتيات يردن عملا ، ومكانا عشن فيه · هل تعرف احدا بحاجة الى خادمـــة ؟ انهن فتيات رائعات · مثقفات · ولكن صنع وجبة واحدة يستلزم وجود الثلاثة معا · كاتيا هي فضلهن : فهي تحسن كي الملابس · وهذه ، آنا _ استعارت آلتي الكاتبة الامس ··· قالت انها تريد كتابة قصيدة · انني لا أحتفظ بك هنا لتكتبي قصيدة · هكذا قلت لها · في هذا البيت أنا الذي يكتب القصائد _ اللهم

(١) بالفرنسية .

ان كان هناك ما يُكتَب • بدت عنيدة • قلت لها ، اسمعي يا آنا ، انك تعيشين عالما من صنع خيالك • لم يعد العالم بحاجة الى قصائد • العالم بحاجة الى خبز وزبد • هل يمكنك ان تزيدي الخبز والزبد ؟ هذا ما يحتاجه العالم • تعلّمي الفرنسية وستستطيعين مساعدتي في العقار • أيوه ، الناس بحاجة الى اماكن يعيشون فيها • انه شيء مضحك • ولكن هذا هو وضع العالم الان • وهكذا كان دائما ، الا أن الناس لم يؤمنوا بهذا أبدا • لقد صُنِع العالم من أجل المستقبل ••• من أجل كوكب أورانوس • ولن تتاح الفرصة لأي كان زيارة كوكب أورانوس ، الا أن هذا لا يهم على الاطلاق • فعلى الناس أن يسكنوا الاماكن ويأكلوا الخبز والزبد • اكراما للمستقبل • هكذا كان الحال في الماضي • وهكذا سيكون الحال في المستقبل • الحاضر؟ ان الحاضر لا وجود له • هناك كلمة اسمها الزمن ، ولكن الكل عاجز عن تحديدها • هناك ماض وهناك مستقبل ، والزمن يمر بهما كتيار كهربائي • الحاضر هو حالة متخيّلة ، حالة حلم ••• حالة تناقض an Oxymoron • لدي كلمة أقولها لك – سأجعلها هدية لك • سأكتب قصيدة عنها • انني مشغول جدا ••• أعمال العقار الملحة تتطلب أوزّة وصلصة الكرابري ••• اسمعي يا جيل ، ماذا كانت تلك الكلمة التي كنت أبحث عنها البارحة ؟ »

تقول جيل على الفور Omoplate ؟ (عظمة الكتف)

« لا ، ليست هذه • انها اومو ••• اومو ••• »

« أهي Omophalos ؟ »

« لا ، لا • اومو ••• اومو ••• » •

وتصرخ جيل « تذكّرتها • انها Omophogia ! » (اكل اللحم النيء) •

« انها هي ، Omophogia ! هل تحبين هذه الكلمة ؟ خذيها معك ! ماذا حدث ؟ انك لا تشربين يا جيل ، أين ذاك الخلاط للكوكتيل الذي وجدته بالامس على الطاولة النقالة ؟ هل تتخيلينه – انه خلاّط كوكتيل ! على أية حال ، أنتم أيها الناس تعتقدون أن الادب شيء ضروري أساسا • انه ليس كذلك • انه مجرد أدب • كان يمكنني أن أصنع أدبا أيضا – لو لم يكن عليّ أن أطعم هؤلاء اللاجئين • أتريد معرفة ما هو الحاضر ؟ أنظر من النافذة • لا ، ليس هناك ••• بل التي في الاعلى •

هناك ! انهم يجلسون هناك كل يوم يلعبون الورق – اثنان منهم فقط • انها دائما ترتدي ثوبا احمر وهو دائما يخلط الورق • هذا هو الحاضر • واذا أضفت كلمة اخرى تصبح صيغة شرطية ••• »

تقول جيل : « يا لليسوع ، سأذهب لارى ماذا تفعل الفتيات » •

« لا لا تذهبي ! هذا هو الشيء الذي ينتظرنه ـ انهن ينتظرنك لتأتي وتساعديهن • يجب ان يعلمن ان هذا عالم حقيقي • اريدهن ان يفهمن هذا • وبعد ذلك سأجد لهن اعمالا • لدي الكثير من الوظائف • ولكن سأدعهن يحضّرن لي وجبة طعام » •

« تقول الزا ان كل شيء جاهز • هيا ، فلندخل » •
« آنا ، آنا ، اجلبي تلك الزجاجات من الداخل وضعيها على الطاولة ! »
وتنظر آنا الى جابرفهورك ببلاهة •

« هاكم ! انهن لم يتعلمن حتى التكلم بالانكليزية • ماذا سأعمل بهن ؟ آنا •• Hier ! Raus mit 'em ! Versteht ? وصبّي لنفسك كأسا ، ايتها البلهاء المذعورة » •

غرفة الطعام مضاءة بنور خفيف • ثمة شمعدان على الطاولة وطقم من الفضيات • وبينما نحن جالسون يرن جرس الهاتف • تجمع آنا اطراف الشريط القيطاني وتنقل الجهاز من البيانو الى الطاولة الجانبية الموجودة خلف كرونستادت مباشرة • ويترك الاطراف القيطانية تسقط وهو يهتف : « هالو ! انها أشبه بالامعاء ••• هالو ! وي ! وي ! مدام ••• انا السيد كرونستادت ••• وما اسمك من فضلك ؟ نعم ، يوجد صالون • وطابق مسروق ، ومطبخ ، وغرفتان للنوم ، وحمام ، ومرحاض •• Oui, madame لا ، انه ليس غاليا ، ليس غاليا على الاطلاق ••• ممكن تنظيفه بسهولة ••• كما تريدين مدام ••• في أي ساعة ؟ نعم ••• بكل سرور ••• ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ آه لا ! على العكس ! انه لمن دواعي سروري •• سرور عظيم • اورفوار مدام ! »(١) ويصفق المهتاف ـ « küss die hand madar هل تريدين ان تهرشي ظهرك ، مدام ! » هل تريدين صليبا مع قهوتك ، مدام ؟ هل تريدين •••؟

تقول جيل : « اسمع ، من كانت هذه بحق الجحيم ؟ كنت فائق الرقة معها ••• Qui madame Non, madame ! هل دعتك لتناول شراب أيضا ؟ » واستدارت الينا ـ « هل تتصورون ، بالامس احضر احدى الممثلات الى هنا بينما كنت استحم ••• احدى مومسات كازينو باريس ••• أخذته معها وأسكرته ••• »

« انك لم تقولي ما حدث كما يجب ، يا جيل • انه على الشكل التالي ••• كنت اريها شقة رائعة مع طاولة طعام نقالة ـ وتقول لي هل تريد ان تسمعني شعرك ـ Poésie ••• فهو أمتع بالفرنسية وهكذا أحضرها الى هنا وتقول لي سأطبعها لك باللغة البلجيكية •

(١) المكالمة التليفونية بالفرنسية • (المترجم) •

« ولماذا بالبلجيكية يا جاب ؟ »

« لانها كانت بلجيكية ـ او Belgianess ، على كل حال ، ماذا يهم نوع اللغة التي ستطبع بها ؟ يجب أن يطبعهـا شخص ما ، والا فلن يقرأها أحـــد » .

« ولكن ما الذي يجعلها تقول هذا ـ وبهذه السرعة ؟ »

« اسألني أنا ! لان القصائد جيدة ، على ما أعتقد . وأي سبب يدفع الناس لطبع القصائد ؟ »

« هـــراء ! »

« أترى ! انها لا تصدقني » .

« طبعا لا أصدقك ! اذا رأيتك مرة أخرى تحضر بريمادونات الى هنا ، أو أي من راقصات أطراف الاصابع ، أو أي من فنانات السيرك ، أو ما هو فرنسي ويرتدي التنانير ، فستدفع الثمن في جهنم . وخاصة اذا عرضن طبع قصائدك ! »

ويقول جابرفهورل شاحبا مهتاجا . « ها قد قلتها بنفسك ، لذلك أنا اعمل في العقارات ... هيا كلوا ، يا ناس ... وانا انظر اليكم » .

ويمزج مقدارا آخر من الكونياك والفلفل .

تقول جيل : « أعتقد أنك تناولت ما فيه الكفاية . يا لليسوع ، كـم كأسا تناولت اليوم ؟ »

ويقول جابرفهورل : « شيء مضحك ، لقد وجدت لها عملا جيدا قبل لحظات ـ قبل أن تأتي مباشرة بينما لم استطع تدبير عمل لنفسي ... »

تقول جيل : « يا لليسوع أين تلك الاوزة ! عفوا ، سأدخل لارى ماذا تفعل تلك الفتيات . »

ويقول جاب دافعا ظهرها الى المقعد : « لا تذهبي ! سنبقى هنـــا جالسين وننتظر ... ننتظر ماذا سيحدث : أخشى أن الاوزة لـن تأتي ابدا . سنبقى هنا وننتظر ... ننتظر الى الابد ... على هذا الحال ، مع الشموع وصحون الحساء الفارغة والستائر و ... أستطيع أن أتصور حالنا جالسين هنا وفي الخارج شخص يغلّف الجدران بورق لاصق حولنا ... اننا هنا ننتظر الزا لتحضر الاوزة ويمر الوقت ويهبط الظلام ونحن على جلستنا اياما واياما ... أترون تلك الشموع ؟ سنأكلها . وتلـك الازهار وهنـاك أيضا ؟ سنأكل الكراسي ، وسنأكل البوفيه ، وسنأكل المنبّه ، وسنأكل القطط ، وسنأكل الستائر ، وسنأكل الفواتير والفضيات وأوراق الجدران وعث الثياب ... سنأكل روثنا وذاك الجنين الجميل الجديد الذي تحملـه جيل في أحشائها ... وسنأكل بعضنا بعضا ... »

في تلك اللحظة تدخل بينوتشيني لتقول أسعدتم مساء ٠ وهي تشمخ بما يشبه رأسها وفي عينيها نظرة ساخرة ٠

وتقول جيل : « ماذا بك هذا المساء ؟ تبدين قلقة » ٠

وتقول الصغرى : « أوه ، لا أعلم ماذا يجري ٠ ثمة شيء أود سؤالك عنه ٠٠٠ انه معقد بشكل كريه ٠ لا أعلم ان كنت استطيع قول ما اعني » ٠

يقول جاب : « ماذا بك أيتها البلهاء ؟ قولي ما تريدين أمام السيدة والسيد ٠ أنت تعرفينه ٠ أليس كذلك ؟ هيا ، ابصقي كلمتك ! »

ظلت الصغيرة منكسة الرأس ٠ وهي تنظر من زاوية عينها الى أبيها بخبث وفجأة انفجرت قائلة : « أوه ، لم كل هذا ؟ لماذا نحن جالسون هنا ؟ هل يجب أن يكون لدينا عالم ؟ هل هذا هو العالم الوحيد ولماذا الحال هكذا ؟ هذا ما أريد أن أعرف » ٠

ان كان جابرفهورل كرونستادت قد ذُهل بشكل ما فهو لم يظهر أية بادرة ٠ وأجاب بابتهاج وهو يلتقط كأس الكونياك بلا اكتراث مضيفا القليل من الفلفل : « اسمعي يا ابنتي ، قبل أن أجيبك على ذاك السؤال – ان كنت تصرّين على الحصول على اجابتي – عليك أولا أن تحددي عباراتك » ٠

وعندئذ سمعت صفرة ثاقبة طويلة من الحديقة ٠

يقول كرونستادت : « موغلي ! قولي له ان يأتي » ٠

تقول جيل : « هيا » وهي تقترب من النافذة ٠

لا جواب ٠

تقول جيل : « لا بد أنه قد ذهب ، لم أعد أراه » ٠

والان صار يسمع صوت امرأة آتيا « انه سكران ٠٠٠ سكران تماما » ٠ (١)

ويهتف كرونستادت « خذيه الى البيت ! قل لها أن تأخذه الى البيت ! »

«قال زوجي أن أدخله عندكم ٠٠٠ نعم ، في بيتكم » ٠ (٢)

وأتى صوت من الحديقة : « لا يوجد مكان ! »

ويهتف كرونستادت « قل لها أن لا تضيع نسختي من كتاب باوند « الاناشيد » وأن لا تطلبها مني ثانية ٠٠٠ ليس لدينا متسع هنا ٠ لا يوجد مكان الا للاجئين للالمان » ٠

تقول جيل وهي عائدة الى الطاولة : « انه شيء مخزي» ٠

يقول جاب : « ها أنت تخطئين من جديد ، ان هذا مفيد له كثيرا » ٠

تقول جيل : « أوه ، انه ثمل ، ولكن أين تلك الاوزة اللعينة ؟ الزا ! الزا ! »

(١) الاصل بالفرنسية ٠

(٢) الاصل بالفرنسية ٠

« لا تأبهي للاوزة يا عزيزتي ! انها لعبة . سنبقى جالسين هنـا ونقهرهم . القاعدة هي ، غدا مربى وأمس مربى - ولا يقال اليوم مربى .. أليس رائعا لو يجلس الناس هكذا مثلك ومثلي وأبدأ بالانكماش شيئا فشيئا ... حتى أصبح نقطة صغيرة حقيرة جدا ... وعندئذ يصبح عليك أن تنظري اليّ من خلال عدسة مكبرة ؟ سأصبح نقطة صغيرة على مفرش المائدة وأقول - تيمور ... تي - مور ، وتقولين أين هو ؟ وأقول - تيمور ، logodaedaly ، غليكوفوسفات ، بيلانكو ، تي- مور ... ثرثر أسفل الآلة البروكشية ... وتقولين ... »

تقول جيل : « بحق اليسوع يا جاب ، أنت ثمل ! » ويمرح جابرفهورل بصخب متلالىء ، وأفلاكه البيضوية تسخر وتهزر .

تقول جيل وهي تنهض باحثة عن القبعة الاسبانية « بعد دقيقة سيصاب بالزكام » .

يقول جاب : « هذا صحيح . أنت تظنين أني شخص متناقض جدا . تبـا لك » يقول هذا ملتفتا الي«تبا لـك ولافعالك المونغولية ، اللازمة والمتعدية ، الا ترى أني انسان دمث ؟ أنت تتكلم عن الصين طوال الوقت.. الصين هي هذه ، ألا ترى معي هذا ! هذه ... هذه ماذا ؟ أعطني الكاب يا جيل ، اني بردان . انه برد رهيب ... برد تحت درجة الصفر . أنتم اناس دافئون ، اما انا فأكاد اتجمد . اشعر بالقبعة المثلجة تهبط عليّ . انها حقيقة . كل شيء يتقدم بروعة ، والدولار يهبط ، والشقق تؤجّر ، واللاجئون وفّرت لهم الملاجىء ، والبيانو ضبطت نغمته ، والفواتير سددت ، والاوزة طبخت ، وماذا ننتظر بعد ذلك ؟ اننا ننتظر العصر الجليدي التالي ! وسيحل غدا صباحا . ستنظر الى النافذة وسيكون كل شيء قد تجمد تماما . لم يبق معضلات ، لا تاريخ ، لا عدم . كل شيء تم . سنجلس هنا هكذا ننتظر آنا لتحضر الاوزة وفجأة ينهمر علينا الثلج حتى يغطينا . أشعر بالبرد الرهيب منذ الان ، كل الخبز تجمد ، والزبد شخب لونه ، والاوزة gazzled ، وجدران بلون الابيض الوخشني . وذاك الملاك الصغير ، ذاك الجنين الجديد البراق الذي تحمله جيل تحت حزامها ، سيتجمد بدوره وهو في الرحم ، أبله آحيّ بأجنحة متجمدة من البرد وشفتا حلزون . وحركة أو حركتان ويصبح كل شيء هادىء جامد . قل شيئا دافئا ! ساقاي تتجمدان يقول هيرودوتوس ان العنقاء ، إبّان موت والدها ، تحنّط جسده في بيضة مصنوعة من صمغ الراتينج وكل خمسماية سنة أو نحوها تنقل البويضة المحنطة بصمغ الراتينج مرة من الصحراء العربية الى معبد الشمس في هيوليوبوليس . هل يعجبك هذا ؟ وحسب بليني فانه يضع في كل مرة بيضة واحدة وعندما يشعر الطائر أن نهايته قد حانت يبني عشا من أغصان

قرفة الصينية والبخور ويموت فوقه • ومن هيكل العش تولد دودة صغيرة صبح عنقاء • وهكذا فـ Bennu هي رمز للبعث • وكيف ذلك ؟ أريد شيئا كثر حرارة • هاك واحدة أخرى ··· ان الذين يمشون على النار في بلغاريا سمون Nistingares • انهم يرقصون على النار في اليوم الحادي والعشرين ن أيار أثناء احتفال القديسة هيلينا والقديس كونستانتين • انهم رقصون على جمر أحمر متوهج حتى تزرقّ وجوههم ، ومن ثم يلقون تنبؤاتهم » •

تقول جيل : « لا يعجبني هذا أبدا » •

يقول جابر : « ولا أنا ، أحب حكاية الديدان الصغيرة التي تطير من عشاشها لتُبعث من جديد • جيل عندها واحدة أيضا في احشائها ··· انها نمو وتنمو ، ولا يمكن ايقافها • بالامس كانت مجرد شرغوف ، وغدا ستصبح كرمة تمتص العسل ، وحتى الان لا أستطيع القول الى ماذا ستؤول ··· لا أتنبأ بنهايتها • انها تموت في عشها كل يوم وتولد في ليوم التالي • ضع أذنك على بطنها ··· وستسمع رفرفة أجنحتها • ررر ··· وررر • وبدون موتور • انه شيء رائع • في بطنها الملايين منها كلهم يرفرفون محومين يموتون شوقا للخروج • وررز ··· وررر • ولو غرزت برة الى الداخل وثقبت الكيس لخرجوا جميعا وهم يرفرفون ··· تصور هذا ··· غيمة عظيمة من الديدان ··· ملايين منهم ··· وهم من الكثافة حيث لا نعود نرى بعضنا خلالهم ··· انها حقيقة ! لا حاجة للكتابة عن لصين • أكتب عن هذا ! أكتب عما في داخلك ··· عن التماسك القلق لعظيم ··· والابواغ والكريات البيضاء The wamroths and the halenlindens ··· ان كل منهما قصيدة • وقنديل البحر قصيدة أيضا – أروع أنماط لقصيدة • تلكزه من هنا وتلكزه من هناك ، فينزلق ويتمايل ، انه عصبي عريف المزاج ، له كولون وأمعاء ، وهو دوديّ الشكل و ubisquishous • وموغلي في الحديقة يصفّر لضخامة الايجار ، هو ايضا قصيدة ، قصيدة بأذنين كبيرتين ، قصيدة برتزولرلوامبلية لها لوغامنديدي من الغو – غو • له ديدالي عظمي دائريّ ، وكشكشات دائرية بلون ابو الحناء مفتوحة كعربات الباروش • انه يتلوى بالوامبهورست بينما الحلزون البحري ينزلق ··· ويرتعش عبر الوايكات الويندية وهو يورك مخلوقاته الورستية ··· موغلي ··· موغلي ··· ويست وويست ··· »

وتقول جيل : « انه يفقد عقله » •

يقول جابر : « انك تخطئين من جديد ، لقد وجدت عقلي الان فقط ، كل ما في الامر أنه نوع يختلف عن العقول التي تتصورينها • فانت تظنين ان القصيدة يجب أن تكون مغلقة • انك بمجرد أن تكتبي شيئا لا يعود

هناك قصيدة ٠ القصيدة هي الحاضر الذي لا يمكن تحديده ٠ بل يعاش فقط ٠ كل شيء يمكن أن يكون قصيدة اذا تضمن زمنا ٠ ليس من الضروري أن تستقلي معدية أو تذهبي الى الصين لتكتبي قصيدة ، أروع قصيدة عشتها كانت مغسلة مطبخ ٠ هل سبق وأخبرتك بهذا ؟ كان هناك صنبوران ، واحد بارد (Froid) والثاني ساخن (Chaud) ٠ كان فروا يعيش حياة في وسط متمدد ، وبواسطة خرطوم من المطاط موصول به ٠ أما شو فكان ذكيا ومتواضعا ، يقطر طول الوقت وكأنه مصاب بالسيلان ٠ في أيام الثلاثاء والجمعة يذهب الى الجامع حيث توجد عبادة لعلاج الصنابير المصابة بأمراض تناسلية ٠ وكان على فروا أن يقوم بجميع أعمال أيام الثلاثاء والجمعة ٠ كان حمار شغل ٠ وهذا كل عالمه ٠ من ناحية أخرى ، صار شو على هذا الاساس يزداد دلالا وترفا ٠ اذ كان عليك أن تقول له « لا داعي للعجلة » والا سلخ عنك جلدك ٠ وفي يوم راحا يعملان سوية في انسجام ، فروا وشو ، لكن هذا نادر الحدوث ٠ في أمسيات السبت ، عندما أغسل قدمي في المغسلة ، كنت أتفكر في كمال العالم الذي يخضع له هذان التوأمان ٠ ولم يكن هذا العالم أكثر من هذه المغسلة الحديدية بصنبوريها ، بلا بدايات ولا نهايات ٠ كان شو هو ألفا (البداية) وفروا هو أوميغا (النهاية) ٠ الابدية ٠ التوأمان (الجوزاء) يحكمان الحياة والموت ٠ ألفا ـ الساخن يتنقل على كل درجات الفهرنهايت والريومر ، خلال البرادة المغنطة وذيول المذنبات ، خلال مرجل مونالوا الغالي تحت ضوء قمر تيريتياري الجاف ، وأوميغا ـ البارد يجري عبر تيار الخليج الى حوض بحر سر ـ غاسو المستنقعي ، يجري خلال الحيوانات الجرابية والمنخرية ، خلال الحيتان الثديية والتصدعات القطبية ، يغوص في أعماق عوالم الجزيرة ، خلال الكاثود الميت ، خلال العظام الميتة والعفن الجاف ، عبر الثمار الجرابية ومجسات عوالم لم تتكون بعد ، عوالم لم تلمس ، عوالم غير مرئية ، عوالم لم تولد ومفقودة الى الابد ٠ الفا ـ الساخن يقطر ويقطر ، واوميغا ـ البارد يعمل ويعمل ٠ يد ، اقدام ، شعر ، وجه ، صحون ، خضروات ، سمك مغسول جيدا حتى الاهتراء ، يأس ، ملل ، حقد ، حب ، غيرة ، جريمة ٠٠٠ يقطر ويقطر ٠ انا ، جابر فهرول ، وزوجتي جيل ومن خلفنا مناطق فوق مناطق ٠٠٠ كلها تقف عند المغسلة الحديدية ٠ بذور تسقط مع مياه الصرف : بطيخ اصفر يافع ، قرع ، كافيار ، معكرونة ، الصفراء ، لعاب ، بلغم ٠ اوراق الخس ، عظام السردين ، صلصة وورسترشير ، بيرة تفهة ، بول ، تخرات دموية ، املاح كروشن ، دقيق الشوفان ، تبغ المضغ ، غبار ، شحم ، صوف ، خيوط القطن ، عيدان كبريت ، ديدان حية ، حبات قمح ممزقة ، حليب محروق ، زيت خروع ٠ بذور الجدب تنزاح ابدا ، وابدا تعود بكميات نقية ذات تركيب كيميائي معجز يرفض ان يُسمّى ، او يصنّف او يُبوّب ، او يُحلّل ، او يُنتزع ويُجزأ ٠ تعود كما

يعود فروا وشو باستمرار ، كالحقيقة التي لا يمكن ان تُطمَس • يمكنك ان تتقبلها باردة او ساخنة ، او فاترة • يمكنك ان تغسل قدميك او تغرغر حنجرتك ، يمكنك ان تشطف الصابون عن عينيك او ان تزيل حبيبات الرمل عن اوراق الخس ، يمكنك ان تحمّم الوليد او ان تمسح اعضاء الميــت المتيبسة ، يمكنك ان تنقع الخبز من اجل الـ fricadellas او ان تخفف خمرك • اول الاشياء واخرها ، اكسير الحياة • انا ، جابر فهرول ، اتــذوق اكسير الحياة والموت • انا ، جابر فهرول ، المكون من الفساد والـ H20 من السخونة والبرودة وكل الاجواء المعتدلة ، من الحثالة واللحاء ، من ارهف المواد واحقرها لا اضيع ابدا ، من اعظم خطوط الاتصال وامتن العظام ، من الصدوع الثلجية وانابيب الاختبار ، من اندماج المني مع البيضة وانحلالهـا وانتشارها ، من انبوب مطاطي وصنبور نحاسي اللون ، من كاثود ميــت والنقاعيات الملتوية ، من اوراق الخس واشعة الشمس المحفوظة في زجاجات ••• انا ، جابر فهورل ، الجالس عند المغسلة الحديدية متميز ثائر ، لست اقل او اكثر من قصيدة ، من مقطع شعري من الحديد ، ثمرة جرابية تغلي ، كرية بيضاء ضائعة• المغسلة الحديدية حيث بصقت مخرجا قلبي ، حيث غسلت قدمي ، حيث حملت طفلي الاول ، حيث غسلت لثتي المتقرحة ، حيث غنيت كسلحفاة الرق المصفحة بدرع مرصع بالجواهر • وانا لا ازال اغنـي حتى الان وسأظل اغني الى الابد رغم ان مصارف المياه تنسد ، والصنابير تصدأ ، رغم ان الزمن ينهمر وانا الموجود دائما كائن في الحاضر والمــاضي والمستقبل• غنّ ، يا فروا غن ايها المتعدي ! غن يا شو ، غن ايها الملازم ! غن يا الفا ويا اوميغا ! غنوا هللويا ! صبي غناءك ، آه ايتها المغسلة ! غنوا بينما العالم يغوص ••• » •

وتمدّد على السرير كبجعة ميتة إثــر وباء وهو يغنــي بصوتٍ عــالٍ وواضــح •

داخل حياة الليل ...

كوني ايسلاند العقل

ظِلّ الصليب ممتد فوق قدم السرير · وثمة سلاسل تقيدني الى السرير · ورنين السلاسل جلي والمرساة أنزلت · واذ بي فجأة اشعر بيد على كتفي · ثمة شخص يهزني بعنف · ارفع نظري فاذا بي امام عجوز بلفاعة قذرة · تذهب الى طاولة الزينة وتفتح درجا وتخبىء فيه مسدسا ·

وثمة ثلاث غرف ، واحدة الى جانب الاخرى ، كشقة في منطقة السكة الحديد · وانا مستلق في وسط الغرفة التي يوجد فيها مكتبة من خشب الجوز وطاولة زينة · تخلع العجوز لفاعتها وتقف امام المرآة بقميص النوم · تمسك بيدها قطيفة صغيرة للبودرة ، وبهذه القطيفة الصغيرة تمسح تحت ابطيها ، وصدرها ، وفخذيها وتبكي طوال الوقت كبلهاء · واخيرا تقترب مني وهي تمسك مرذاذا وترش عليّ رذاذا عطرا · وألاحظ ان شعرها مملوء بالفئران ·

أُراقب العجوز تتنقل في الغرفة · ويبدو عليها الانتشاء · تقف امام طاولة الزينة وتروح تفتح وتغلق الادراج ، واحدا بعد اخر ، بشكل آلي · ويبدو عليها انها نسيت لماذا تفعل هذا · وتلتقط القطيفة من جديد وتضمّخ بها تحت ابطيها وعلى الطاولة ثمة ساعة صغيرة فضية موصولة بقطعة شريط اسود · ثم ترفع قميصها وتعلق الساعة في عنقها ، فتصل حتى مثلث العانة · عنها اسمع تكة ضعيفة ومن ثم يتحول اللون الفضي الى أسود ·

في الغرفة الاخرى ، وهي الصالون ، يجتمع جميع الاقارب · يجلسون في نصف دائرة ، بانتظار قدومي · يجلسون جلسة صارمة جامدة ، كأنهم منجّدين كالكراسي · وبدل الثآليل واكياس الدهن ثمة شعر حصان يشطأ من ذقونهم ·

اقفز من السرير وانا في قميص النوم وابدأ برقص رقصة الماك كوتشي. ارقص وانا في قميص النوم ، واحمل مظلة فوق رأسي . فيراقبونني دون ان يبتسموا ، ليس بالمقدار الـذي يجعل خدودهـم تتغضن وامشي علـى يدي لاجلهم ، واتشقلب ، واضع اصابعي بين اسناني واصفر كالشحرور . وليس ثمة ادنى همس اعجابا او استنكارا . واخيرا ابدأ بالشخير كالثور ، ثـم اثب كمخلوق اثيري ، واتبختر كالطاووس ، وعندما ادرك انه ليس لدي ذيل اغادر المكان . ولا يبقى الا ان اقرأ القرآن بسرعة البرق ، ومن بعده تقارير الطقس ، فكتاب«الايقاع في البحـّار القديم»وكتاب الارقام .

وفجأة تدخل العجوز وهي ترقص عارية تماما ، ويداها تشتعلان.وفي الحال تحطم مشجب المظلة واذا بالهياج يسود المكان . ومن المشجب المقلوب تدفق سيل من افاعي الكوبرا تزحف بسرعة البرق وتعقد نفسها حول سيقان الطاولة وتنقل اوعية الحساء وتتسلق طاولة الزينة وتنحشر في الادراج . وتشق طريقها داخل اللوحات المعلقة على الحائط ، وداخل حلقات الستائر ، وخلال الحشيات ، وتلتف حول نفسها داخل قبعات النساء ، وطوال الوقت يصدر عنها هسيس كبخار الغلايات .

وألفُّ ثعبانين من الكوبرا حول ذراعي واذهـب الى العجوز وشهـوة القتل تظهر في عيني . وتتدفق الكوبرات من فمها وعينيها وشعرها ، وحتى من فرجها ، وذاك الهسيس المخيف الذي يشبه صوت البخار وكأنه صادر لتوه من فوهة بركان يغلي . في منتصف الغرفة حيث أغلق علينا انكشفت غابة كثيفة . ونقف وسط عشرة من افاعي الكوبرا وتتفكك اجسامنا .

انني موجود في غرفة غريبة ضيقة ، ممدد على سرير عال . وثمـة فتحة هائلة في جنبي ، فتحة نظيفة دون ان تبدو نقطة دم واحدة . ولم اعد استطيع ان اعرف من انا او من اين اتيت او كيف اتيت . الغرفة صغيرة جدا وسريري قريب من الباب . اشعر ان شخصا يقف عند عتبة الباب يراقبني . وانا متحجر من الرعب .

وعندما ارفع عيني ارى رجلا واقفا عند العتبة . يعتمر قبعة ديربي رمادية مائلة على جانب رأسه له شارب كثيـف ويلبس بذلـة من رقعة الداما . يطلب اسمي ، وعنواني ومهنتي ، وماذا افعل والى اين انا ذاهب وهلم جرا . ويتابع اسئلته الفضولية التي لا تنتهي ولا اقدر على الاجابة عليها ، اولا لاني فقدت لساني ، وثانيا لاني لا اتذكر اللغة التي انطـق بها . ويقول لي : « لماذا لا تتكلم ؟ » وهو ينحني نحوي ساخرا ويرفع عصاه الخفيفة الروطانية ويخز فتحة جنبي . ويكون المي عظيما حتى يبدو لي اني يجب ان اتكلم حتى وان لم يكن لدي لغة ، حتى وان لم اكن اعلم من انا او من

اين اتيت • وأحاول بكلتا يدي ان اباعد ما بين فكي ، لكن اسناني مشدودة الى بعضها • وتتفتت ذقني كقطعة طمـــي جافـة ، تاركـة عظام فكـي مكشوفة • ويقول لي « تكلم ! » بابتسامة ساخرة قاسية ، ويرفع عصاه ثانية ويطعن بها فتحة جنبي من جديد •

اتمدد متيقظا في الغرفة الباردة المظلمة • صار السرير الان يكاد يلمس السقف • اسمع هدير القطارات ، جلبة القطارات المنتظمة الايقاعية عبـر المنصب المتجمد ، وانفاس القاطرة القصيرة المختنقة ، وكأن الهواء يتشظى من البرد • في يدي احمل قطع الطمي الجاف الذي تفتت من ذقني • واسناني مشدودة الى بعضها بقوة اكبر ، واتنفس داخل الثقوب الموجودة في جنبي • ومن نافذة الغرفة التي اتمدد فيها يمكنني ان ارى جسر مونتريال • ومن بين عوارض الجسر تتطاير الشرارات وتنهمر تجرفها عاصفة ثلجية عاتية • وتتسابق القطارات عبر النهر المتجمد وسط حمم من النار • أرى الدكاكـين الممتدة في طريق الجسر تتألق بالفطائر وسندويش النقانق • وفجأة اتذكر شيئا • اتذكر اني بينما كنت مرة اعبر التخم اذا بهم يسألونني ماذا علي ان اعلن ، فأجبت كأبله : « اريد ان اعلن اني خائن للجنس البشري » اذكر الان بوضوح ان هذا بدا لي بينما كنت اتجول فوق دراجة خلف امرأة ترتدي تنورة منتفخة : كانت هناك مرايا تحيط بنا من كل جانب وفوق المرايـــا درابزين من الاضلاع ، سلاسل متكررة من الاضلاع ، واحدة بعد الاخـرى ، منحدرة متداعية ، مجنونة كأنها كابوس • وعن بعد ارى جسر مونتريـال وتحت الجسر طوافات الجليد التي تتسابق فوقها القطارات • اذكر الان انه عندما نظرت المرأة حولها تبحث عني كان لها جمجمة فوق كتفيها وعلـى الحاجب الخالي من اللحم كتبت كلمة جنس ، متحجرة تشبه السحليـــة • رأيت الجفنين يتساقطان فوق عينيها ومن ثم الكهف المعتـــم الذي لا قرار له • بعد ان هربت منها حاولت ان اقرأ المكتوب على هيكل سيارة تتسابق مرت بقربي ، لكنني لم المح الا طرف نهايته ولم يكن يعني شيئا •

اقف على جسر بروكلن كالمعتاد بانتظار ان يتهادى الترولي مقتربا • وتنهض المدينة وسط حرارة الظهيرة كدب قطبي هائل يهز عنه نباتـــات الوردية rhododendrous • الاشكال تتذبذب والغاز يسد ما بين العـوارض ، وموجة الدخان والغبار تشبه التعاويذ • ومن قلب اصطخاب الابنيـة ينهمر سيل من قناديل البحر الحارة الاعضاء ملصقة بعضها الى بعض بواسطـة سراويل وتنانير • ويغمر المد واجهات الشاحنات المائلة وينشطر كأمشاط زجاجية • وتحت العناوين الرئيسية الطازجة توجد اطراف الاميبا الشفافـة تتزاحم متجهة صوب مماشي جوانب القوارب ،وسيقان التنس الرائعة القوية الملفوفة بأوراق السيلوفان ، عروقها البيض بارزة من خلال بطتي الساقـين

الذهبيتين والعضلات العاجية . المدينة تنفث عرق الساعة الخامسة . فوق قمم ناطحات السحاب تخيم كتل الغيم الرقيق كأنها ريش كليوبترا . الهواء يخفق ثقيلا ، والوطاويط ترفرف ، والاسمنت يرق ، وسكك الحديد تتسطح تحت وطأة حواف دواليب الترولي العريضة . الحياة مدونة بعناوين رئيسية يعلو اثني عشر قدما مع النقط والفواصل ، والفواصل المنقوطة . الجسر يتأرجح فوق بحيرات الغازولين . يتدحرج البطيخ من الامبريال فالي ، وتنهمر النفايات مارة بهل غيت ، اسطح السفن جلية ، الدعائم تلمع ، والحبال الضخمة مربوطة جيدا ، ومزالق السفن تهدر والطحلب ينشق وينشطر على مزالق المعديات . وثمة ضباب رقيق دافىء مفعم بالرطوبة يجثم فوق المدينة كأنه كأس من الشحم ، والعرق يقطر من بين السيقان العارية ، ويسيل حول الكواحل الناحلة . وكتل مخاطية من الاذرع والسيقان ، من الاهلة ودوارات الطقس ، من ابو الحناء الديكي وابو الحناء المستدير ، من الفلين والموز اللامع مع لب الليمون الخفيف موضوع في بطن القشرة . الساعة الخامسة تدق مخترقة الظهيرة بسخامها وعرقها ، والعوارض الحديدية تخلف مساحة من الظل البراق . وتدور دواليب عربات الترولي بفكوكها الحديدية ، وهي تطحن الحشود الورقية ، تلفها كحزمة من المنقولات .

بعد ان اتخذ مقعدي ارى رجلا اعرفه واقفا على الرصيف الخلفي وهو يمسك جريدة بيده . قبعته القشية مائلة الى الخلف من رأسه ، ذراعه ترتاح على مكبح مصلح السيارات النحاسي . والى الخلف من اذنيه تنتشر شبكة الكابلات كأحشاء بيانو . وقبعته القشية تقع على نفس سوية شارع تشامبرز ، وترتاح كبيضة مشطورة شرائح على السبانخ الاخضر في الميناء . واسمع اسنان العجلة تنزلق على رأس اصبع رجل مصلح السيارات الثخينة . الاسلاك تهمهم ، والجسر يئن من المتعة . ثمة مقبضان مطاطيان على المقعد امامي ، يشبهان مفتاحي بيانو اسودين . وهما بحجم ممحاة ، وليسا مستديرين كطرف عصا خيزران . وثمة شيئان يعلم الله ما هما مطاطيان من اجل تخفيف الصدمة . وصدمة مطرقة مطاطية كتومة تضرب على جمجمة مطاطية .

الريف مهجور . لا دفء ، لا استكانة ، لا تقارب ، لا كثافة ، لا شفافية ، لا صورة كسر ، لا مخرجه . انه كجريدة المساء تقرأ إلى أبكم أطرش يقف على رف قبعات وفي يده سعفة من النخل المروحي . لا يوجد في اي مكان من هذه الارض المحمّصة ، اي اثر لليد الانسانية ، للصوت الانساني . ليس هناك غير عناوين رئيسية مكتوبة بالطباشير يمحوها المطر . وبعد مشوار قصير بالترولي اجد نفسي في صحراء مملوءة بالشوك والصبار .

وفي وسط الصحراء ثمة غرفة حمام وفيها حصان خشبي مع منشار خشب موضوع بشكل معارض لوضعه . وبقرب الطاولة المغطاة بالزينك تقف امرأة

كنت اعرفها وهي تطل من خلال شبك النافذة . انها تقف وسط الصحراء كصخرة من الكافور . يفوح من جسدها عبق الحزن القوي . تقف كتمثـــال يلوح مودعا . تعلو عني برأسها وكتفيها ، عجزاها ضخمان بشكل انقضاضي يتجاوزان كل النسب . كل شيء صار يتجاوز كل النسب ـ الايدي الاقدام ، الافخاذ ، الكواحل . انها تمثال فروسي بلا حصان ، جبل من اللحم تكـور حتى صار بشكل بيضة ماموث . ومن قاعة رقص اللحم يصدح جسمها مغنيا كالحديد . يا فتاة احلامي اي قفص رائع صنعت ! اريد ان اعرف فقط ايـن مجثم اصابع قدمك الثلاثة المدببة الصغير ؟ المجثم الذي يترنح رائحا غاديا مارا بين القضبان النحاسية ؟ تقفين قرب النافذة ، ميتة ككناري ، اصابع قدميك متيبسة ومنقارك ازرق . لك صورة جانبية مرسومة بخط مـن ساطور لحم . فمك فوهة بركان محشوة بأوراق الخس . هل سبق لي ان حلمت انك يمكن ان تكوني فائقة الدفء والليونة ، دعيني انظر الى مخالبك الجميلـة التي تشبه مخالب ابن آوى ، دعيني اسمع ضجة نفسك الجاف الناعبـــة القـــذرة .

وأراقب من خلال بيوت العنكبوت الجداجد النبيهة، واوراق الصبار الشوكية الطويلة تنز حليبا وطباشير ، والراكبين بحقائب السرج الفارغة ، والقرابس تنتأ كسنامات الجمال . انها صحراء وطني الجرداء ، رجالها عجائز كئيبون، اعمدتهم الفقرية ملتوية ، اقدامهم منتعلة ناخس ومهماز . وفـوق ازهار الصبار تتدلى المدينة مقلوبة رأسا على عقب ، رجالها العجائز الناحلـــون يخرشون السموات بأحذيتهم ذوات المهامز . أتشبث بتعرجاتها المنتفخة ، بزواياها الصخرية ، بنهودها القوية الدولمنية ، بأظلاف حوافرها ، وذيلها ذو الشعر ، أضمها إليّ وسط الزبد الخانق للأودية الضيقـــة تحت سقيفات المراحيض المغلقة المحاطة بالرمال الذهبية بينما يمر الزمن ، وفي موجة الحزن الطاغية يملأ الرمل عظامي ببطء .

وثمة زوج من المقصات الكليلة الصدئة موضوعة على الطاولة المغطـــاة بالزنك قربنا . الذراع التي ترفعها موثوقة الى جانبها . وحركة ذراعهـــا الجامدة الواهنة تشبه صرخة النهار المكتومة الآجشة وهو ينصرم والحبـــل الذي يوثقنا مسربل بحبيبات الرمل . ويتجمع العرق عند سالفي ، يتكتـل هناك ويصدر صوتا كأنه تكات الساعة . الساعة تتعطل بفعل خطوط العرق العصبية . ويشق المقصان طريقهما الى الامام بمفصلين بطيئين . وتتسابق اعصابي على طول أسنان المشط ، اشواكي المدببـــة تنتصب ، وتتوهـج أوردتي ، هل كل انواع الآلام بليدة وغير محتملة كهذا ؟ وعلى حد المقص اشعر بحد النهار الكليل الصدىء وهو يأتي على نهايته ، بالحركة البطيئة المقيدة للجوع الذي أشبع ، بالمساحة النظيفة والسماء المرصّعة بالنجـوم بين ذراعيّ انسان ميكانيكي .

اقف وسط الصحراء انتظر القطار ، وفي قلبي جرس صغير زجاجي وتحت الجرس زهر الايدلفايس الابيض • كل اهتماماتي انهارت • حتى تحت الثلج اشعر بالبرعم الذي تهيئه الارض ليلا •

يجتاحني شعور غامض وانا استلقي في المقعد الجلد المرفه بأن الخط الذي اسافر على متنه هو خط الماني • اجلس قرب النافذة وانا اقرأ كتابا ، وأعي ان احدهم يقرأ عبر كتفي • انه كتابي انا وفيه فقرة تحيرني • الكلمات غير مفهومة • ننزل لحظة في محطة دارمستادت اثناء تبديل القاطرات • تنهض السقيفة الزجاجية حتى مستوى محور الدولاب المدعوم بعوارض سوداء مخرمة • وتشبه قسوة الزجاج الى حد كبير مظهر كتابي _ عندما يكون في حجري مفتوحا وقد بدت منه اضلاعه ، اشعر من قلبي بالايدلفايس وهو يزهر •

عندما تتمشى على الرصيف ليلا في المانيا يكون هناك دائما شخص مستعد ليشرح لك كل شيء • تلتئم الرؤوس المستديرة والرؤوس الطويلة وسط غيمة من البخار وتخلع جميع الدواليب وتركب من جديد • يبدو رنين اللغة اكثر نفاذا من اللغات الاخرى ، وكأنها غذاء لعقل ، اساسية ، مغذية ، شهية • الذرات الدبقة تنهمر وتتلاشى ببطء ، بعد الرحلة بأشهر عديدة ، كمدخن ينفث الدخان من منخريه بعد ان يشرب كأسا من الماء • وكلمة gut هي اطول كلمة باقية على الاطلاق • يقول احدهم ! Es war gut وتقرقر لفظته للـ gut في احشائي كطائر درّج سمين • الحق يقال ليس هناك ما يجاري ركوب القطار ليلا عندما يكون جميع السكان نياما وهم يفرغون في افواههم المفتوحة اللقم الريانة الدسمة لغتهم العصية على الاتقان • عندما ينام المرء يزدحم ذهنه بالحوادث ، يسافر العقل على شكل حشد غفير ، كذباب الصيف الذي يمتصه القطار طوال الطريق •

فجأة اصبح عند شاطىء البحر دون ان اذكر ان القطار توقف ولا اذكره وهو يغادر • بل ينساب على طول شاطىء المحيط كالشهاب • (١)

كل شيء قذر ، سيء ، رقيق ، كالكرتون • انه كوني ايلند العقل • الاكواخ الظريفة تنسف من اساسها ، والرفوف المملوءة بأواني الصيني واللعب محشوة بالتبن وساعات المنبه والمبصقات • فوق كل دكان تعلق ثلاث كرات وكل لعبة تدخل في تفاصيلها الكرة • اليهود يتجولون بمعاطف المطر واليابانيون يبتسمون ، الهواء مفعم بعبق البصل المفروم والنقانق تئز وهي تقلى • ويسمع اسم جابر ، جابر ، وفوق كل هذا يصدر صوت هسيس وانفجار متواصلان ، بهدير مكبوت عن الكسارين ، وصفير غدّي طويل متواصل ينشر ركاما دبقا فوق الكوخ القذر • وخلف واجهة الشارع الكرتونية

(١) كوني ايلند : هي مدينة ملاهي شهيرة جدا في مدينة نيويورك • ويقال انها تحري من المتع ما لا يكاد يحلم به الانسان . المترجم

بحرث الكسارون الليل بأسنان لامعة فضية ، الاسماك الصدفية ممددة على ظهورها تبخ الاوزون من فتحاتها الشرجية . في الليل المحيطي يبدو حاجز لسباق كلحية شتوية . كل شيء ينزلق ويتقوض ، كل شيء يتلألأ ، يتداعى ، ينوس ، يضحك بكبت .

اين اليوم الصيفي الدافىء الذي رأيت فيه الارض المفروشة بسجادة خضراء لاول مرة وهي تدور ورجال ونساء يتحركون كالنمرة ؟ اين تلك الموسيقى الناعمة المقرقرة التي سمعتها تنبع من جذور الارض الريانة ؟ أين ذهب اذا كان في كل مكان فخ ابواب وهياكل عظمية مكشرة ، عالم صار داخله خارجه وكل اللحم انسلخ ؟ اين سألقي رأسي ان لم يكن هناك الا دببة ومعاطف للمطر وصفارات مصنوعة من خشب الجوز واضلاع محطمة ؟ هل سأظل امشي على طول هذا الشارع الكرتوني الذي لا ينتهي ، هذا الكرتون الذي يمكنني ان افتح فيه ثقبا بضربة واحدة ، واستطيع ان اطيح به بنفخة واحدة ، وان اضرم فيه النار بعود ثقاب ؟ لقد بات العالم متاهة صوفية انشأتها عصبة من النجارين اثناء الليل كل شيء صار كذبا ، زيفا ، كرتونا .

امشي عى طول واجهة المحيط . الرمال نثرتها اسماك انسانية تنتظر احدهم اينزع عنها اصدافها . وفي غمرة الهدير والصخب يمرق ألمهم دون ان يلاحظه احد . الكسارون يضربونهم ، والاضواء تطرشهم ، والمد يغرقهم . يستلقون خلف الشارع الكرتوني في الليل ذي اللون العقيقي وينصتون الى ازيز النقانق المقلية . جابر ، جابر ، عطس وصفير ، كرات تتدحرج على طول القنوات الطويلة الناعمة الى الحفر الصغيرة المملوءة بالتحف الصغيرة : بأواني الصيني والمبصقا ت والمزهريات واللعب المحشوة . ويمسح اليابانيون ذوو المظهر الدهني الزهور الاصطناعية بخرق مبللة ، والارمن يفرمون البصل الى قطع صغيرة مجهرية ، والمقدونيون يرمون الوهن بأذرعهم الدبسية . وكل الرجال وامرأة وطفل يرتدي معطفا للمطر مصاب بالزائدة الانفية : والنزلة الصدرية ، وسكري البول ، والسعال الديكي ، والتهاب السحايا : وكل ما هو منتصب ، او ينزلق ، يتدحرج ، يسقط ، يتلولب ، ينقذف : يتمايل ، وينهار مصنوع من الجوز ومسامير الصوملة . ان فوضى العقل هي تخريب . قوة كرتونية مهيمنة .

وغط السمك الصدفي في النوم ، والنجوم تخبو ، وكل ما صنع من الماء صار الان يغفو في غطاء جيب الضبع . يبزغ الفجر كأنه سقف زجاجي عبر العالم . ويتهادى المحيط الزجاجي من اعماقه في نوم هادىء شفاف .

لا الوقت ليل ولا هو نهار . انه الفجر ينتقل بأمواج قصيرة مع رفرفات

اجنحة طائر النورس • والاصوات التي تظللني تكون ملطفة ، رانة ،مكبوتة، وكأن كدّ الانسان الشاق يُنفذ تحت الماء • اشعر بالمد ينحسر دون الخوف من ان يجرفني ، واسمع طرطشة الامواج ولا اخاف الغرق • امشي وسط خراب العالم وانقاضه ، لكن قدميّ لا تتأذيان • لا حد للسماء ، ولا تقسيمات في الارض او في البحر • اتحرك خلال بوابة تحكم المياه والفوهة بأقدام زلقة متقلقلة • لا اشم شيئا ، لا اسمع شيئا ، ولا اشعر بشيء • سواء كنت ممددا على ظهري او بطني ، على جنبي كالسرطان او اتحرك بحركة لولبية كالعصفور ، فكله نعيم ناعم وبلا تمييز •

ويثير نفس بلايموث الابيض الطباشيري العمود الفقري الجيولوجي ، ويتشبث طرف ذنبها التيني بالقارة المتصدعة ، ارض سمراء بشكل عصي على الكلام ورجال بشعور خضراء ، والصورة العتيقة يعاد خلقها ببياض حليبي ناعم • واهتزاز طرف الذيل في سكينة غير انسانية ، لا مبالاة بالامل او اليأس او بالكآبة الارض السمراء والأكسيد الاخضر ليسا من الهواء او السماء او الرؤية او اللمس • السلام والرصانة ، السكينة النائية الخفية للجروف الطباشيرية ، تقطر سما ، ، نفسا بغيضا ناقا شيطانيا معلقا فوق الارض كرأس ذيل تنين•اشعر بالمخالب الخفية التي تتشبث بالصخور• واخضرار الارض الثقيل الغائر لا يشبه خضرة العشب او الامل بل اخضرار الشجاعة الموحلة الوسخة التي لا تقهر • اشعر بقلنسوات الشهداء السمر ، بشعورهم المضفورة ، وبراثنهم الحادة مخبأة في أرديتهم الخشنة ، وصوف حقدهم الاسمر ، ومللهم ، وفراغهم • عندي اشتياق عظيم لهذه الارض التي تقع على طرف الارض ، لهذا الانتشار الشاذ للارض يتنعم بنور الشمس • ومن العين المصابة بضربة ذات الجفن الثقيل الذي لا يدل على جنس ما تنبثق سمكة صدفية مضللة سامة • فمها المتثائب مفتوح كرؤيا • وكأنما البحر وكل الذين غرقوا فيه ، وعظامهم وآمالهم ، وصروحهم الوهمية كانوا يشكلون الملغم الابيض المسمى انكلترا •

-يبحث عقلي عبثا عن ذكرى ما أقدم من أية ذكرى ، لان الاسطورة منقوشة على لوح من الحجر المدفون تحت جبل • وتحت البناء المرتفع تمتلىء النوافذ بالفطائر ، والنقانق ، وتدور السكة سريعا انها المشاعر القديمة ، الذكريات القديمة تغزوني من جديد • وكل ما له علاقة بالارصفة ومواقف التحميل والتفريغ ، بالمداخن ، والرافعات ، والمكابس ، والدواليب ، والجسور ، والمرابط ، وكل معدات السفر والجوع يكرر نفسه كالآلية العمياء• وعندما اصل إلى تقاطع الطرق يمتد الشارع الحي كخريطة مرصّعة بظلات الواجهات ودكاكين بيع الخمور • وحرارة الظهيرة تشرخ سطح الخريطة المتوهج • والشوارع تنعقد وتنحل •

وعند النقطة التي يُعيِّن فيها النجم الصدِيء حدود الماضي ينهض ركام ن الابنية المثلثية الحادة ذات الافواه السوداء والاسنان المكسورة ٠ وثمـــة ائحة أيدوفوره وايتير ، وفورمالدهايد ، وامونيا ، وقصدير جديد وقوالـب ديد رطب ٠ الابنية متهدلة والسقوف مهشمة ومتكسرة ٠ الهواء ثقيل جدا ذع وخانق ، حتى ان الابنية تعجز عن الحفاظ على اعتدالها ٠ المداخــل اصت حتى دون مستوى الشارع ٠ ثمة شيء ينق ويحمل طابع الضفادع ملأ الجو ، ويلف المناطق المجاورة بخار سام ، شديد الرطوبة ، وكأن حمـأة ستنقعية تمتد تحت الاسس نفسها ٠

عندما اصل الى بيت ابي اجده واقفا عند النافذة يحلق ، او ان لـم كن يحلق ، يشحذ موساه ٠ لم يخذلني مرة في حياته ، اما الان وعند احتياجي يه صار اصما ٠ والان المح الشفرة الصدئة التي يستخدمها ٠ وفي اوقـات صباح يقترن فنجان قهوتي دائما مع بريق شفرتـــه اللامعـــة ، القطعة فولاذية الالمانية البراقة الملقاة على جلد المشحذ الناعم الكليل ، وصوت ـفحتها على الجلد كالقاء قطعة زبد في القهوة ، والثلج المتراكم على افريز نافذة ، وهو يحيط كلماته بقطعة لباد ٠ والان صار الموسى كليل والثلج حول الى بقعة وحل ، والصقيع الماسي على زجاج النافذة يسيل بخط لـزج فيع يفوح رائحة كريهة من صغار الضفـــادع وغاز المستنقـع ٠ ويتوسل احضروا لي ديدانا ضخمة وسأحرث لكم سمك المنوّة » يا لأبي المسكين يائس ٠ وأتشبث بيدين فارغتين بالطاولة المكسورة ٠

ليلة قارسة البرد ٠ وأنا اتمشى ورأسي مخفض وتتسلل عاهرة مقتربة ني وتلف ذراعها حول ذراعي وتقودني الى فندق عليه علامة زرقاء مطلية علقة فوق الباب ٠ وفي الغرفة الكائنة في الطابق العلوي ألقي عليها نظرة ـويلة متفحصة ٠ انها شابة ، ورياضية الجسم ، وأفضل شيء فيها أنها اهلة ٠ انها لا تعرف أسم ملك واحد ٠ بل ولا تتكلم لغتها الاصلية ٠ وكل ا تقصه عليها تلعقه كأنه شحم حار ٠ وتمسح به نفسها ٠ ان العملية كلها شبه التدفئة ، تشبه ارتداء معطف من الشحم ردا للشتاء ، كما شرحته ي بلغتها البسيطة ٠ وبعد أن تستخلص كل الشحم من نقي عظامي ترد غطاء عليها ومن ثم تبدأ وبمرح مذهل في روعته بحركاتها البهلوانية ٠ غرفة تشبه عش عصفور طنّان ٠ وتتدحرج عارية كثمرة التوت وتتكوّر الكرة ، رأسها مدسوس بين ثدييها ، وذراعاها معقودان أمام انفراج اقيها ٠ تبدو كثمرة توت خضراء تكاد تنبثق منها حبة ٠

وأسمعها تقول فجأة بطريقتها الاميركية السخيفة : « أنظر ، يمكنني ن أفعل هذا ، ولكن لا أعرف ذلك ! » في حين أنها تقوم به ٠ ولكن تقـــوم اذا ؟ ولم العجب ، انها تبدأ بالربت على شفتيّ فرجها ، كعصفور

الطنّان تماما • لها رأس صغير فرويّ فيه عينان صريحتان كعيني كلب • كصورة الشيطان عندما كانت بلد البلاطيين في أوج ازدهارها • ان تنافرها يزلقني • وأجلس تحت المطرقة السقاطة : وكلما نظرت الى وجهها أرى شقا حديديا وخلفه رجل يضع قناعا حديديا يغمزني • يا له من مزاج مرعب لانه يغمز بعين عمياء ، عين عمياء ممزقة تهدّد بالتحول الى حالة تعتيم العدسة الكامل •

لو لم تكن ذراعاها وساقاها متشابكة معا ، ولو لم تكن ثعبانا زلقا ملتفا على نفسه متدليا من قناع ، لكان باستطاعتي ان اقسم انها زوجتي ألبرتا ، أو اذا لم تكن زوجتي ألبرتا فزوجة اخرى ، رغم أني أظن أنها ألبرتا • كنت اظن انني أعرف دائما ألبرتا من شقها ، لكن كل شق أجوّد من الاخر عندما يكون ملويّا على شكل عقدة وقد وضعت قناعا بين ساقيها وفوق كل بالوعة ثمة شعرية ، وفي كل قرنة توجد حبة بازلاء ، وخلف كل شق يوجد رجل يضع قناعا حديديا •

أجلس على كرسي قرب قوائم السرير الحديدية ، وحمّالتا بنطالي متدليتان ومطرقة سقاطة تدق قمة جمجمتي ، وأبدأ بالحلم بالنساء اللواتي أعرف • نساء تفتح فروجها بدقة لكي يضع طبيب اصبعا مطاطيا داخلهن ويمسح زوايا لهواتهن المظلمة • نساء بأغشية رقيقة اذا خرشت بابرة أصدرت صوتا شبيها بانهمار شلالات نياغارا في مثاناتهن الهابطة • نساء يجلسن ساعات يقلبن فروجهن الى الخارج ليخزوهم بابرة رتق • نساء شاذات تشبه الكلاب برؤوس فرويّة ويوجد دائما ساعة منبه أو أحجية للصور المقطوعة مخبأة في المكان الخاطىء ، وفي اللحظة الخاطئة تماما يرنّ المنبه عاليا ، وعندما تكون السماء ساطعة بأنوار الشموع الرومانية ، والشرارات الرطبة والسرطانات واسماك النجم ، وعندئذ فقط ودائما ودونما خطأ ينضح منشار مكسور ، يفرقع سلك ، ظفر في اصبع ، مشدّ نسوي بالعرق الكريه • نساء شاذات تشبه الكلاب تضع ياقات منشّاة ، والشفاه مذلاة ، والعيون تنتفض • راقصون شياطين من مقاطعة البلاطيين ذوو خلفيات ضخمة والباب منفرج دائما والمبصقة موجودة حيث يجب أن تكون علاّقة المظلة • زياضيو السيللوز ينفجرون ككسرات البتغ ـ بونغ عندما ينطلقون خلال أنوار الغاز • نساء غريبات الاطوار ـ وأنا أجلس دائما في كرسي قرب قوائم سرير حديدية أصابعهن من المهارة بحيث أن المطرقة تدق دائما على النقطة الميتة من جمجمتي وتصدع الصمغ الذي يصل بين الاجزاء • قحف الدماغ يشبه قطعة نقانق على نافذة يصدر منها بخار •

حين أمرّ بردهة الفندق أرى جمعا ملتفا حول البار • أدخل ، وفجأة أسمع طفلا يزعق من الالم • الطفل واقف على طاولة وسط الحشد • انه فتاة

في جانب رأسها شق • فوق صدغها تماما • الدم يفور من صدغها • يفور — لا اقول يجري على جانب وجهها • وكلما انفتح شق صدغها ارى شيئا ينشط في الداخل • يبدو كالصوص • واراقب عن قرب • وهذه المرة أراه رؤية واضحة • انه كوكو ! الناس يضحكون • في حين تعوي الطفلة من الالم •

وفي حجرة الانتظار أسمع المرضى يسعلون ويهرشون أقدامهم • أسمع صفحات المجلات وهي تغلق وعربة الحليب تدمدم على أحجار الكوبل في الخارج • زوجتي جالسة على مقعد افرادي أبيض ، ورأس الطفلة ملقى على صدري • والجرح في صدغها يخفق ، ويخفق وكأنه نبض يضرب فوق قلبي • الجراح يلبس رداءا ابيضا ؛ انه يتمشى رائحا غاديا ، ينفث دخانه • وبين الحين والاخر يقف أمام النوافذ ليتفقد حالة الطقس ؛ وأخيرا يغسل يديه ويرتدي قفاز المطاط • ويشعل بنديه والقفاز المعقم لهبا تحت الادوات الجراحية ، ثم ينظر الى ساعته بذهن شارد ويمسك براءة الصحة الموجودة على الطاولة بأطراف أصابعه • صارت الطفلة تئن الان وجسمها كله يرتعش من الالم • ثبتت ذراعيها وساقيها وانا انتظر ان الإدوات لتغلي •

وأخيرا صار الجراح مستعدا فيجلس على مقعد صغير وطوال الوقت ينتقي أداة دقيقة أطرافها ساخنة حتى الاحمرار ودون أي كلمة تحذير يقحمها داخل الجرح • وتطلق الطفلة صرخة رهيبة مروعة حتى أن زوجتي تنهار أرضا • ويقول الجراح الهادىء الرابط الجأش « لا تركز انتباهك عليها » وهو يدفع جسمها بعيدا بقدمه « تشجع الان ! » وبينما يغمس أداة اللفظة في المضاد الحيوي الذي يغلي يفرز موساه في الصدغ ويبقيه هناك حتى ينفجر اللهب داخله • ومن ثم اذ به فجأة ، وبنفس السرعة الشيطانية ، يسحب الاداة التي يتصل بها ، وبواسطة عين صغيرة ، خيط طويل ابيض يتحول بالتدريج الى نسيج ناعم أحمر اللون وثم الى علكة وأيضا الى قشا، وأخيرا الى نشارة خشب • وحين تتناثر اخر قطعة من النشارة اذ بالجرح يلتئم نظيفا متماسكا دون أن يخلف مكانه حتى ولا أثر لندبة • وتنظر الطفلة الي وعلى فمها ابتسامة هادئة ومن ثم تنزلق من حضني ، وتمشي بخطوات ثابتة حتى زاوية الغرفة وتجلس هناك لتلعب •

ويقول الجراح : « لقد كان شيئا رائعا ، رائعا تماما ! » •

وأهتف « أوه ، إكان حقا ؟ » وأقفز كالمهووس وأخبطه أرضا عن مقعده وأغرز ركبتي في صدره بقسوة وأقبض على أقرب أداة الي وأحفره بها ، وأنقض عليه كالشيطان • أحفر عينيه • وأثقب طبلة أذنيه وأشق لسانه ، وأكسر قصبته الهوائية ، وأفطس أنفه • أمزق الثياب عنه وأحرق صدره حتى ينبعث منه الدخان ، وفي الوقت الذي لا يزال فيه لحمه يدمي

ويرتعش من الحديد الحامي اسلخ الجلد الخارجي واصب فيه حامض الآزوت ـ حتى أسمع قلبه ورئتيه يئزان • والى أن أكاد أقع صريعا من الدخان المنبعث •

في تلك الاثناء تصفق الطفلة بيديها مرحا • وأنهض لابحث عن مطرقة خشبية فأرى زوجتي جالسة عند الزاوية الاخرى • ويبدو عليها كأنما شلّت من الرعب • ولا يصدر عنها كلام بل همس ـ « عفريت ! عفريت»! وأهرع الى الطابق السفلي بحثا عن المطرقة •

وأميّز في الظلام شكلا يقف الى جانب البيانو الصغير العاجي • المصباح يخفت الا أن الضوء المنبعث منه كاف ليلقي هالة على رأس الرجل • الرجل يقرأ بصوت عال بصوت رتيب من كتاب حديدي هائل الحجم • انه يقرأ كحاخام يرتل صلواته • رأسه مرفوع عاليا في نشوة ، وكأنه مفصول طوال الوقت • انه يبدو كمصباح شارع مكسور يتوهج وسط ضباب كثيف •

وتزداد حلكة الظلام ومعها يزداد ترتيله رتابة على رتابة • وأخيرا لا أرى الا هالة تحيط برأسه وحتى هذه الهالة تختفي أيضا وأدرك أنني صرت أعمى • كل هذا يبدو كأنه غور تنهض منه كل حياتي الماضية ، ليس فقط حياتي الشخصية الماضية ، بل وماضي الجنس البشري كله الذي أجتازه وأنا أمتطي ظهر سلحفاة ضخمة • اننا نسافر مع الارض بخطوة حلزون ونصل الى حدود شكلها البيضوي وثم نترنح بسرعة بمشية عجيبة ، مائلة عائدين خلال جميع المنازل الفارغة في دائرة البروج • اننا نرى أشكال عالم الحيوان الغريبة الشبحية ، السلالات الضائعة التي ارتقت الى قمة السلم فقط لترمي نفسها الى قاع المحيط • وخاصة العصفور الناعم الاحمر الملتهب ريشه • العصفور الاحمر ينطلق مسرعا كالسهم متجها دائما نحو الشمال ؛ وبينما يرفرف شاقا طريقه شمالا عبر جثث الموتى يجري في أعقابه سرب من ديدان الارض ، حشد متلاطم يخفي نور الشمس •

وكارتفاع الحجب يرفع الظلام ببطء وأتبين الرسم الجانبي لرجل يقف قرب البيانو يحمل كتابا حديديا ضخما بين يديه ، رأسه مرفوع بشموخ والصوت المرهق الرتيب يرتل ابتهالات الموتى • وخلال لحظة يبدأ بالتمشي ذهابا وايابا بطريقة آلية نشطة وكأنه يتمرن بذهن شارد • تتبع تحركاته ايقاعا ذاتيا مهتزا تثير مشاهدته السخط • انه يتصرف كحيوان مختبر أزيح منه جزء من العقل • وكلما اقترب من البيانو يوقع عدة نغمات متآلفة لاعلى التعيين ـ بلينك ، بلانك ، بلونك ! ومعها يتمتم بشيء تحت أسنانه • ويتجه بنشاط نحو الجدار الشرقي وهو يتمتم ـ «نظرية التهوية» ؛ ويتجه بنشاط نحو الجدار الغربي ويغمغم ـ « نظرية الاضداد » وينعرج نحو

الشمال الغربي ويتمتم ـ « نظرية مكيفة ورطبة » وهلم جرا ٠ انه يتحرك كمركب رباعي الصواري يواجه عاصفة ، ذراعاه متدليان بارتخاء ، ورأسه منحن قليلا على أحد جنبيه ٠ حركة نشطة لا تكلّ تشبه حركة مكوك يمر فوق نول ٠ وفجأة يتمتم وهو يتجه رأسا شمالا ـ « z من أجلَ زيبرا ٠٠٠ زب ، زوت ، زخاريا ٠٠٠ لا شيء يدل على أن b تدل على Bretzels ٠٠٠ »

وأقلب صفحات الكتاب الحديدي فأرى أنه عبارة عن مجموعة أشعار من القرون الوسطى تتحدث عن المومياءات ، وكل قصيدة تتألف من وصف طريقة لمعالجة امراض الجلد ٠ انه يوميات عن الوباء العظيم كتبه راهب يهودي ٠ انه نوع من تسجيل دقيق لتاريخ أمراض الجلد يغنيها المطربون الجوالون (troubadours) ٠ كتب الكتاب على شكل نوتة موسيقية تمثل جميع الوحوش التي تنذر بالشر أو لها تصرفات مرعبة كالخـــلد ، والعلجوم ، وعطاءة البازيليست ، والانقليس ، والخنفسة ، والوطواط ، والسلحفاة ، والفأر الابيض ٠ كل قصيدة تحوي تعويذة لتخليص الممسوس من الشياطين التي تغزو طبقات ما تحت الجلد ٠

وتتجول عيني متنقلة من الصفحة الموسيقية الى مطاردة الذئب التي تجري خارج الابواب ٠ الارض مغطاة بالثلوج وفي الحقل البيضوي الكائن قرب جدران القلعة ثمة فارســان مسلحان برمحــين طويلين يرعبان الذئب حتى الموت ٠ وبفضل النعمة الالهية المعجزة والبراعة أمكن حصَر الذئب تدريجيًا الى وضع الضربة القاضية ٠ ويجتاحني شعور حسي وأنا أراقب لعبة الموت التي طالت ٠ وعندما يكاد الرمح أن يقذف ينضم الحصان الى راكبه بمرونة مؤلمة : وبحركة واحدة متواقتة يدور الذئب والحصان والراكب حول محــور الموت وعندما يطير الرمح مخترقا جسد الذئب تميد الارض برفق الى أعلى ، ويميل خط الافق قليلا ، وتصير السماء زرقاء كحد سكين ٠

وأمشي مخترقا صفا من الاشجار حتى أصل الى الشوارع الغائصة التي تؤدي الى المدينة ٠ البيوت محاصرة بمداخن طويلة سوداء ينفث منها الدخان الكبريتي باستمرار ٠ وأخيرا أصل الى المصنع الصندوقي الشكل وألمح من نافذته المقعدين جالسين في صف في الباحة ٠ ليس منهم من له قدمين ، وقلة منهم له ذراعان ، وجوههم مغطاة بالسخام ٠ وعلى صدر كل منهم علّقت الاوسمـــة ٠

وأتبين ببطء ووسط الرعب والذهول أن سيلا متواصلا من الاكفـــان يصب من الانبوب المائل المنحدر من جدار المصنع الى الســـاحة ٠ وأثناء سقوطهم يتقدم العامل المشرف على ذلك ويقف على منبره المكسور ويظل هناك لحظة ليعدّل من وضع الحمل على ظهره ويمشي بخطى متثاقلة وهو

يرزح تحت ثقل كفنه ويستمر هذا بلا توقف ، بلا أقل انقطاع ، بلا أدنى صوت • وجهي يتبخر عرقا • أود لو ان اركض لكن قدمي مزروعتان مكانهما • وربما لم يكن لي قدمان • ان رعبي عظيم حتى اني اخاف النظر الى اسفل • أتشبث باطار النافذة وبدون أن أجرؤ على النظر الى أسفل أرفع قدمي بحذر وخوف حتى يصبح بامكاني لمس كاحلي بيدي وأكرر التجربة مع القدم الاخرى • ثم ، وفي غمرة الرعب ، أنظر حولي بسرعة بحثا عن مخرج • الغرفة التي أقف فيها مزدحمة بصناديق التعبئة الفارغة ، وهناك مسامير ومطارق مبعثرة في كل مكان • وأشق طريقي بحذر بين الصناديق الفارغة باحثا عن الباب • وحالما أجده تتعثر قدمي بصندوق فارغ وأنظر الى أسفل لاكتشف أنه - ليس فارغا ! وبسرعة أرمي نظرة على بقية الصناديق • ولا واحد منها فارغ ! في كل منها هيكل عظمي محاط بالنشارة ، وأهرع متنقلا من رواق الى اخر أبحث في رعب عن سلم • أطير متنقلا عبر القاعات لأشم فيضا من نتانة التحنيط تنبعث من الابواب المفتوحة • وأصل أخيرا الى السلّم وأثب هابطا الدرج لارى يدا مطلية بالميناء عند المنبسط الاسفل تشير الى - مستودع الجثث •

الوقت ليل وأنا في طريقي الى البيت • طريقي يقع داخل حديقة برية كالتي كنت اتعثر فيها في الظلام عندما تكون عيناي مغمضتان ولا اسمع الا تنفس الجدران • لدي احساس بأني فوق جزيرة محاطة بالخلجان الصغيرة الصخرية والثغور • هناك نفس الجسور بمصابيحها الورقية ، والمقاعد الصدئة الموزعة على طول الممرات المبلطة ، وهياكل الباغودا التي يباع فيها الملبس ، والـ Skup البراقة ، والمظلات الشمسية ، والجروف الصخرية التي تطل على الخليج والاغلفة الصينية الرقيقة التي أخفيت فيها المفرقعات النارية • كل شيء على ما كان عليه تماما ، حتى ضجيج الدويخة • الفرق الوحيد هو ان الوقت الان هو الشتاء • منتصف الشتاء وكل الطرق مغطاة بالثلوج ، ثلج عميق يكاد يسد الدروب •

عند أعلى نقطة من احد الجسور اليابانية المنحنية اقف لحظة ، اميل على السور ململما افكاري • جميع الطرق ممتدة بوضوح امامي ، تجري بخطوط متوازية • انني اشعر في هذه الحديقة المشجرة والتي اعرفها حق المعرفة بمنتهى الامان ، استطيع ان اقف هنا على هذا الجسر الى الابد ، واثقا من قدري • وبالكاد تكون هناك اية ضرورة لمتابعة البقية الباقية من الطريق فأنا الان اقف عند عتبة مملكتي ، كما كانت ، وقرب حدوث هذا يسمرني مكاني • كم اعرف هذا الجسر الصغير ، وكتلته الخشبية ، والسيل الذي يهدر من تحتى ! يمكنني ان اقف هنا للابد ضائعا في أمان لا حدود له ، اتهادى غارقا في غرغرة الجدول المهدهدة • وفوق الحجارة المغطاة بالطحلب

يدوم الجدول باستمرار . جدول من الثلج الذائب بطيئا متكاسلا في الاعلى وسريعا في الاسفل . تحت الجسر وضوح ناصع كالثلج . شديد الوضوح الى درجة انه يمكنني قياس عمقه بعيني المجردة . واضح كالثلج حتى العنق .

والان ، ومن قلب الغابة المجدولة بالظلام ، وسط اشجار السرو والاشجار الدائمة الخضرة ، خرج شبحان يمسك احدهما بيد الاخر ، حركتهما بطيئة واهنة . شبحان يرتديان ملابس السهرة – المرأة بثوب ذي ياقة منخفضة ، والرجل بأزرار قميصه البراقة . ينتقلان فوق الثلج بخطوات خفيفة ، قدما المرأة ناعمتان/جافتان ، وذراعاها عاريتان . لا يسمع صوت تقصف الثلج ، ولا هبوب الريح . لا يوجد الا نور يومض كالحلي ونهيرات الثلج الذائب في الليل . نهيرات من الثلج الناعم تنزلق تحت الاشجار الدائمة الخضرة . لا صوت لفك يسحق ، لا عواء ذئب . بل مزيد من النهيرات في ضوء القمر المثلج ، وهدير المياه المتدفقة البيضاء وتويجات تراكب الجسر ، والجزيرة تطفو مبتعدة بانسياب مستمر ، صخورها متشابكة بواسطة خصلات من الشعر ، ووديانها الصغيرة وخلجانها متلألئة في سوادها وسط وميض النجوم الفضي .

ويحثان خطوهما في السيل الشبحي ، قدما نحو اسفل الوادي ، والمياه ذات السبلات البيض داخل اعماق التيار ذي النقاء الثلجي يمشيان،بظهرهما المكشوف وأزرار قميصه البراقة ، ومن بعيد يسمع رنين الستائر الزجاجية الحزين وهي تصطدم بمسننات الارجوحة المعدنية . وينهمر الماء على شكل غلالة زجاجية رقيقة بين روابي الضفتين الانسيابية البيضاء،انه يجري تحت مستوى الركب ، حاملا معه القدمين المبتورتين كقوائم محطمة امام جلمود . وتنزلقان الى الامام على جدعتيهما المتجمدتين ، جناحاها الوطواطيان منشوران ، ورداءاهما ملصقان بأعضائهما والماء دائما يرتفع اكثر فأكثر والهواء يزداد برودة ، والثلج يومض كالماس مغبر . ومن فوق اشجار السرو ينهمر لون الاخضر الكليل المعدني ، ينهمر كظل فوق الضفتين يلطخ اعماق التيار الثلجية الرقراقة . المرأة تجلس كملاك فوق نهر من الجليد ، جناحاها منشوران ، وشعرها منتثر الى الخلف بتموجات زجاجية متيبسة .

وفجأة اذا بالتيار يتسارع ، كأنه زجاج لدن يُسخّن تحت لهب ازرق ، حتى يصبح كألسنة من نار . وعلى طول الشارع المضرم بالالوان يتحرك حشد كثيف استوائي . انه شارع الاحزان المبكرة حيث تتطاول الشقق كعربات سكة الحديد وجميع البيوت مطوقة برزات حديدية . شارع ينحدر بلطف نحو الشمس ويتجاوزها كأنه سهم يتيه في الفضاء . والمكان الذي كان فيما مضى ينعطف عنده مسببًا ضجة صارّة كئيبة بأسطحته الصلبة الفخمة والجدران الفارغة الميتة اصبح الان كالتحويلة المفتوحة ، كالميزاب

يصب في مكانه ، والبيوت تقع في صف منتظم ، والاشجار تزهر • لا الزمن يزعجني الان ولا الهدف • انني اتحرك داخل دندنة ذهبية خلال عصير مركز من الاجسام الدافئة الكسلى •

أمشي كابن مبذر في حرية ذهبية في شارع شبابي • لا انا محتار ولا خائب الامل • تجولت عائدا بدءا من حدود الاقاصي الستة متخذا دروبا نائية صوب المحور الذي يتغير عنده كل شيء ويتحول ، انني حمل دائما يغير جلده • ترى متى عويت من الالم فوق قمم الجبال ، متى اختنقت بالقلي في الوديان البيضاء القائظة ، متى تشققت قدماي من الصخر والاصداف وانا اخوض في التيارات الكسلى ، متى لعقت العرق المالح عن حقول الليمون او استقيت في أتن مشتعلة لأشوى ، متى كان كل هذا الذي لم أنسه ابدا والذي لم يعد له وجود الان ؟

هل سلخت جلدي عندما قادوا عربة الموتى في الشارع البارد الجنائزي وقد حييتهم بفرح ؟ كنت حملا وحولوني الى نمر مخطط • ولدت في دغل مكشوف وانا ملفع بغطاء صوفي ابيض ناعم • بعد ان بقيت فترة قصيرة ارعى في سلام شعرت بمخلب يوضع علي • ووسط لهب انقضاء النهار الرطب الحار سمعت صوت تنفس خلف مصراعي النافذة • ومررت بكل المنازل وانا اتمشى ببطء منصتا الى خفق الدم الكثيف • ومن ثم في احدى الليالي استيقظت وانا مستلق على مقعد قاس في حديقة متجمدة في الجنوب • وسمعت صفير القطار الباكي ، ورأيت الطرقات الرملية البيضاء تلمع كآثار العقل •

اذا صدف وتجولت في طول العالم وعرضه دون فرح او ألم ذلك لانهم في تالاهاسي انتزعوا احشائي • في زاوية تقع قبالة سور مكسور وصلوا الى داخلي بمخالبهم القذرة وبسكاكينهم القذرة بتروا كل ما يخصني ، كل ما كان مقدسا ، خصوصيا ، تابو • في تالاهاسي انتزعوا احشائي ، وجروني حول المدينة وخططوني كالنمر • وفي احد الايام رحت اصفر بطريقتي الصحيحة • في احد الايام تجولت في الشوارع انصت الى الدم ينبض في الضوء الذي يرشح من المصاريع • والان في داخلي هدير ككرنفال في اوجه • جوانبي تتفجر بملايين الانغام المنبعثة من ارغن يدوي • امشي في شارع الاحزان المبكرة مع كرنفال يضج داخلي بأقصى ما يمكنه • أواصل فتح طريقي وانا انثر الالحان التي تعلمتها • والفساد السعيد يراوح من طرف الى اخر من الشارع • شلة من اللحم البشري تتمايل كحبل ثقيل •

وقرب الحدائق العالية اللؤلوبية من الكزينو حيث تتفجر الشرانق ترتقي امرأة على مهل الممر المزهر وتتوقف لحظة لتزن ثقل اثرها الجنسي علي •

ويتمايل رأسي آليا من جنب الى جنب ، فثمة جرس ابله محشور في برجه ٠ وبينما هي تبتعد يبدأ شعوري بكلماتها يكشف نفسه ٠ قالت « المقبــرة ، هل رأيت ماذا فعلوا بالمقبرة ؟ » امشي الهوينة في معصرة الخمر الدافئة ، كل الستائر مرفوعة ، والاروقة تعج بالاطفال ، واظل افكر بكلماتها ٠ واتابع التمشي بخيال رشيق زنجي ، عاري العنق ، ممسوح القدم وبأصابع قـدم عريضة ، وكيس صفن مشدود ٠ وثمة عبق جنوبي دافيء يحوطني ، وارتياح طيب يحوم بجناحي نسر ٠

ان ما قاموا بـه لأجل الشارع هو نفس ما فعله يوسف من أجل مصر ٠ ولكن ماذا فعلوا هم ؟ لم يعد هناك « انتم » او « هم » ٠ انها ارض كيزان الذرة الذهبية الناضجة ، ارض الهنود الحمر والفتيان السود ٠ لا اعرف من هم او من كانوا ٠ اعرف فقط انهم استولوا على الارض وجعلوها تبتسم ، وانهم استولوا على المقبرة وجعلوها حقلا خصبا يئن ٠ ازيحت منها كـل الاحجار ، واختفت منها أكاليل الزهور والصلبان ٠ والان تنطرح بالقرب من بيتي بقعة داما مثقلة تئن من كثرة ما علفـت ، والتربــة الطفليــة غنية وسوداء ، والابغال القوية الصبورة تغرز حوافرها النحيلة في التربـة الرطبة التي يقطعها المحراث كأنها قطعة جبن ٠ المقبرة كلها تغني مرحة بغلتها الدسمة الغنية ٠ تغني بين سنابل القمــح ، وكيزان الــذرة والشوفان ، والجاودار ، والشعير ٠ المقبرة تعج بأشياء تؤكــل والابغال تهز اذيالها ، والفتيان السود الضخام يدنون ويغنون والعرق يسيل من اطرافهم ٠

والشارع الان يستمر في الحياة خارج نطاق المقبرة ٠ يوجد ما يكفــي الجميع ، بل ويزيد ٠ وفائض العلف ينهمر كالسيل ، كالغنــاء والرقص ، والفسق ، والطيش ٠ من كــان يحلــم ان هؤلاء البهائــم الموتــى المساكين المسحوقي الصدور الذين يتعفنون تحــت البلاطات الحجرية يضمون هذه الحكمة المخصبة ؟ من كان يظن ان هؤلاء اللوثريين الناتئي العظام ، هؤلاء البريسبتريون ذوو الاطراف النحيلة ، لا يزال على عظامهم كل هذا المقـدار الدسم من اللحم ، وان باستطاعتهم ان يقدموا محصولا رائعا من التدمير كهذا ، مع كل هذه الحشود من الديدان ؟ وحتى نقوش الاضرحة الجافة التي ينقشها الحجارون قد قدمت قوتها المخصبة ٠ وهناك تحــت سطح التربة الباردة يعمل هؤلاء الغيلان قوتهم ومجدهم بهدوء ٠ لم أر دهري في اي بقعة من طول العالم وعرضه مقبرة مزدهرة كهذه ٠ ولا اغنى واكثر فعالية مــن هذا السماد ٠ يا شارع الاحزان المبكرة ، انني اضمك بين اضلعي ! لم يعـد هناك وجوه بيضاء شاحبة ، لا أدمغة بتهوفنية ، لا عظام متقاطعة ، لا اطراف نحيلة ٠ لا ارى الا الذرة وكيزانها ، والقضبان الذهبية والليلك ، ارى المعزقة المشتركة وفي اثرها البغل ، بأقدامه المفلطحــة العريضة وفلقتي حافريه

المفتوحتين وتربة الارض الغنية الحريرية وهي تنقلب لتغطي ما بين حافريه . اري مناديل حمراء قمصانا بلون الازرق الفاتح وقبعات سومبريرو عريضة تلمع من العرق . اسمع الذباب يطن بالاضافة لطنين اصوات بليدة . الريح تهمهم بلا مبالاة ، بمرح صاخب ، تهمهم الريح من الحشرات واجنحتها المغبرة تنشر غبار الطلع والفسق . لا اسمع اية اجراس ، ولا صفير ، ولا اجراس كهربائية ، ولا صرير كوابح : بل اسمع طرق المعزقة وصوت ماء يقطر ، وضجيج الكد الجحيمي الهادىء . اسمع الغيتار والهارمونيكا ، صوت تمتم ناعم ، ربت اقدام ترتدي حذاءأمنزليا . اسمع ستائر تخفض ونهيق حمار غارق في علفه .

لم يعد ثمة وجوه بيضاء شاحبة ، شكرا لليسوع ! ارى حمالا هنديا ، والفتى الاسود ، وفتاة من الهنود الحمر . ارى ظلالا بلون الشوكولاة والقرفة أرى زيتونا من شواطىء المتوسط ، وذهبا هاوابيا اسمر مصفر ، أرى كل ظل نقي وكل ظل متقاطع ، ولكن ليس ابيضا . لقد اختفت الجمجمة والعظام المتصالبة مع شواهد القبور ، وعظام العرق الابيض البيضاء قد سلمت محصولها . ارى ان كل ما له علاقة باسمها وذاكرتها قد اختفى ، وهذا بالذات ، هذا ما يشيع بي الفرح الجامح . اتمشى بلا هدف وسط طنين الحقل المكشوف المجنون منحدرا نحو الاخاديد الغائرة الرطبة التي تشقها الحوافر الرنانة العطشى ، حيث كانت الارض مرة مغطاة بأكمات من العشب المجنون القصير . وانثر طفل الملفوف الرطيب يمينا ويسارا ، والطنين المنعصر تحت وطأة الدواليب ، والاوراق الخضراء العريضة ، والتوت البري المسحوق وعصارة كعكة الزيتون . وفوق ديدان الموتى السمينة أمشي مشية التبريك وانا ادحرجها فوق العشب . اترنح من جنب الى اخر كبحار مخمور ، مبلل القدمين ، جاف اليدين . أمد نظري خلال سنابل القمح نحو كتل السحاب الغبارية ، وتسافر عيناي على طول النهار ، وعلى قوارب الدهر ، وحركة شراعها وساريتها البطيئة . ارى الشمس تقذف اشعتها الفسيحة ، وتغوص في حضن النهر بلطف . وعلى الطرف النائي تقف اعمدة اكواخ الويغوام المدببة ، والتفافة الدخان الكسلى . أرى فؤوس التوماهوك تنطلق شاقة الهواء استجابة لمسمع صيحات سفك الدماء المعروفة . ارى وجوها ، وخرزات براقة ، ورقصة المقسين المتهادية ، وحلمات طويلة مفلطحة وطفل من الهنود الحمر له ضفائر .

اري ديلاويرو لاكاوانا ، ومونونغهالا ، والموهوك ، والسينانودوح ، والناراغانست ، والتسكاغي والاوسكالوزا ، والكالامازو ، والسيمينول والبوني ، والتشيروكي والمانيتو العظيم ، والبلاك فيت ، ومدى النافاجو كانها سحابة هائلة حمراء ، كعمود من النار ، انها رؤى الروعة المحرمة

رضنا تمر أمام عيني • لا ارى ايا من اللاتفايـــين ، او الكرواتيـــيّن ، او لفنلنديين ، او الدانماركيين ، او السويديين ، لا Micks ، لا مهاجريـــن يطاليين ، ولا صينيين ، لا بولنديين ، لا اشباه الضفادع ، لا فاسقين ولا Kikes • ارى يهودا جالسين في اعشاشهم الغرابية ، وجوههـــم محمصة يابسة كالجلد المدبوغ ، جماجمهم ذابلة وخالية من العظام •

ومن جديد تلمع فؤوس التوماهوك ، وتتطاير فروات الـرؤوس ، ومـن حوض النهر تتدحرج خارجا غيمة براقة متلاطمة من الدم • ومن منحدرات لجبال ، ومن الكهوف العظيمة • ومن المستنقعات والسبخات يتدفق فيض عارم من الرجال الملطخين بالدماء • من السييراس وحتى الابالاشيين تتصاعد بخرة دماء المغدورين من الارض • فروة رأسي مسلوخة عني ،واللحم الرمادي معلق فوق أذني مزقا ، قدماي محروقتان تماما ، جوانبي تخترقها الاسهم • ستلقي في قلم حبر مغروز في سور مكسور واحشائي الـــى جانبي ، كلها متداخلة وتلطخ بالدم صدغي الابيض الجميل المطوط جلدا وعضلا • الريح تدوم في معيي المستقيم المتقطع تعوي كستين من المجذومين البيض • وثمة هب ابيض ، وفيض من الثلج الازرق ، ورذاذ مـن ضـوء مشعـل تدوم في حشائي الفارغة • ذراعاي منزوعـان من تجويفهما • وجسمي قبر تلغ فيه لغيلان • انني ملآن بأحجار كريمة خام تنزف بريقا ثلجيا • وتخترق الشمس جراحي كألف رمح مدبب ، وتلتهب الاحجار الكريمة ، واحشائي تصرخ • لا علم ان كان الوقت ليلا ام نهارا ، وخيمة العالم تتقوض ككيس غاز • ووسط هيب الدم اشعر بلمسة ملقط باردة : ويجرني في مجرى النهر الضيق ، وانا أعمى وعاجز ، اختنق ، ألهث ، اصرخ وَهَناً ، واسمع عن بعد انهمار الماء لمثلج ، وعواء ابناء آوى من تحت المروج الخضر ، وفي قلب الغابة الخضراء لمظلمة تنبثق بقعة من الضوء ، ضوء نضر بروسي يلون الثلج واعماق التيار لمثلجة • انها قرقرة خانقة سارة ، ضجيج هادىء كالذي يصدر عـن ملاك فارش جناحيه يطفو بلا ارجل تحت الجسر •

المزاريب مسدودة بالثلج • انه الشتاء والشمس ترسل لظاها كوميض لظهيرة اللامع المنخفض • أمشي في الشارع وأمـــر بالمنـــازل • لساعـــة او ساعتين ، والشمس تبقى مكانها ، ويتحول كل شيء الى ماء ، كـل شيء يتدفق ، يسيل ، يقرقر • وبين الحاجزين الحجريين وتخوم الثلج ينبثق سيل من الماء ذي لون ازرق شفاف • في داخلي طوفان يسد ممرات عروقي الضيقة • في داخلي تيار أزرق شفاف يتجول متنقلا من إسفل قدمي وحتى ناصيتي • نني ذائب تماما ، مختنق بالبهجة الثلجيّة الزرقة •

أمشي في الشارع مارا بالبيوت ، والبهجة الثلجيّة الزرقة في عروقـــي لضيقة المسدودة • ثلوج الشتاء تذوب ، والقنوات صارت تطوف • ذهـــب

الحزن والفرح ايضا ذاب ، وصار يسيل ويتدفـــق في المصارف • وفجأة تبدأ الاجراس بالقرع ، اجراس هاتجة جنائزية ذات ألسنة فاحشة ، وذات ألسنة جامحة حديدية تهشم نزيف العروق الزجاجي • ووسط الثلج الذائب ثمـــة مذبحة تمارس حكمها • احصنة صينية قصيرة معلقة من نواصيها ، وحشرات طويلة لها مفاصل دقيقة وفكوك سفلى خضراء اللون • وامام كل بيت سور حديدي مسربل بالازهار الزرق •

في شارع الاحزان المبكرة تمشي الحيزبون الام تطارد الريح ، أشرعتها الفسيحة منشورة ، وثوبها منتفخ بالجماجم • ونرتعب ونقضي الليل هاربين، نطارد ألبوماً اخضر ، وزخرفة ساقيه الاماميتين ، وحاجبه الناتىء • ومــن الشرفات العفنة يُسمَع هسيس الافاعي التي تتلوى في الحقيبة ، والحبــل مربوط ، والاحشاء معقودة.وازهار زرقاء منقطـــة كاللبوءات ، مسحوقة ، ممصوصة الدماء ، والارض لطخة نضرة ، ذهب ، نقـــي عظام.غبار براق كالعظام ، وثلاثة اجنحة محلقة واللحن العسكري او الحصان الابيض ، والعيون النشادريـــة •

الثلج الذائب يذوب نحو الاعمق ، والحديد يصدأ ، والاوراق تزهــر • وعند الزاوية ، وتحت المصعد يقف رجل يعتمر قبعة مضغوطة ، رداءا من الصوف الازرق وطماقا من الكتان ، وشاربه مقصوص بدقة • ويدار المفتاح ويسيل عصير التبغ كله ، والليمون الذهبي ، وانياب الفيل ، والشمعدانات• مويش بيبيك ، تاجر الليمون ، محمل بالحمام الذي يبيض بيضا قرمزيا في جيب سترته واربطة عنق قرمزية وبطيخ وسبانخ وسيقان نباتات قصيرة ليفية ، ملطخة بالقطران • ويتعالى صفير الازدراء ، ولفيف من العاهـرات مضمخات بالليزول •والنشادر وبقع الكافور ، واكواخ الميكا الصغيرة ، وقشور الفول السوداني المثلثة والمتغضنة • كلها تمشي مشيـة النصر مـع نسيم الصباح • ويأتي نور الصبح على شكل تغضنات ، وزجاج النافذة مخطط ، الاغطية ممزقة والمشمع يذبل • يمشي رجل له شعر منتصب ، لا يركض ، ولا يتنفس ، رجل له دوارة ريح تتغير زواياها بحدة ثم تثبت • انه رجل ليست لديه اسئلة بل يتابع سيره في ليل حالك كل نجومه واقعة في المسيرة وبسوالف غزيـرةمشذبة• ويقضي الليل الحزين Gowselling in the grummels مع اشراك تحـول اليسار الى يمين ، والظهيرة الجاسمـة تسطع على المحيط الشتوي ، والظهيرة الجاسمة على كل جانب من السطح وعاليـا على متــن النجوم • ها هي الدوارة من جديد مزودة بمجذافين طويلين آتية عبر ثغـور الميناء وجميع الاصوات خافتة • الليل هادىء في الجهات الاربع ، كالاعصار • هادىء مع كراميلة محشية فيها قطعة نقدية • الاخت مونيكا تعزف علـــى الغيتار وقميصها مفتوح والاربطة سائبة ، وفي كل اذن شق عريض • الاخت

مونيكا مخططة بالجير ، بطلاء صمغي ، عيناهـــا يعلوهما عفـن فطري ، متصدعتان ، عفنتان ، Crapped ، مزودتان بكوى لاطلاق النار .

ويتسع شارع الاحزان المبكرة،والشفاه الزرق تنتحب ، وطائر البطريق يحث طريقه طائرا عنقه الملطخ بالدم مفصول عنـــه ، اسنانه متفرقـة . والرجل ذو القبعة البولر يطقطق ساقه اليسرى ، والى اليمين واسفل قليـلا ثمة ثلمان ، تحت شفير كل مركب ، والعلم الكوبـــي موصول بالمعكرونـــة والبرتقال المزيف ، وأزهار مغنوليا برية وسعف غضة من النخيل المروحـــي ممزوجة مع الطباشير واللعاب الاخضر . وتحت السرير الفضي يوجـد مزهرية من ازهار الغيرانيوم ، وثوبان للصباح وثلاثة للمساء . وقنادس تهدهم بحثا عن دم . ويأتي الدم بدفقات بيضاء ، دفقات بيضاء خناقة من الطمي مملوءة بالاسنان المكسورة ، وسائل صمغي وعظام نخرة . الارض زلقة مـــن كثرة الذهاب والمجـيء ، والمقصات اللامعة ، والسكاكين الطويلة والملاقط الحـارة والبـــاردة .

والى الخارج في الثلج الذائب تنفلت الحيوانات المحنطة ، أولا تخـرج حمير الوحش بألواحها الخشبية المنمقة البيضاء ، وبعدها طيور الصيـــد والغذاف ، ثم نباتات الاقاقيا والحيات معيّنة الظهر . والنباتات الخضراء تتثاءب واصابع قدمها متباعـدة ، والعصفور الاحمـــر ينطلـق ثم يغوص منحدرا ، وكتل النفايات تتسرب من الشقوق ، والسحلية تبول ، وابن آوى يخرخر ، والضباع تتجشأ وتضحك وتتجشأ من جديد . ورقعة المقبرة الفسيحة كلها المتناثرة بهدوء تطقطـق مفاصلهـــا ليلا . والانـاس الاوتوماتيكيون يطقطقون ايضا بأثوابهم الضخمة المدرعة التي تعيق الحركة ومفاصلهـــا الصدئة واقفالها المفتوحة مغمورة بالثقة الزائفة . الزبدة تزهر اكاليل ضخمة مروحية الاوراق ، زبدة دسمة مسمومة مطبوعة بأقدام غراب ومحزومة بشكل مضاعف بصورة الجلاد جون . الزبدة تعوي في معرض الجثث ، وثمة خافتة تسيل طريقها ، مصبات الانهار مسدودة ، والحمولات ترتعد ، والجوانـب مقفلة . وثمة دجاجات بانتام سمراء تشبه كلب البيجل مزينة بحوصلات حمراء ، وفراء ثعلب الماء تغطي الاراضي المنخفضة . نبات العايق ينزف ، وآبار المغنيسيا تشتعل ، والنسر يحوم عاليا وثمة ساطور يخترق كاحله .

ليلة دموية بربرية مزينة ومفروشة بمخالب صقر . ليلة دموية بربريـة فيها جميع ابراج الكنائس تصرخ وجميع الاضلاع ممزقة وجميع انابيب الغاز تنفجر . ليلة دموية بربرية فيها كـل العضلات ملويـــة ، واصابع الاقدام متصالبة ، والشعر منتصب ، والاسنان حمراء ، والعمود الفقري مكسور . والعالم كله متيقظ تماما يغرد كالصباح ، ونار حمراء واطئة تزحف فـــوق الصمغ . وطوال الليل تنكسر الامشاط ، والدعامات تغني . الفجر يبـزغ

مرتين ، ثم ينسل غائبا من جديد • في الثلج المنساب يصدر الاوكسيد دخانه • وخلال جميع الشوارع تمر عربات الموتى آنية غادية ، آنية غادية ، والسائقون يمضغون سياطهم الطويلة ، بأثوابهم من الكريب الابيض ، وقفازاتهم القطنية •

شمالا نحو القطب الابيض ، جنوبا نحو مالك الحزين الاحمر يخفق النبض وحشيا مستمرا • يقطعون الحبال ، واحدا اثر اخر بأسنان زجاجية براقة • ويأتي فرخ البط مع فاتورته العريضة ، ثم ابن عرس ذو البطن المنخفضة • يأتون واحدا اثر الاخر ، يُستَدعون من الفطر ، اذيالهم يعلوها الريش ، وارجلهم متشابكة ، يأتون على دفعات ، منحنون كأعمدة الحافلات ، ويمرون من تحت السرير • على الارض طين واشارات غريبة ، النوافذ تتلظى ، ولا شيء غير أسنان ، ثم ايدي ، ثم جُزَر ، ثم بصل بذوي بعينين زمردتين ، ومذنبات تأتي وتغدو ، تأتي وتغدو •

شرقا صوب المنغول ، غربا نحو الغابات الحمراء ، ويهتز النبض اماما وخلفا • البصل يمشي بانتظام ، البيض يثرثر ، والحيوانات المحنطة تتلولب كالذروة • وعلى بعد اميال ممتدة على الشواطىء تقع مكامن الكافيار الحمراء • الكبسارون يزبدون ، يفرقعون سياطهم الطويلة • المد يهدر تحت طبقات الجليد الاخضر • وسريعا فأسرع تدور الارض جول نفسها •

ومن قلب الفوضى السوداء تخرج مغازل النور مزودة بكوى محتشدة • ومن العدم والفراغ يبزغ التوازن الابدي • من فك الحوت وكيس الخيش يخرج ذلك الشيء الجنوني المسمى النوم الذي يسير كساعة الثمانية أيام •

التمشي في طول الصين وعرضها

الآن لم أعد وحيدا ... وفي أسوأ
الأحوال انني بـدون الله !

في باريس ، خارج باريس ، مغادرا باريس او عائـــدا اليها • دائما
ريس وباريس هي فرنسا وفرنسا هي الصين • كل ما هو غير مفهوم لدي
جري كسور عظيم فوق التلال والوديان التي اتجول خلالها ، وداخل هـــذا
سور العظيم يمكنني ان اعيش حياتي الصينية النمط بسلام وطمأنينة •

إنني رحالة ، ولست مغامرا • تقع معي الحوادث اثناء بحثي عن مخرج •
حتى الان وانا اعمل في نفق لا قرارة له ، احفر احشاء الارض بحثا عن النور
الماء • وبما انني من القارة الاميركية فلا يمكنني ان اؤمن بأنه كان ثمة
كان على الارض يمكن للانسان ان يكون فيه نفسه • وبضغط من الظروف
صبحت صينيا ـ صينيا في وطني ! اخذت الى افيون الحلم لكي اواجه بشاعة
ياة لم يكن لي فيها دور • وكسقوط غصن صغير بهدوء وحركة طبيعية الى
هر الميسيسيبي سقطت من تيار الحياة الامريكية • انني اذكر كل مـــا
دث لي ، ولكن ليست لي رغبة في كشف الماضي ، ولا اكن اي توق او ندم •
نني اشبه برجل افاق من نوم طويل ليجد انه يحلم • انها حالة تحدث قبل
لولادة الرجل المولود يعيش غير مولود ، والرجل الذي لم يولد يموت مولودا •

مولود ومولود مرة بعد مرة • مولود حين أجوب الشوارع ، ومولود
ين أكون جالسا في مقهى ومولود وانا منطرح فوق عاهرة • مولود ومولود
ن جديد مرة بعد مرة • خطو سريع وجزاؤه ليس مجرد الموت ، بل المـوت
لمتكرر • يكاد يستحيل علي ان اشعر اني في الجنة مثلا ، عندما تهتـــز
لابواب وتنفتح واجد احجار الشارع تحـت قدمـي • كيـف تعلمـت المشي
هذه السرعة ؟ باقدام من امشي ؟ انني امشي الان متوجها الى القبر ، امشي
لى جنازتي • اسمع قرقعة الرفش ، ووابل التربة السطحية • عيناي لا
كادان تنغلقان • وليس لدي الا القليل جدا من الوقت لأشم الازهار التـــي

امطروني بها ، واذ فجأة بانغو ! لقد عشت بقاءا اخر • ان التردد على الارض على هذا الشكل يجعلني يقظا حذرا • يجب ان احافظ على جسدي في حالة يكون فيها مقبولا من الديدان • يجب ان احافظ على روحي سليمة لاجل الله !

في اوقات بعد الظهر اجلس في اللافورش ، واسأل نفسي بهدوء : « الى اين نحن متوجهون من هنا ؟ » وحالما يهبط الليل اكون قد سافرت الى القمر وعدت • اجلس هنا عند تقاطع الطرق واستعيد حالما جميع ذواتي المنفصلة والخالدة • وابكي فوق كأس البيرة • في الامسيات اعود ماشيا الى كليشي ، ومعي نفس الشعور • انني كلما جئت الى لافورش ارى دروبا لا متناهية العدد تشع من قدمي ومن حذائي تخرج ذواتي الى لا حصر لها والتي تسكن عالم كياني • وأرافقها جنبا الى جنب على الطرق التي كنت من قبل قد طرقتها وحيدا : انها المشاوير العظمى لحياتي ومماتي التي تتلبسني • واتحد ثالى هؤلاء المرافقين الذين صنعوا انفسهم كما قد اتحدث الى نفسي فيما لو كنت من سوء الحظ بحيث اعيش واموت مرة واحدة وابقى على هذا وحيدا الى الابد • اما الان فلم اعد وحيدا ، وفي أسوأ الاحوال اكون مع الله !

ثمة شيء في المسافة ما بين كليشي ولافورش هو السبب في جميع حالات ازدهار المشاوير العظمى التي تتلبسني دفعة واحدة • انها كالانتقال من احد الانقلابات الشمسية الى اخر • وعلى فرض اني غادرت مقهى وبلر وكنت احمل كتابا تحت ابطي ، كتابا يتحدث عن الاسلوب والارادة • لنفرض انني بينما اقرأ الكتاب لم أكن افهم اكثر من فقرة او اثنتين ، وربما كنت اعيد قراءة نفس الصفحة طوال الامسية ، وانني لم اكن في مقهى وبلر على الاطلاق ، بل اسمع موسيقى ، واذ بي اغادر جسدي واطير • فأين اكون عندئذ ؟ ولم العجب ، عندئذ اكون خارجا في نزهة تتلبسني ، نزهة قصيرة لمدة خمسين سنة او نحوها تقضى اثناء قلب الصفحة •

سمعت ذاك الخفيف الغريب عندما كنت مغادرا مقهى وبلر • لا حاجة للنظر الى الخلف — فأنا اعرف انه صوت جسمي وهو يسرع لينضم الي • وفي هذه اللحظة عادة تكون مضخات البراز مصفوفة على طول الشارع • الخراطيم ممدودة عبر الرصيف كديدان ضخمة تئن • الديدان السمينة تمتص البراز من المجارير • هذا المشهد هو الذي يهبني الدفق الروحي اللازم لكي انظر الى نفسي وانا اميل فوق كتاب في المقهى ، ارى العاهرة تقف الى جانبي وتقرأ عبر كتفي ، اشعر بأنفاسها على عنقي • انها تنتظر ان ارفع نظري ، ربما لأشعل لها السيجارة التي تمسكها بين اصابعها • ستسألني ماذا افعل هنا وحدي وان كنت اشعر بالضجر • الكتاب يتحدث عن الاسلوب والارادة وقد جلبته معي الى المقهى لاقرأه لانه من الرفاه ان اقرأ في مقهى

بعج بالضجيج وهو ايضا بمثابة حماية ضد الامـراض • الموسيقى تكـون بميلة جدا في مقهى ضاج • – انها تزيد الاحساس بالعزلة ، بالوحدة • ارى لشفة العليا للعاهرة ترتجف من فوق كتفي • ارى فقط بقعة مثلثة من الشفة، ناعمة كالحرير • انها ترتعش فوق العناوين العليا ، متوضعة كغزال الشاموا فوق وهدة • وانا الان اقابل التحدي ، انا ونفسي ملتصقان معا • الامتداد لصغير من ساحة كليشي وحتى اللافورش • من الازقة المسدودة التي تكثر على طول الامتداد الصغير تنبجس حشود كثيفة من العاهرات ، كوطاويط يعميها نور النهار • انهن يتسلقن شعري ، واذني ، وعيني • انهن يتشبثن بأنياب تمتص الدماء • وطوال الليل يتقرحن في الازقة الجانبية ، تنبعـث منهن رائحة النباتات بعد مطر غزير ، ويصدرن اصواتا خافتة كالتي تصدر عن النباتات ، وصرخات تحبب بلهاء تجعل الجسم يتخدر • يحتشدن فوقي كالقمل ، قمل له حوالق طويلة كالنباتـــات ، ويمتصن العرق عن مسامي • العاهرات ، الموسيقى ، الحشود ، الجدران ، الاضواء على الجدران ، البراز ومضخات البراز تعمل ببسالة كل هذا يُشكّل سديماً يتكثف على شكل عرق بـارد منشط •

كل ليلة ، بينما انا متوجه نحو لافورش اواجه التحدي • كل ليلة تُسلَخ فروة رأسي واقطّع بفأس التوماهوك • لو لم يحدث الامر هكذا لافتقدته • وأصل الى المنزل وأنفض القمل عن ملابسي ، وأغسل الدماء عن جسمي • وآوي الى الفراش واشخر • انه العالم الذي يلائمني تماما ! انة يحفظ لي جسمي ناعماً وروحي سليمة •

البيت الذي أسكنه قد تهدم • كل الغرف تعرت • لقد صار بيتي كجسم انساني سُلخ عنه الجلد ورق الجدران تهدّل بالياً ، وهيكل السرير بلا حشية ، والبلاليع مسدودة • وكل مساء وقبل ان ادخل الى منزلي اقف لأنظر اليه • الرعب الذي يتبعث منه يذهلني • ولكن قبل كل شيء ، لماذا لا يكون هناك القليل من الرعب ؟ ان كل مخلوق حي هو متحف يحوي رعب سلالته كلهـا • وكل انسان يضيف جناحا الى المتحف • وهكذا ، اقف كل مساء امـام البيت الذي اعيش فيه ، البيت الذي تهدم تماما • انني احاول ان استحوذ علـى معنى هذا • وكلما تعرت الدواخل كلما احببت منزلي اكثر • احب وعاء البول الموضوع تحت السرير ، والذي لم يغد يستخدمه احد • [illegible]

في اميركا عشت في عدة بيوت ، إلا انني لم اعد اذكر دواخل اي منها • فقد كان علي عندئذ ان اتقبل ما يحدث لي وابقيه معي وانا امشي في للطريق • ومرة استأجرت عربة باروش مكشوفة وسرت في الشارع الخامس • كان بعد ظهر احد ايام الخريف وكنت اجوب مدينتي • وكان الرجال والنساء يتنزهون

على الارصفة : وحوش غريبة ، انصاف انسانيين ، انصاف سيليلوزيين . يمشون في الشارع جيئة وذهابا انصاف مجانين ، اسنانهم ملمعة وعيونهم تومض . النساء يلبسن اثوابا جميلة ، كل منهـــن مزودة بابتسامة باردة بائتة . والرجال ايضا يبتسمون بين الحين والحين ، كما لو انهم كانوا يمشون في اكفانهم ليقابلوا مخلصهم السماوي . يبتسمون وهم يعبرون الحياة بتلك النظرة المعتوهة الزجاجية في عيونهم ، الالوية منشورة ، والجنس يتدفق حلوا في البلاليع . كنت احمل معي قناة وحالما وصلنا الى الشارع الرابع والعشرين فتحت النار . ولم ينتبه احد . حصدتهم ذات اليمين وذات الشمـــال لكن الحشد لم يقل عددا . الاحياء يمشون فوق الاموات ، يبتسمون طوال الوقت ليعلنوا عن اسنانهم البيضاء الجميلة . تلك الابتسامة الفظة البيضاء هـــي التي تلتصق في ذاكرتي . اراها في نومي عندما امد يدي مستجديا ـ ابتسامة جورج . س تيليو التي تطفو فوق الموز المتدلي على امتداده في حقل سبـــاق الحواجز . اميركا تبتسم ساخرة من الفقر . ما اقل ما يكلف الابتسام ـ ولماذا لا تبتسم وانت تستقل عربة باروش مكشوفة ؟ ابتسم ، ابتسم . ابتسم وسيغدو العالم ملكك . ابتسم وسط خشخشة الموت ـ فهو يسهل الامر على اولئك الذين تخلفهم وراءك . ابتسم ، عليك اللعنة ! ابتسامة لا تنتهي ابدا !

الوقت هو ظهيرة يوم ثلاثاء وانا واقف في المترو وجها لوجه مع نساء اوروبا البسيطات . في وجوههن جمال مهترىء ، وكأنهن كالارض نفسهـــا شاركن معها في معاناة جميع كوارث الطبيعة . تاريخ سلالتهن محفور على وجوههن ، جلدهن كرق سُجل عليه صراع الحضارة برمته . الهجـــرات ، الضغائن ، الاضطهادات وحرو باوروبا ـ كلها تركت بصماتها هناك . انهن لا يبتسمن ، وجوههن مركبة وما كتب عليها مركب مـــن كل ما له علاقة بالسلالة ، والشخصية ، والتاريخ . ارى على وجوههن خارطة اوروبا المهترئة المتعددة الالوان خارطة مخططة بسكك الحديد ، والسفن البخارية وخطـــوط الطائرات ، بالحدود الوطنية ، بتحاملات ومنافسات لا تمحى او تستأصل . ان رثاثة الخطوط الخارجية نفسها ، والثغرات الكبيرة التي تدل على البحار والبحيرات والحلقات المفككة التي تشكل الجزر ، والعادات والآثار المتخلفة عن الماضي الخرافية العجيبة والتي هي اشباه الجزر . كل هذ التوتر والتآكل يدل على الصراع القائم الى الابد بين الانسان والحقيقة . صراع ليس هذا الكتاب الا خارطة اخرى له . انني وانا احملق في هذه الخارطة ، لدي انطباع بأن القارة الاوروبية هي اكبر بكثير مما يبدو ، وانها في الواقع ليست قارة على الاطلاق بل جزء من الكرة الارضية طغت عليه المياه . ارض طغى عليها البحر . كانت اليابسة تنهار عند بعض نقاط ضعفها . ولا داعي ليعرف المرء كلمة واحدة في علم الطبقات ليفهم التقلبات التي تعرضت لها هذه القارة الاوروبية بشبكة انهارها ، وبحيراتها وبحارها الداخلية . ويمكن له ان يلمح

بسرعة البرق الجهود الجبارة التي بذلت في فترات مختلفة ، بالاضافة الى الجهود المجهضة المحبطة . وطبعا يمكن أن يشعر بتغيرات الطقس العظيمة التي تبعث التغيرات المختلفة للقشرة الارضيــة . اذا نظر المرء الى هذه الخارطة بعيني عالم بالخرائط يمكنه ان يتصور ماذا سيطرأ من تبدلات بعد خمسين او مئة سنة الى الامام .

وهكذا ، انظر الى البحر واليابسة التي تشكل قارات الانسان ، فأرى تشكلات معينة سخيفة ، هائلة الحجم وغيرهـا مما يعتبر شاهدا علـى الصراعات البطولية . يمكنني ان اتتبع على طول الانهار المتعرجة فقـدان الايمان والشجاعة ، أفول السمو ، وتآكل الروح البطيء التدريجي . وأرى ان الحدود معلمة بمتاريس ثقيلة طبيعيـة وايضا بخطوط خفيفـة متذبذبة ، متغيرة كالريح . يمكنني ان اشعر حتى بالمكان الذي سيتبدل فيه الطقس ، وافهم بشكل حتمي ان بعض المناطق الخصبة ستجف واماكن اخرى جرداء ستزهر . انني متأكد انه في اصقاع معينة ستتحقق الاسطورة نفسها . وسيعثر على حلقة ضائعة هنا وهناك بين كياننا الذي كان مجهولا وكياننا المجهول الان ، وستوحي الفوضى العظمى التي يتميز بها الماضي بالفوضى العظمى القادمة ، وان الشيء المهم الوحيد هو الاضطراب والفوضى واننا يجب ان نركع ونعبده . ونحن كبشر فينا جميع العناصر التي تكون الارض ، بجوهرها واسطورتها ، اننا نحمل معنا في كل مكان ودائما تغيرنا الجغرافي طقسنا المتغير . خارطة اوروبا تتغير امام عيوننا ، ولا احد يعرف اين تبدأ القارة الجديدة او تنتهي .

انني هنا وسط تغير عظيم . لقد نسيت لغتي ومع ذلك فأنا لا أحسن التكلم باللغة الجديدة ، انني في النقطة الميتة لحقيقة تتغير لم تُبْتَكَر لها لغة جديد . وحسبما تقول الخريطة فأنا في باريس ، وحسب الروزنامة انا اعيش في العقد الثالث من القرن العشرين ، لكنني لا في باريس ولا في القرن العشرين . انني في الصين ولا يوجد هنا ساعات او روزنامات . ابحر فـي اليانغتسي على مركب ذهو الشراعي والطعام الذي أجمعه انتقيه من النفاية التي كوّمتها على متن المركب سفن المدفعية الاميركية . ولكي احضر وجبة متواضعة يستغرق مني ذلك طول اليوم ، الا انها تكون في اخر الامر وجبة لذيذة ثم ان لي معدة من حديد .

انا قادم من لوفيسيين ... الى الاسفل مني يقع وادي السين . وفيـه طرحت باريس كلها في ارتياح ، كخارطة مسح جوديسية(١) ارمي بنظـري عبر السهل الذي يحضن حوض النهر وارى مدينة باريس : حلقات وحلقات من الدوارع ، قرية داخل اخرى ، وحصن داخل حصن . انها تنهض هنـاك وحيدة مهيبة كأنها غابة حمراء من الجذوع العقدية المتشابكة في سهل السين

(١) geodetic — جيوديسي . من علم الجيوديسيا : فرع من الرياضيات التطبيقية لدراسة شكل الارض وقياس سطحها . (المترجم)

الفسيح . تقف في نفس البقعة دائمـا وابدا وقـد صارت الآن تتضاءل وتنكمش ، ثم تنهض وتمتد : انه البعث الجديد من القديم ، القديم الذي يبلى ويموت . بعيدة عن كل علو ، عن كل مسافة زمنية او مكانية تقف هي ؛ مدينة باريس الحسناء ، ناعمة ، كالدرة ، قلعة مقدسة تمتد ممراتها السرية تحت بحر من السقوف المتعانقة لتنفتح اخيرا على السهل الفسيح .

أجلس وسط زبد ساعة الازدحام وفقاعاتها ،وأحلم وأنا أتناول صحنا من المشهيات . السماء راكدة ، والغيوم لا حراك بها . أجلس في نقطة حركة المرور الميتة ، ترغمني على السكينة حياة جديدة تنمو خارجة من الاطلال المنثورة حولي . قدماي تلمسان جذور جسم أبدي لا أعرف له إسما . انني على اتصال بالارض كلها . ها أنا هنا في رحم الزمن ولا شيء يقوى على انتزاعي من سكوني . رحالة آخر وجد لهب قلقه . ها أنا هنا أجلس في الشارع المكشوف أؤلف أغنيتي . انها الاغنية التي سمعتها في طفولتي ، الاغنية التي اضعتها في العالم الجديد والتي ما كنت لاستعيدها لو لم تسقط كغصين في محيط الـزمن .

بالنسبة لمن كان مرغما على الحلم بعينين مفتوحتين على اخرهما تكون كل التحركات معاكسة ، وكل فعل محطم الى شذر مشكالية . أعتقد،وأنا أمشي عبر رعب الحاضر ، أن الذين لديهم ما يكفي من الشجاعة كي يغمضوا عيونهم ، أولئك الذين غيابهم الابدي عن الحالة يسمى بالواقع هم وحدهم القادرون على التحكم في قدرنا . أعتقد ، وأنا أواجه هذا الرعب الكامل اليقظة والحاد ، أن جميع موارد حضارتنا سوف تثبت عدم كفايتها لاكتشاف ذرة ارمل الصغيرة اللازمة لاقلاق التوازن التافه لعالمنا . أعتقد أن حالما لا يعرف خوفا من الحياة او الموت هو الذي سيكتشف ذرة القوة الصغيرة المتناهية في الصغر والتي ستنسف الكون بضربة واحدة ـ وعلى الفور . انني لم أؤمن مرة في دهري بتطور الاشياء البطيء والمؤلم ، المجيد والمنطقي ، وهو المخزي والخالي من المنطق . انني أؤمن بأن العالم بأكمله ـ ليس فقط الارض والاشياء التي تؤلفها ، ولا الكون الذي صنفنا عناصره الاولية ، بما فيه الاكوان الجزرية التي تقع خلف بصيرتنا ووسائلنا ـ وانما العالم كله ، المعروف منه واللامعروف ، هو مختل ، يصرخ من الالم والجنون . أؤمن انه اذا اكتشفت غدا الوسائل المناسبة التي نطير بواسطتها الى أبعد نجم ، الى أحد تلك العوالم التي تقول عنها حساباتنا العجيبة أنه حين يبيضلنا نورها ستكون الارض نفسها قد بادت ، انني أؤمن انه اذا استطعنا غدا أن الذهاب الى هناك في زمن لم يبدأ بعد لوجدنا رعبا مطابقا ، بؤسا مشابها ، وجنونا مماثلا . أؤمن اننا لو نتمكن من التناغم الفائق مع ايقاع النجوم التي حولنا بحيث نهرب من معجزة التضارب فسنتناغم ايضا مع القدر الذي تحقق في

وقت واحد هنا ، هناك ، وفي البعيد ، وبأن لا مهرب من هذا القدر العالمي الا اذا امن به بوقت واحد هنا ، هناك ، وفي البعيد ، كل مخلوق ، رجل ، وحش ، ونبات ، ومعدن ، وصخرة ، ونهر وشجرة وجبل ·

في ليلة لم يعد فيها للاشياء أسماء أمشي حتى نهاية الشارع المسدود وأقفز كرجل وصل الى أبعد ما يمكن الوصول اليه ، عبر الشفير الذي يفصل الاحياء عن الاموات · ولما أغوص مجتازا جدار المقبرة حيث لا تزال اخر مبولة متهدمة تغرغر ، تتجمع طفولتي كلها كتلة خانقة في حنجرتي · اني في كل مكان جعلت منه سريرا لي حاربت كالمهووس أزيح عنه شبح الماضي · الا أنه يبقى وحتى اللحظة الاخيرة الماضي الذي يشمخ بانتصار ، الماضي الذي يغرق فيه المرء · ويعرف الانسان وهو في لهاثه الاخير أن المستقبل ما هو الا مرآة زائفة ، قذرة ، وهو الرمل الموجود في قعر الساعة الرملية ، الخبث البارد ، الميت الخارج من الفرن العالي الذي خبت ناره · بينما أدخل الى قلب الليفالوا - بيته أمر بعربي واقف عند مدخل زقاق مسدود · يقف هناك تحت قوس متوهج من النور وكأنه متحجر · لم يكن ثمة ما يدل على أنه بشر - لا وجود لمقبض ، أو عتلة ، او نابض يمكنه بلمسة سحرية أن يرفعه من حماة النشوة التي يغوص فيها · وبينما أتابع تجوالي يستمر التمثال العربي بالغوص أعمق فأعمق داخل وعيي · التمثال العربي يقف في اغماءة متحجرة تحت قوس النور المتوهج · وتماثيل الرجال الاخرى والنساء تقف في رطوبة الشوارع الباردة - تماثيل لها ملامح بشرية تقف على نقاط صغيرة في حيز صار متحجراً · لم يتغير شيء منذ ذاك اليوم الذي نزلت فيه لاول مرة الى الشارع لألقي نظرة على الحياة متحملاً مسؤولية ذلك لوحدي · ان كل ما تعلمته منذ ذلك الحين هو زائف ولا فائدة منه · والان وبعدما استَبعَدْتُ الزائف بدا لي وجه الارض اكثر بشاعة مما كان عليه في البداية · في هذا القيء ولدت وفي هذا القيء سأموت · لا مهرب · لا توجد جنة يمكنني الهروب اليها · الميزان في حالة توازن · ولا يحتاج الامر لاكثر من ذرة صغيرة جدا ، لكن هذه الذرة المتناهية الصغر من الرمل يستحيل ايجادها · فالروح والارادة مفقودان · وأفكر من جديد في السحر والرعب اللذين أوحى لي بهما الشارع أول مرة · أتذكر البيت الذي عشت فيه ، بالقناع الذي كان يرتديه ، بالشياطين الذين كانوا يسكنونه · بالغموض الذي غلفه ، أتذكر كل مخلوق عبر أفق طفولتي ، والسحر الذي كان يحوطه من كل جانب ، الشذا الذي كان يسبح فيه ، وملمس جسمه ، والعبق الذي كان يرسله ، أتذكر أيام الاسبوع والآلهة التي كانت تحكمها ، واهلاكيتها ، وعبيرها ، كل يوم منه جديد جدا وفائق الروعة أو أحيانا طويلا وفارغا بشكل رهيب ، أتذكر البيت الذي بنيناه والمواد التي كان يتألف منها ، والروح التي تنشط فيه ؛ أتذكر حتى أحلامي ، الليلية منها والنهارية · وبعد أن مررت بالعربي كنت بذاك قد عبرت طريقا مستقيما طويلا يتجه نحو الابدية ، أو على الاقل كنت

اتوهم اني اعبر طريقا مستقيما لا نهاية له • لقد نسيت أنه يوجد شيء يسمى بالمنحنى الجيوديسي وانه مهما بلغ اتساع الانحراف ، وكان لا بد من أن أمضي في طريقي ، فسأعود مرارا وتكرارا الى حيث يقف العربي • عند كل تقاطع طرق سأصادف تمثالا له ملامح بشرية يقف في وضع النشوة المتحجرة ، تمثال منحوت على الزقاق المسدود وقوس نوراني يسطع وهجه عليه •

انني منطلق اليوم بحثا عن مشوار اخر من المشاوير المتسلطة الهاجسة العظمى • انني ونفسي ملتصقان معا • وها هي السماء ثانية معلقة ساكنة ؛ والهواء راكد ، صامت • وخلف السور العظيم الذي يطوقني يدوزن الموسيقيون الآتهم • لم يبق الا يوم واحد نعيشه وبعده يأتي الانهيار ! يوم واحد ! بينما أهمهم هكذا مع نفسي أدور مترنحا مارا بجدار المقبرة وألجأ الى شارع الميستر • هذا الانحدار المفاجيء الى اليمين يلقي بي الى قلب احشاء باريس • ويجري الشارع كجرح مقطوع بسكين مثلم خلال امعاء مونمارتر اللولبية المنزلقة • انني أخوض في الدماء ، وقلبي يشتعل نارا • غدا سيزول كل هذا ، وأنا معه • خلف السور الشياطين يدوزنون الاتهم ، أسرع ، فأسرع ؛ فقلبي يتلظى نارا !

أتسلق هضبة مونمارتر ، التي أحد الجانبين يقع سان أنطوني ، وبيلزبوب[1] الى الجانب الاخر • أحدهما يقف فوقي ، وبيلزبوب في الجهة المقابلة • أولهما يقف فوق التلة العالية ، متألقا ببياضه • سطح العقل ينشطر ليصبح بحرا متلاطم الامواج • السماء تلتف ، والارض تترنح • وأصعد التلة ، واطل على أغطية السقوف المبرغلة وعلى متاريس النوافذ المشرعة ورؤوس المداخن التي تنفث •••

عند تلك النقطة حيث يتمدد شارع ليبيك على جانبه ليرتاح لبعض الوقت ، وحيث ينحني كدبوس شعر ليبدأ من جديد ارتقاء المنحدر يبدو وكأن مد الطوفان قد تقهقر وترك وراءه ترسبات بحرية غنية • وصالات الرقص ، والحانات ، والملاهي ، وجميع الاشرطة والزبد التي تزين اسيجة الليل المكهربة أمام كميات الطعام الهائلة الحارة وتطوق أسفل التل • وتحك باريس بطنها • باريس تلمظ شفتيها • باريس تشحذ فكها استعدادا للوليمة التالية • ها هو الجسد يتحرك دائما في محيطه ـ انه موكب من الفعالية العظمى ، كأفاريز معبد مصري ، كأسطورة اتروسكية ، كصباح المجد الكريتي • كل شيء يحيا مترنحا ؛ سرب محتشد من المادة المتباينة • وخلية الكيان الانساني الدافئة ، وعنقود العنب والعسل خزنت كدرر دافئة ؛ الشوارع تحتشد خلال أصابعي • انني أجمع فرنسا كلها بيد واحدة • انني أقبع في قرص عسل ، في بطن أبي الهول الدافئة • السماء والارض تهتزان

(١) بيلزبوب : رئيس الشياطين ، ويكون على شكل ذبابة هائلة . (المترجم)

ن ثقل الانسانية المفعم بالحياة والرقة · الجسم يقع في مركز اللـب · وفي
لبعيد يقع الشك ، واليأس والخيبة · الجسد هو الاصل ، هو الذي لا يفنى ·

تغوص الشمس على طول شارع اورسل · ربما كانت الشمس هي التي
غرب ، وربما كان الشارع هو الموحش كممر مسقوف · دمي يغوص تحت
ب‍ء ثقله في تشنج الاعصاب الهش الزجاجي · وفوق الواجهات التي يسربلها
لحزن ثمة طبقة من الدهن ، رقاقة خفيفة خضراء من الخَبُوّ ، لمسة من خبل ·
من ثم فجأة بريستو ! ويتغير كل شيء · وفجأة يفتح الشارع فكيه حتـى
خرهما وهناك ، وكحلم ابيض ساكن ، كحلم مطمور تحت الحجارة ، تنهض
نيسةالقلب المقدس · الوقت هو قرابـة الغـروب ووطـأة بياضها تسبب
لاختناق · بياض ثقيل ، ناعس ، كبطن امرأة قذرة · يتردد الدم أمـامـا
خلفا ، وتستدير الخطوط الخارجية بتأثير الضوء الخفيف ، والقباب الهائلة
لمنتفخة مشدودة كحلمات همجية · وعلى الجروف التي تسبب الدوار تنتـأ
لاشجار كأشواكٍ فروعها زغبية تلوح بكلل عبر التيار الخفي الذي يتحرك
متدا من تحت الجذور · لا تزال قطع من السماء تتشبث باطراف الاغصان ـ
هي خصل رقيقة ، قطنية ملونة بالازرق الشرقي · طبقة فوق اخرى تغطت
لارض الخضراء بفتات الخبز ، بكلاب جرباء ، بآكلي لحم بشر اقزام يقفزون
خارجين من أكياس حيوانـات الكنغـارو .وداخـل عظـام الشهداء لا تزال
لدرابزينات البيضاء واطراف الشهداء تتلوى من الالم · سيقان حريرية
متصالبة على الطريقة الكوفية ، ربما بغايا من حرير ، ربما طيور الغاق
لنحيلة ، ربما حوريات ميتة · الصرح الهائل البارز بجلده الابيض الفيلي
ونهودها الحجرية الثقيلة تجثم فوق باريس بجبرية اسلامية ·

الليل يحث خطاه ، ليل الشوارع ، بسماء حمراء كلظى جهنم ومن كليشي
لى باربيه يمتد نقش شبكي من القبور المفتوحـة · انـه الليل الباريسي
لناعم ، كسلم من اللثث الخالية من الاسنان والغيلان ، تبتسم ابتسامـات
عريضةٍ من بين الدرجات · وعلى طول سفح التل تغرغر المبولات ، أفواهها
محشوة بالخبـز الطازج · في الليـل فقط تبـرز كنيسة القلب المقدس جلية
روعتها النتنة · وبياض جلدها الثقيل ونفسها الرطب الحجريهما اللذان
يتشبثان بالذم كالمصراع · الليل وباريس تتبول دمها الابيض المحمـوم ·
لزمن ينهمر جاريا على الاكسليفونات ، القمـر يشبه الجـرس القرصي ،
والعقل محفور · الليل يحل ككأس مقلوبة وأزهار العقل الجميلة ، وأزهـار
لنرجس الاسلي الذهبية والخشخاش الطباشيري كلها مضغت حتى سـال
العاب · وعاليا فوق تلة مونمارتر ، تحت ظلة زرقاء بلون السماء ، تمضغ
لاحصنة الكبيرة الحجرية دون ضجة · قرقعة حوافرها تهز الارض شمـالا
حتى سبيتزبرغر ، وجنوبا حتى تاسمانيا · وتدور الكرة الارضية على السكة

الملساء للبولفارات وتدور أسرع فأسرع · أسرع فأسرع ، بينما خلف الجدران يدوزن الموسيقيون الآتهم · وأسمع من جديد النغمات الاولى للرقصة ، رقصة الشيطان مع السم وقذيفة الشظايا ، رقصة نبض القلب الملتهب ، وكل قلب يلتهب مشتعلا ويزعق داخل الليل ·

فوق التل العالي ، في ليل الربيع ، وحدي داخل جسد الحوت الهائل معلقا مقلوبا رأسا على عقب ، عيناي مملؤتان بالدم ، وشعري أبيض كالديدان · بطن واحدة ، جثة واحدة ، وجسد الحوت الهائل يتعفن كجنين تحت شمس ميتة · رجال وقمل ، رجال وقمل ، موكب لا ينتهي متجه نحو كومة اليرقات · هذا هو الربيع الذي غنّى له اليسوع ، والاسفنجة على شفتيه ، والضفادع ترقص · لا أثر لصدأ ، لا مسحة كآبة · الرأس المدلى من بين منفرج الساقين هو حلم أسود هائج ، الماضي يغوص ببطء ، الصورة تكوّر وتكبّل · في كل رحم تُسمع قرقعة حوافر حديدية ، وفي كل قبر يسمع هدير أصداف جوفاء · رحم وصدفة وفي كل جوف لرحم ثمة أبله بكامله يجمع عشب الحوذان · رجل وحصان يتحركان الآن في جسد واحد ، الايدي رقيقة ، والحوافر مشقوقة أتوا بخطى وئيدة على شكل موكب ، بمقل حمراء وعروف متقدة · اتون على أجنحة الافراس عروفهم ترفرف ، وفتحات أنوفهم تنفث ·

على شارع كولينكور ، عبر جسر الاضرحة ، ينهمر المطر ناعما كالربيع · والى الاسفل مني الكنائس الصغيرة البيضاء حيث يدفن الموتى · وبقع ليس لها شكل معين من الظلال المتكسرة تلقيها عوارض الجسر الثقيل الشبكية · العشب يشق طريقه عبر الطبقة العليا للتربة ، وقد صار الان اكثر اخضرارا منه في النهار ـ انه عشب كهربائي يتوهج بقدرة مُقدَّرة بقيراط الحصان الميكانيكي · وفي مكان اخر من شارع كولينكور أصادف رجلا وامرأة · المرأة تعتمر قبعة من القش · وفي يدها مظلة لكنها لا تفتحها · واقترب منهما أسمعها تقول ـ «C'est une Combinaison!» ـ وأظن أن كلمة Combinaison تعني ثوبا داخليا فأصيخ السمع بانتباه · الا انها تكون نوعا اخر من الـ Combinaison تتحدث عنه وسرعان ما يتطاير الفرو عليها · واعرف الان لماذا لم تكن تفتح مظلتها · انها تصرخ «Combinaison» ، وبهذا تبدأ باستخدام المظلة · وكل ما يتمكن الشيطان المسكين من قوله هو ـ « لا ، يا صغيرتي ، لا ! » «Mais non. ma petite. main non !» ·

يبعث هذا المشهد الصغير بي متعة عظيمة ـ ليس لانها تدفع اليه بالمظلة ، بل لانني نسيت المعنى الاخر لـ «Combinaison!» · وانظر الى اليمين مني والى اليمين تماما تجثم باريس التي طالما بحثت عنها · انك قد تعرف كل شارع في باريس ولا تعرف باريس نفسها · لكنك عندما تنسى

أين أنت والمطر ينهمر ناعما فجأة تصل وانت في تجوالك الشارد الى الشارع الذي كنت قد طرقته مرة بعد أخرى في نومك وهذا هو الشارع الذي تخترقه الان ٠

في هذا الشارع بالذات مشيت يوما ورأيت رجلا ملقي على الرصيف ٠ كان ممددا على ظهره وذراعاه منشوران على طولهما - وكأنما انزل عن الصليب لتوه ٠ لم يقترب منه انسان ، ولا انسان واحد ، ليرى ان كان ميتا أو حيا ٠ كان ملقي مكانه على ظهره ، وذراعاه منشوران ، ولم تكن تصدر عن جسده ادنى حركة ٠ ولما اقتربت من الرجل تأكدت أنه ليس ميتا ٠ كان يتنفس بتثاقل ويسيل من فمه خيط رفيع من عصارة التبغ ٠ وعندما وصلت الى الزاوية توقفت لحظة لارى ما يحدث ٠ وما كدت التفت الى الخلف حتى صافحت اذني نوبة من الضحك ٠ وفجأة احتشدت أبواب الدكاكين بالناس ٠ وفي لمح البصر صار الشارع برمته يضج بالحيوية رجال ونساء واقفون وأيديهم على خواصرهم ، ودموعهم تجري على خدودهم ٠ اقتحمت طريقي وسط الحشد الذي تجمع حول الجسد المنطرح على الرصيف ٠ ولم أفهم سبب اهتمامهم المفاجىء ، سبب ذاك القصف الذي اندلع بينهم فجأة ٠ وأخيرا تمكنت من شق طريقي بعد جهد ووقفت قرب جسد الرجل ٠ كان لا يزال مستلق على ظهره ٠ وكان ثمة كلب يقف قربه يهز ذيله بمرح ٠ كان أنف الكلب مدفون في فتحة بنطال الرجل ٠ ولهذا كان الجميع يضحكون ٠ حاولت أن أشاركهم الضحك ٠ فلم استطع ٠ اجتاحني الحزن ٠ حزن مريع كنت أشد حزنا من أي وقت مضى من حياتي ٠ ولا أعرف ما حدث لي ٠٠٠

أتذكر كل هذا الان وأنا أتدرج صاعدا الشارع المنحدر أمام دكان اللحام المواجه لي تماما عبر الشارع ، الدكان ذو المظلة الحمراء والبيضاء ٠ أعبر الشارع لاجد على الرصيف المبلل ، وفي المكان الذي كان يستلقي فيه الرجل ، جسد رجل ممدد مفروش الذراعين ٠ أقترب لاراه جيدا ٠ انه نفس الرجل ، مع فارق أن فتحة بنطاله مزررة وقد مات ؛ أنحني فوقه لاتأكد تماما من أنه نفس الرجل وأنه ميت ٠ واتأكد تماما قبل أن انهض وأتابع تجوالي الشارد ٠ وأتوقف عند الزاوية ٠ ماذا أنتظر ؟ انني أتوقف هناك مائلا على جنبي متوقعا أن اسمع من جديد قصف الضحك الذي أتذكره بحيوية ٠ ولكن ما من صوت ٠ ليس في الافق انسان واحد ٠ وما عداي والرجل المنطرح ارضا أمام دكان اللحام كان الشارع مقفرا ٠ عله مجرد حلم ٠ أنظر الى اشارة الشارع علني أرى ان كنت اعرف اسمه ، أقصد اسما يمكنني أن أميزه عندما استيقظ ، وألمس الجدار المجاور لي ، واقتطع مزقة صغيرة من الاعلان الملصق على الجدار ٠ وأمسك المزقة الورقية في يدي لحظة ، ثم أضغطها حتى تصبح كرة صغيرة وأطيّرها الى البالوعة ٠ فتقفز بعيدا وتستقر في بركة صغيرة

ـ ورحلة تومض • بات الان واضحا أنني لا أحلم • وفي اللحظة التي أؤكد فيها لنفسي اني يقظ يتملكني برد مخيف • اذ إن لم اكن أحلم فأنا مجنون • بل والأدهى من ذلك انني اذاكنت مجنونا فلن اتمكن من اثبات ان كنت حالماً ام يقظانا • ولكن ربما لم يكن من الضروري اثبات اي شيء ، هكذا قال لي فكري المؤكد انني الوحيد الذي يشك • وكلما فكرت فيه كلما اقتنعت أن ما يقلقني ليس هو ما إن كنت حالماً أو مجنونا بل ما اذا كان الرجل المنطرح على الرصيف ، الرجل ذو الذراعين المنشورين هـو أنا نفسي • اذا كـان ممكنا مغادرة الجسد في الحلم ، أو في الموت ، فربما يكون ممكنا مغادرته دائمـا . وأن أمشي بلا وجهة بلا جسد ، ولا كلاب ، بكيان مجهول أو اسم مجهـول . روح حرة ، لا يهمها شيء ، روح خالدة ، وربما لا يطالها الفساد ، كاللـه ـ مـن يعـرف ؟.

جسدي ـ والاماكن التي يعرفها ، أماكن كثيرة ، وكلها غريبة جدا ولا علاقة لها بي • الرب أجاكس يجرني من شعري ، يجرني خلال شوارع نائية في أماكن قصية ـ أماكن جنونية ••• كويبك ، تشولافيستا ، براونـزفيل ، سورسنز ، مونت كارلو ، تشرنوفيتز ، دارمستادت ، كانارسي ، كاركاسون ، كولونية ، كليشي ، كراكاو ، بودابست ، افنيون ، فيينا ، براغ ، مرسيليا ، لنـدن • مونتريال ، منابع كولورادو ، امبريال سيتي ، جاكسونفيل ، تشاين اوماهو ، تكسون ، الارض الزرقاء ، تالاهاسي ، تشامونيكس ، غرينبوينت ، بارادايس بوينت ، بوينت لاما ، ديرهام ، جينو ، ارل ، دييب ، اي لا شابل ، اكزوبروفانس ، هافـر ، نيـم ، اشفيـل ، بـون ، هركيمـر ، غلينديل ، تيكوندروغا ، شلالات نياغارا ، سبارتانبورغ ، بحيرة تيتيكاكا ، اوسيننغ ، دانامورا ، ناراغانست ، نيورمبرغ ، هانوفر ، هامبورغ ، لمبرغ ، نيدلس ، كالغاري ، غالفاستون ، هونولولو ، سيتل ، اوته ، انديانابوليس ، فيرفيلد ، رينشموند ، اورانغ كورت هاوس ، كلفرسيتي ، روتشستر ، اوتيكا ، بن بوش ، كارسون سيتي ، سوثولد ، بلو بوينت ، جواريز ، مينيولا ، سبايتون دوفيل بوتكت ، ويلمنغتن ، كوغانزبلوفا ، نورث بيتش ، تولوز بربنيان ، فونتونيرو ، ويدكومب ان زامور ، موبايل ، لوفيسيين ••• في كل واحد مـن هذه الامكنة وقع لي شيء ، شيء قتّال • في كل واحد من هذه الامكنة تركت جثة على الرصيف ذراعيهما منشورين • وفي كل مرة كنت انحني فوقها لانظر الى نفسي لأؤكد لنفسي أن الجثة لم يعد فيها رمق من حياة وان ما كنـت اخلفه ورائي ليس ذاتي *I* بل نفسي الحالية (Myself) • ومن ثم أتابع طريقي ـ أتابع وأتابع وأتابع • ولا أزال حيا ، ولكن عندما يبدأ المطـر بالهطول وأكون في تجوالي هائمـا أسمع خشخشة هـذه النفوس الميتة المنسلخة عني أثناء ترحالي وأسأل نفسي ـ وماذا بعد هذا ؟ قد تظن انه كان هناك حد لما يستطيع الجسد تحمله ، ولكن لا • ان الجسد يبقى شامخا

فوق الالم حتى أنه بعد أن يقتل كل شيء يبقى هناك ظفر من اصبع قدم أو كتلة من الشعر تنبت فروعا جديدة ، وهذه الفروع الجديدة الخالدة هي التي تبقى الى أبد الآبدين · لذا فحتى بعد أن تموت وتندثر للابد يبقى منك جزء مجهري يبقى ليزهر من جديد ، وحتى الماضي الذي هو مستقبل مندثر يبقى منه جزء صغير حي ينبت ثانية · ·

هكذا أقف في بعد ظهيرة أحد الايام تحت الشمس اللاذعة خارج محطة صغيرة في لوفيسيين ، وقد بدأ جزء صغير جدا مني حي ينبت · انها الساعة التي تأتي فيها لائحة المواد الخام عبر الاثير ـ أو فوق الاثير ، كما يقولون · في الحانة الصغيرة الكائنة عند الطرف الاخر للشارع الذي يطل على المحطة يختبىء رجل وفي الرجل يختبىء صوت · والصوت ، وهو صوت شخص أبله كامل النمو ، يقـــول ـ « أميريكان كان ··· شركـــة البريد والبـــرق الاميركية ··· » يقول هذا باللغة الفرنسية مما يضفي عليه مزيدا من الغباء « اميركان كان ··· شركة البريد والبرق الاميركية ··· » وفجأة ، ومثلما حدث عندما صعد يعقوب السلم الذهبي ، انطلقت جميع أصوات السماء · وكحمة تنبع من أرض جرداء هكذا ينبثق المشهد الاميركي ـ المعلبـــات الاميركية ، مؤسسة البرق والهـــاتف الاميركية ··· شركة الاطـــلانطيق والبسفيك ، ستاندارد اويل ، يونايتد سيجارز ، الاب جون ، ساكو وفانزيتي ، يونيدا بسكيت ، الخطوط الجوية الساحلية ، سابوليو نيك كارتر ، تريسكي فريغانزا ، فوكسي غراندبا ، ذا غولددست توينز ، توم شاركي ، فالسكي سورا ، كومودور شلي ميل دوليون ، تيدا بارا ، روبرت· أ· لي ، نيمـــو الصغير ، ليبا بينكهام ، جس جيمس ، آني اوكلي ، دايموند جيل برادلي ، شليتز ميلووكي ، همب سانت لويس ، دانييل بون ، مارك حنا ، الكسندر دوي ، كاري نيشن ، ميري بيكر ايدي ، بوكاهونتاس ، فاتي اربوكل ، روث سنيدر ، ليليان رسل ، الزلاق بيلي واتسن ، اولغا نزرسول ، بيلي سنداي ، مارك توين ، فريمان وكلارك ، جوزيف سميث ، نيلسن المحـــارب ، ايمي سمبل ماكفرسن ، هوراس غريلي ، بات روني ، بيرونا ، جون فيليب سوزا ، جاك لندن ، بيب روث ، هارييت بيتشر ستو ، آل كابوني ، ايب لنكولن ، برايام يونغ ، ريب فان وينكل ، كرازي كات ، ليغيت وماير ، شبـــاب القاعة العامة ، هورن وهاردارت ، فولر برش ، أطفال كراتنون جامـــر ، غلومي غصر ، توماس اديسون ، بوفالو بل ، الطفل الاصفر ، بوكر· ت· واشنطن ، تشولغوتز ، آثر بريسبن ، هنري وارد بيتشر ، ارنست ستون تومبسن ، مارغي بنيتي ، وريغليـــز ـ سبيرهينبت ، العـــم ريموس ، سفوبودا ، دافيد هاروم ، جون بول جونز ، غريب نطس ، اغوينالدو ، نل برينكلي ، بيسي ماكوي ، تود سلون ، فريتزي شف ، لافكاديو هيرن ، آنا هند ، ايفا الصغيرة ، اوميغا اويل ، ماكسين اليوت ، اوسكار هامرشتاين ،

بوستوك ، سميث اخوان ، زبيسكو كلارا كيمبول ينغ ، بول ريفر ، صموئيل غمبرز ، ماكس ليندر ، ايلا ويلر ويلكوكس ، كورونا ـ كورونا ، انكاس : هنري كلارك ، وولوورث ، باتريك هنري ، كريمو ، جورج. ك. تيليو ، توم الطويل ، كريستي ماثيوسن ، اديلين جينـي ، ريتشارد كارل ، سويت كابورالز ، بارك وتيلفوردز ، جين ايغلز ، فاني هيرست ، اولغا بتروفا ، يال وتاون ، تيري ماكفافرن ، فريسكو ، ميري كاهل جيمس. ج. جيفري ، ذا هوساتونيك ، ذا بينوب سكوت ، ايفا نغلن ، سيرز روبك ، ذا سالماغوندي، أرض الاحلام ، ب.ت. بارنوم ، لونا بارك ، هياواثا ، بل ناي ، بات مكارن، ذا رف رايدرز ، ميشا المان ، دافيد بيلا سكو ، فاراغت ، القرد ذو الشعر ، مينهاها ، ارو كولارز ، سن رايز ، سـن اب ، الشيناندو جـاك جونسن ، الكنيسة الصغيرة الكائنة عند الزاوية ، كاب كالواي ، ايلين هامرشتاين ، كيد ماكوي ، بن آمي ، ويدا ، بيكس باد بوي ، باتي ، يوجين. ف. دبس، ديلاوير ولاكاوانا ، كارلو تريسكا ، تشك كونرز ، جورج ايد ، ايما غولدمان، سيتنغ بل ، بول درسلر ، محلات تشايلد ، متحـف هيوبرت ، ذا بوم : فلورنس ميلز ، ذا الامو ، بيكوك الـلاي ، بوماندر ووك ، ذا غولد رش : شيبس هيد بيه ، سترانغلر لويس ، ميمي اغوغليا ، ذا باربر شوب كورد ، بوبي والثور ، بينلس باركر ، مسز ليزلي كارتر ، ذا بوليس غازيت ، كارترز ليتل ليفربلز ، محل بستانوبي ، محل بول وجو ، وليام جيننغ برايان ، جورج .م كوهن ، سوامي فيكفاندا ، ساداكيتشي هارتمان ، اليزابث غورلي فيلين ، ذا مونيتور والميريماك ، سنفي كابمان ، دروثي ديكس ، اماتو ، سيلفستر العظيم ، جو جاكسن ، بني ، الزي جانيس ، ايرين فرانكلن ، ذا بيل ستريت بلوز ، تد لويز ، واين ، وومن وسونغ ، بلو ليبل كاتشب ، بل بيلي ، سد اولكوت ، ان ذا غلومنغ جنفييف وذا واباش فاراوي ...

كل ما هو أميركي يندفع عاليا بقفزة واحدة . وبكل أسم من هذه الاسماء يتعلق الف تفصيل وتفصيل حميم من حياتي . أي فرنسي يمر بي سيشك بأنني أحمل في داخلي قاموسا للاسماء ؟ ومع كل أسم حياة وموت ؟ وعندما أمشي في الشارع وأنا أسبح في عالم اخر فهل يعرف أي من هذه الضفادع في أي شارع أمشي ؟ هل يعرف أني أمشي محاذيا لسور الصين العظيم ؟ لا شيء مسجّل على وجهي ـ لا المعاناة ولا الفرح ، ولا الامل ، ولا اليأس . أجوب الشوارع بوجه عامل بسيط . لقد رأيت الارض مخرّبة ، والبيوت مدمرة ، والعائلات مشتتة . كل مدينة همّت بها على وجهي قتلتني ـ بؤس شاسع ، وكد متواصل لا نهاية له في كل مكان . أهيم على وجهـي من مدينة الى أخرى ، مخلفا ورائي موكبا عظيما من المـوتى والانفس المقعقعة أما أنا ذاتي فأتابع وأتابع وأتابع . وطوال الوقت اسمع الموسيقيين يـدوزنـون آلاتهـم ...

في الليلة الفائتة كنت أتمشى من جديد في الحي الرابع عشر · ومن جديد صادفت معبودي ايدي كارني ، الشاب الذي لم أره منذ تركت الحي القديم · كان طويلا ونحيلا ، وسيما بطريقة ايرلندية · لقد استحوذ على جسدي وروحي · كان ثمة ثلاثة شوارع ـ الشمالي الاول ، فيلمور بليس ودريغز آفنيو · وهذه الشوارع كانت ترسم حدود العالم المجهول · وخلفه كان أقصى الشمال ، أقصى الشمال الذي لا يحده حد · كان ذاك عصر سان جوان هيل ، وفري سيلفر ، وبينو شيو ، ويونيدا · وفي وسط الحوض ، ليس بعيدا عن السوق المسوّر تكمن السفينة الحربية · وثمة قطعة من الاسفلت موجودة قرب الحاجز الحجري للطريق سمحت لراكبي الدراجات بالالتفاف بسرعة صوب كوني أيلند والعودة منها · في كل لفافة خارجة من عند محل سويت كابورالز كانت توجد صورة ، وأحيانا تكون صورة ممثلة مغناج ، وأحيانا أخرى لملاكم محترف ، وأحيانا لعلم · وصوب المساء يضع بول سوّه علبة من التنك بين قضبان نافذته ويطلب صائحا طبقا من السركروت البارد. ونحو المساء أيضا يتجه ليستر ريردن ، الابّي" ، الذي يشبه الأمراء ، بشعره الذهبي ، من منزله مرورا بدكان الخباز ـ وهذه واقعة على درجة فائقة من الاهمية · على الجانب الجنوبي تقع منازل المحامين والاطباء ورجال السياسة ، والممثلين ، ومركز الاطفائية ، وقاعة التأبين ، والكنائس البروتستانتية ، ودار التقليد الساخر الفكاهي ، والنافورة ، وعلى الجانب الشمالي يقع مصنع التنك ، ومغامل الحديد ، وعيادة طبيب بيطري ، ومقبرة ، والمدرسة ، ونقطة بوليس ، ومعرض جثث ، ومسلخ ، وصهاريج الغاز ، وسوق السمك ، والنادي الديموقراطي · ولم يكن هناك الا ثلاثة رجال يُخشى منهم ـ العجوز رامسي ، وتاجر الانجيل ، وجورج دنتن المجنون ، والبائع المتجول ، ودوك مارتن ، ومبيد البق · وكانت النماذج قد بدأت تصبح مميزة ، المهرجون ، الرجال الارضيون ، ومجانين العظمة ، وسريعو الاستثارة ، ومعلمو اسرار الدين ، والكادحون ، والحمقى ، والسكارى ، والكذابون ، والمنافقون ، والعاهرات ، والساديون ، والخنوعون ، والبخلاء ، والمتعصبون ، والمتبولون ، والمجرمون ، والقديسون ، والامراء · كان جيني مين ظهرا للمتسلقين من القردة · والفي ليتشا محتالا · وجو غولر مخنثا · ستانلي كان صديقي الاول · ستانلي بوروفسكي · هو أول شخص « آخر » أميزه · كان قطا بريا ، ولم يكن يعرف قانونا غير المشحذ الذي تركه له العجوز في خلفية دكان الحلاقة · عندما كان العجوز يجلده بالحزام كنت تسمع صراخه يكاد يخنقه · في هذا العالم كان كل شيء ينفّذ على المكشوف · في وضح النهار · عندما جن سيلبرشتاين صانع الثياب الداخلية مددوه على الرصيف امام منزله ووضعوا السترة الانيقة عليه · وزوجته ، التي كانت حبلى ، تملكها رعب حتى أنها طرحت ابنها على رصيف الشارع الى يمين أبيه · والاستاذ مارتن ، المبيد الحشري ، كان قد عاد لتوه من منزله بعد

غياب طويل قضاه في الاسراف في الشراب • كان في جيبي معطفه حيوانين من نوع ابن مقرض قفز أحدهما عليه • ألقـــى ستانلي بابن مقرض في المجرور ونال لعمله هذا عينا سوداء من ابن الاستاذ مارتن هاري الذي كان نصف مجنون • فوق سقيفة دكان الدهان ، في الطرف الاخر للشارع ، وقف ويلي مين وقد كشف عن عورته وهو يهتز طربا بالحياة العزيزة ، ويقول : « بجورك ! بجورك ! بجورك ! » وتقدمت سيارة الاطفاء ، وصوبت خرطومها عليه • وصاحبه العجوز الذي كان مخمورا طلب الشـرطة ، فأتوا وضربوا العجوز حتى كادوا يقتلوه • في تلك الاثناء ، وعلى مرمى حجر ، وقف بات ماكارن عند البار يوزع الشامبانيا على اصدقائه • وكـادت فتـرة الصباح تنتهي والغانيات يكدسن أصدقائهن من البحارة في الغرفة الخلفية • وجورج دنتن المجنون يقود عربته على طوال الشارع ، يفرقع السوط بيد وفي اليد الاخرى يحمل الانجيل • ويصرخ بأعلى نبرة من صوته الجنوني « ما دمت قد فعلتها مع أخي الاصغر فكأنك فعلتها معي » أو شيئا من هذا القبيل • ووقفت السيدة غورمان في ردهة الخروج وهي ملفّعة بشالها القذر ، ونصف ثدييها مكشوفين ، وهي تتمتم « تش تش تش ! » فقد كانت من رعايا كنيسة الاب كارول الواقعة الى الشمال • « صباح الخير يا أبت ، صباح جميل اليـــوم ! » •

كل هذا مرّ بمخيلتي ثانية هذه الامسية ، بعد العشاء ـ أقصـــد الموسيقيين والرقصة التي يعدّون • كنا قد أعددنا وليمة متواضعة لانفسنا ، أنا وكارل • كانت وجبة مؤلفة من كل ما لذ وطاب : فجل ، زيتون أسود ، بندورة ، سردين ، جبن ، خبز يهودي ، موز ، صلصة التفـاح ، ليترين من النبيذ الجزائري ، أربع عشرة درجة • كان الجو في الخارج دافئا وساكنا • جلسنا بعد تناول الوجبة ندخن برضى ، وعلى أتم الاستعداد للذهاب في غفوة ، كانت الوليمة رائعة والكراسي القاسية مريحة جدا مع نور خافت وذاك السكون الذي يخيم فوق أسطح المنازل وكأنها بدورها تتنفس بهدوء من فتحاتها • وكغيرها من الليالي ، وبعد أن جلسنا صامتين فترة من الزمن وكادت الغرفة تكون غارقة في الظلام ، راح فجأة يتحدث عن نفسه ، عن شيء في الماضي بدا وسط الصمت وكآبة المساء يتخذ شكلا خاصا ، ليس بواسطة الكلمات بالتحديد ، لأن ما كان يحاول نقله لي يقع ما بعد الكلمات • لا أعتقد أني سمعت كلمة مما قال ، بل سمعت الموسيقى التي كان يصدرها ـ هي نوع من الموسيقى الحلوة كالتي تأتي من الغابة تنبعث من خلال النبيذ الجزائري والفجل والزيتون الاسود • كان يتحدث عن أمه ، وكيف خرج من رحمها ، ومن بعده أخوه وأخته ، وكيف اندلعت الحرب وامروه أن يطلق الرصاص فلم يستطع ولما انتهت الحرب فتحوا بوابات السجن أو المصحّة العقلية أو مهما يكن اسمها وخرج حرا كالصعفور • أما كيف كان كل هذا يراق منه فهذا ما لم أعد أستطع تذكره على الاطلاق • كنا نتحدث

ن الارملة الطروب وعن ماكس ليندر ، عن ثرثار فيينا - وفجأة اذ بنـا
جد أننا وسط الحرب الروسية - اليابانية وهناك كان الرجل الصيني الذي
كره كلود فارير في كتابه « المعركة » • لا بد أن شيئا ما قد قيل عن الرجل
لصيني قد غاص حتى أعماقه عندما فتح فمه من جديد لأنه حين بدأ
حديثه ذاك عن أمه ، ورحمها ، وعن الحرب القادمة وخروجه حرا كالعصفور
عرفت أنه قد عاد الى الوراء بعيدا وأوغل في الماضي وكنت خائفا تقريبا
ن أن أتنفس حتى لا أعيده الى حاضره •

سمعته يقول صرت حرا كالعصفور ، وبهذه العبارة فُتِحَت البوابات
وخرج منها راكضين رجال آخرون كلهم سالم معافى وبُلهَاء بعض الشيء من
طول الحجر والتوتر من انتظار نهاية الحرب • عندما فتحت البوابات كنت
قد عدت أهيم على وجهي في الشوارع وكان ستانلي جالسا الى جانبي على
الدرجة الصغيرة الكائنة أمام البيت حيث أكلنا الخبز العفن في المساء • في
الشارع بدت كنيسة الاب كارول نائية وقد عاد الليل من جديد الان وأجراس
صلاة المساء تقرع • وأنا وكارل جالسان قبالة بعضنا في كآبة تلم شملنا ،
هادئان مسالمان • اننا جالسان في كليشي وقد مر وقت طويل على انتهاء
الحرب • الا أن ثمة حربا قادمة على الطريق وهي هناك في الظلام وربما
كان الظلام هو الذي دفعه للتفكير في رحم أمه والليل الذي يحث خطاه ، الليل
الذي ستقف فيه وحيدا ومهما عَظُم رعبك يجب أن تقف وحيدا وتتحمَّل
مسؤولية الامر كله • كان يقول : « لم أكن أريد الذهاب الى الحرب • اللعنة ،
لقد كنت في الثامنة عشرة » وهنا سمع صوت الفونوغراف يعزف فالس
الارملة الطروب • في الخارج كل شيء ساكن هادئ - كما كان الحال قبيل
الحرب مباشرة • وعند درج السلم يهمس لي ستانلي بشيء عن الله • الله
الكاثوليكي • لا يزال يوجد في الطاس بعض الفجل وكارل يقرضهم في
الظلام • ويقول « رائع أن نكون أحياء ، مهما يكن المرء فقيرا » • ولا أكاد
أراه الا وهو يغمس يده في الطاس ليتناول فجلة أخرى • ما أجمل أن نكون
أحياء ! وبهذه العبارة يزلق فجلة في فمه وكأنه يقنع نفسه بأنه لا يزال حيا
وحرا كعصفور • والان يزقزق الشارع برمّته ، حرا كعصفور ، في داخلي
وأرى من جديد الاولاد الذين ستُنسَف رؤوسهم فيما بعد أو تُنتَزَع احشاؤهم
- أطفال أمثال ألفي ليتشا ، وتوم فولر ، وستانلي دن ، وسيلفستر غولر ،
وهاري مارتن ، وجوني بول ، وايدي كارني ، وليستر ريردن ، وجورجي
مين ، وستانلي بوروفسكي ، ولويس بيروسو ، وروبي هايسلوب ، وايدي
غورمن ، وبوب مالوني • أطفال الحي الشمالي وأطفال الحي الجنوبي -
كلهم مكوّرون ككومة من الروث وأحشاؤهم معلقة على الاسلاك الشائكة •
بيت واحدا منهم فقط استثني ! ولكن ، لم يبق منهم أحد ! ولا حتى ليستر
ريردن العظيم • لقد امحى الماضي كله •

رائع أن نكون أحياءاً وأحراراً كعصافير · البوابات مشرّعة ويمكنني أن أتجول حيثما أريد · ولكن أين ايدي كارني؟ أين ستانلي ؟

هذا هو الربيع الذي غنّاه اليسوع ، لما كانت الاسفنجة على شفتيه ؛ والضفادع ترقص · في كل رحم يُسمَع طرق الحدوات الحديدية ، في كل قبر يُسمع هدير الاصداف الفارغة ، وقبو الالم الداعر مفعم بديدان الملائكة المعلّقة من رحم السماء الهابط · في كل هذا الجسم الاخير للحوت صار العالم كله بلاءا مستمرا · فيما بعد عندما سيُنفخ في البوق سيحدث شيء كالضغط على زر : وبعد أن يهبط أول انسان سيجر معه الذي يليه ، فالذي يليه ، فالذي يليه وهكـذا على طول الخط ، وحــول العالم ، من نيويورك الى ناغازاكي ، ومن القطب الشمالي الى القطب الجنوبي · وعندما يهبط الانسان سيجر معه الفيل والفيل يجر البقرة والبقرة تجر الحصان والحصان يجر الحمل ، والكل سيسقط ، واحداً قبل آخر ، وواحداً بعد آخر ، كصف من جنود التنك تذروه الريح · سيغوص العالم كشمعة رومانية · وبعدها لن تنمو ورقة عشب واحدة · ستكون جرعة الموت التي لا يقظة بعدها · ولن يسود الا السلام والليل ، دون أنين أو حتى همس · بل مجرد ظلام رقيق يتنامى ، ورفرفة أجنحة لا تسمَع ·

تقليــد ساخر

والآن يعمل هدوء شيفيننغن عمله كمخدِّر

أقف على البار أنظر الى العاهرة الانكليزية وقد فقدت جميع أسنانها الامامية وفجأة تومض في ذاكرتي عبارة : لا تبصق على الارض ! أستعيدها كحلم : لا تبصق على الارض ! كان ذاك في بار فريديز الكائن في شـارع بيغال ، وكان ثمة رجل يرتدي قميصا حريريا ابيض بأكمام سائبة متدلية قد أطلق صيحة عبر الاثير « الى اللقاء يا مكسيكو ! » قالت ان الشغل لم يكن كثيرا هـذه الايام ، تسكعت قليـلا فقط في الجوار · كانت من بيغ برودكاست وأصيبت بمرض الحافر والفم · وصارت تتردد على المراحاض كثيرا ، عبر الستارة الحُبَيْبية · كانت آلـة الهارب منتفخة ، كملائكة تتبول في البيرة التي في كأسك · كانت مخمورة قليلا وتحاول أن تتصـرف كسيدة محترمة في وقت واحد · في جيبي قبعت رسالة مرسلة من هولندي مجنون ؛ كان قد عاد لتوه من صوفيا. تقول الرسالة : « ليلة السبت كانت لدي رغبة واحدة فقط وهي أن تكون جالسا الى جانبي » (ولم يقـل أين) وكل ما أستطيع أن أكتبه اليك هو ما يلي ـ بعد أن تركت نيويورك بضجيجهـا الكثير صار هدوء بلدة مثل شيفيننغن يعمل عمله كالمخدّر · في صوفيا عاش مفلتّسا واتخذ من بريمادونا دار أوبرا الرويال عشيقة لكي يقول ان هـذا قد منحه السمعة الفاسقة اللازمة له تماما لكي يحظى بقبول الرأي العام في صوفيا · ويقول انه سيتقاعد ويبدأ من جديد حياة متزنة ـ في شيفيننغن ·

لم ألق نظرة واحدة على الرسالة طوال السهرة ولكن عنـدما فتحت العاهرة الانكليزية فمها ووجدت أن جميع أسنانها الامامية مفقودة عادت الى ذاكرتي ـ لا تبصـق على الارض!كنا نتجول في حي الاقليات ، أنـا والهولندي المجنون ، وكان هو يرتدي بذلته الرسمية الخاصة بسعاة البريد ، كان قد سلـّم جميع الرسائل وكان حرا بقية السهرة · كنا نتجه الى مقهى رويال لنجلس ونشرب كأسا أو كأسين من البيرة بهدوء · كنت أسمح لـه بالجلوس وتناول البيرة معي لانني كنت رئيسه ثم أنه كان حرا وبامكانه أن يفعل ما يريد وقت راحته ·

كنا نتمشى في الشارع الثاني ، وجهة الشمال ، عندما لاحظت فجـأة نافذة دكـان فيها صليـب منـار وعليه عبـارة تقول : « كل من يؤمن بي فلن يموت ··· » دخلنا وكان ثمة رجل يقف على المنصة قائلا : « يا آنسة بويل ، هيئي اغنية ! والان هيا ، ايها الاخوة ، من سيشهد ؟ نعم ، الترتيلة رقم ٧٣ · بعد الاجتماع سننزل لنستدعي أختنا المحرومة ، السيدة بالإنشار · دعونا نقف قليلا ونحن نغني الترتيلة ٧٣ · ربي ثبت قدميّ على الارض العليا · وكما كنت أقول قبل قليل ، عندما رأيت مصلح برج الكنيسة وهو يدهن البرج الجديد حتى يصير براقا نظيفا انهمرت كلمات هذه الترتيلة المحبوبة العتيقة الى شفتي ! ربي ثبـّت قدميّ على الارض العليا ·

كان المكان صغيرا جدا وثمة لافتات في كل مكان ـ « الله راعيي » ، ولن أكون فقيرا » ، الخ . أما اللافتة الدائمة فكانت واحدة مكتوبة فوق المذبح : لا تبصق على الارض . كان الجميع يرتلون الترتيلة رقم ٧٣ على شرف برج الكنيسه الجديد . كنا واقفين على الارض العليا وقد استمتعت بمرأى اللافتات الموجودة على الجدار ، وخاصة تلك الموجودة فوق المنبر ـ لا تبصق على الارض كانت الاخت بويل مستغرقة في العزف على الارغن : بدت نظيفة وروحانية . كان الرجل الواقف على المنصة يغني بصوت أعلى من أصوات الآخرين ورغم حفظه للكلمات عن ظهر قلب الا أنه حمل كتاب التراتيل أمامه وراح يغني من النوطة . بدا كحداد وقف بديلا لواعظ نظامي . كان صوته عاليا جدا ورصينا . ويبذل أقصى جهده ، ما بين الاغنية والاخرى ، ليحث الناس على بذل كل ما عندهم من جهد . وبين آن وآخر كان رجل ذا صوت يصر صريرا يقفز صوته كالزمار قائلا : « أحمد الله على حفظه وصيانته للقوة ! » .

آمـين ! المجد ! المجد ! هاليللويا !

ويهدر صوت الحداد « والان هيا ، من يشهد ؟ انت ، ايها الاخ ايتون ، هل تشهـد ؟ »

يقف الاخ ايتون على قدميه ويقول برزانة : « لقد اشتراني بثمن » .

آمـين ! آمين ! هاليللويا !

الاخت بويل تجفف يديها بمنديل . بطريقة روحانية . وبعد أن تجفف يديها تنظر بنظرة جوفاء الى الحائط القائم امامها ؛ تنظر وكأن الرب قـد مسحها بالزيت لتوه . مشهد روحاني تماما .

الاخ ايتون الذي اشتُرِيَ بمقابل ثمن يجلس هادئا وذراعاه معقودان . والحداد يشرح ان الاخ ايتون قد اشتُرِيَ بثمن دم المسيح العزيز المراق على الصليب ، وكان موجودا على تمثاله المصلوب . وهو يريد من اخر ان يشهد ، شخص اخر ، من فضلكم ! بعد قليل ، هكذا يشرح قائلا ، سننزل الى اسفل معا لنلقي النظرة الاخيرة على ابن الاخت بلانشار العزيز الذي انتقل الى الملكوت الاعلى في الليلة الماضية . والان ، من سيشهد ؟

ويقول صوت مرتجف : « ايها الناس ، انتم تعلمون اني لست جديرا بالشهادة » . ولكن ثمة بيتا من الشعر عزيز على قلبي كثيرا ... عزيز جدا . انه الكولوسيوس الثالث . قف مكانك واشهد انقاذ الرب . اثبتوا ايها الاخوة . اهدءوا . تمرنوا احيانا . خروا على ركبكم وحاولوا ان تفكروا به . حاولوا ان تنصتوا اليه . دعوه يتكلم ايها الاخوة ، انه عزيز علي كثيرا ـ الكولوسيوس رقم ٣ . اثبتوا واشهدوا خلاص الرب .

انصتوا ! انصتوا ! المجد ! الحمد لله ! هاليوللويا !

ويمسح وجهه : « ايتها الاخت بويل ، استعدي للاغنية التالية ! وقبل ن ننزل لنلقي النظرة الاخيرة على ابن الاخت بلانشار العزيز دعونا نشترك ، انشاد ترتيل اخر : اي صديق لنا في اليسوع ! واعتقد اننا جميعا نحفظه ن ظهر قلب . ايها الناس ، اذا لم تغتسلوا بدم الحَمَل فلن ينفعكم ان سجلوا اسماءكم في الكتب الموجودة هناك في الاسفل . لا تخذلوه ! تعالوا ليه هذا المساء ، ايها الناس ... هذا المساء ! والان ، هيا جميعا ـ اي سديق لنا ... الترتيل رقم ٩٧ . ليقف الجميع ولننشد قبل ان ننزل معا لى ابن الاخت بلانشار . هيا اذن ، الترتيل ٩٧ ... « اي صديق لنا في ليسوع ... » .

كل شيء معد . وسننزل جميعا لننظر الى جثة ابن الاخت بلانشار لعزيز . كلنا ـ كولوسيّون ، مراؤون ، متغطرسون ، قطط مرحة ، اصوات سوبرانو مبحوحة ـ الكل سينزل معا لنلقي نظرة اخيرة . لا أعلم ماذا حدث لهولندي المجنون الذي رغب في شرب كأس من البيرة . سننزل الى الاسفل الى ابن الاخت بلانشار ومرة واحدة ـ الجيوك ولكاليكاك الترتيلة ٧٣ ولا تبصق على الارض ! ايها الاخ بريتشارد ، اطفىء الانوار ! وانت ايتها الاخت بويل ، اعدي النشيد التالي ! الوداع يا مكسيكو ! اننا هابطون الى اسفل الى ابن الاخت بلانشار . اننا هابطون لنزرع اقدامنا في الارض العليا . هنا ينقص انف ، وهناك اقتلعت عين . المنكفىء ، المزكوم ، المنزوع الصفراء ، الحلو ، الروحاني ، المدوّد والمخبول . كلهم هبطوا مرة واحدة ليدهنوا برج الكنيسة فيصبح براقا ناصعا . كلهم صديق لليسوع . كلهم متسمرون وقوفا ليروا حلاص الرب . سيمرر الاخ ايتون القبعة على الجميع وستمسح الاخت بويل البصاق عن الجدران . كلهم مُشترىً بثمن ، ثمن سيجار جيد . الان صار هدوء بلدة شيفيننغن يعمل عمل مخدّر . كل الرسائل سلّمت . الى جميع الذين يفضلون حرق جثثهم سنجد لهم بضع كُوىً لائقة من اجل اوعية الرماد . ان ابن الاخت بلانشار العزيز الميت مسجى على الجليد ، اصابع قدميه تنبت . ان مكان الاضرحة الضخمة يفسح مجالا للعائلات والاصدقاء ان يسجّوا جنبا الى جنب في جحيرة ناصعة كالثلج ، مهملا منبوذا على الارض لا يدخله ماء ولا رطوبة ولا تراب .

... اتحرك متوجها نحو الحديقة الشتوية الوطنية في تاكسي اصفر . هدوء شيفيننغن يعمل عمله بي . احرف تنساب كالموسيقى في كل مكان وحمدا لله لانه يحمي القوة ويصونها . الثلج الاسود في كل مكان ، في كل مكان شعور سوداء قذرة مستعارة . راقب هذه النافذة وترقب صفقات مستهلكة قليلا ! يجب ان ننتهي ! المجد ! المجد هاليللويا !

الفقر يتمشى وهو يرتدي معاطف الفرو . حمامات تركية ، حمامات روسية ، واحواض استحمام تصفية ... حمامات ، حمامات ، ولا نظافة . كلارابو تمنح « حبا باريسيا » . شبح جاكوب غوردن يمشي متشامخا في سهول التندرا المشبعة بالدم . يبدو على القديس ماركس – في – البويري المرح كصرصار ، جدرانها منحوتة بشكل جميل ومدهونة بحلوى التوتي فروتي . معمل صناعة الجسور ... اسعار معقولة . موسكوفيت . يدغدغ السيمبالون(١) والسيمبالون يدغدغ كفل ليو تولستوي البارد المخزون والذي صار الان مطعما للنباتيين . وقد صار داخل الكوكب خارجا وظهرت عليه ثآليل ، وبثور ، ونقاط سود وأكياس دهنية . جميع المستشفيات هي قيد الاصلاح ، والدخول مجاني ، من الباب الجانبي . الى كل الذين يتألمون ، الى كل المرهقين والمثقلين بالهموم ، الى كل ابن حرام يموت من الاكزيما ، والبخر ، والغرغرينا ، والاستسقاء نذكر ، ونختم ونؤكد ان الدخول من الباب الجانبي مجاني . تعالوا جميعا ! تعالوا ، ايها الكاليكاكس المتباكون ! تعالوا ، ايها المتملقون ذوو الانوف التي تسيل مخاطا ! تعالوا وجددوا أحشاءكم ، تعالوا أخفض من السعر العادي للدفن . تعالوا هذه الليلة ! فاليسوع يريدكم ، تعالوا قبل ان يفوت الاوان – فنحن نغلق الابواب في الساعة ٧/١٥ تماما .

كليو ترقص كل مساء !!
كليو ، دلوعة الآلهة ، ترقص كل ليلة . يامو(٢) ، انا قادم ! يامو ، اريد ان انجو ! انني اصعد السلم يامو .
المجد ! المجد ! كولوسيوس ! كولوسيوس ٣ .

يا أم كل المقدسات ، انني الان في السماء . وأقف خلف الوقوف الواقفين خلف حرف z من كلمة Zebra (حمار الوحش) . القس الاسقفي واقف على درج الكنيسة بمعيّ مكسور . تقول اللافتة – ممنوع الوقوف . الاخوة مينسكي واقفون في شباك التذاكر يحلمون بنهر شانون . البتّة نيوز (Pathé News) تطقطق كجوزة طيب فارغة . في جبال الهيمالايا ينهض الكهنة في منتصف الليل ليصلّوا من أجل جميع النيام وذلك حتى اذا استيقظ جميع الرجال والنساء في العالم صباحا استطاعوا ان يبدءوا يومهم بأفكار نقية ، رقيقة وشجاعة . ويمر العالم يستعرض : القديس موريتز ، ممثلي اوبرا ميرغو ، اوديب الملك ، كلاب التشو ، السيكلون المستحمات . ان روحي في سلام ، لو كان معي كأس من البيرة وشطيرة من لحم الخنزير فكم سيكون اليسوع صديقا رائعا عندئذ ! على اية حال ، الستارة ترتفع . كان شيكسبير على حق – الاستغراض هو الشيء المهم !
والان ، سيداتي سادتي ، ترتفع الستارة عن انظف واسرع استعراض

(١) السيمبالون : الة القانون الموسيقية .
(٢) واضح ان النداء هنا عامي ، اي : يا اماه !

ـدّم حتى الان في النصف الغربي من الكرة الارضيـــة • الستارة ترتفع ؛ سيداتي سادتي ، عن تلك الاقسام من علم التشريح المسماة على التوالي لشرسوفيّ ، السريّ ، والخثليّ • هذه الاجزاء المختارة التي خفض سعرها حتى دولار وثمانية وتسعين سنتا لم تعرض من قبل امام الجمهور الاميركي• قد جاء بها مينسكي ، ملك اليهود ، خصيصا من شارع لابيه • انه انظف اسرع عرض اقيم في نيويورك حتى الان • والان ، سيداتي سادتي ، بينما لدلالون يرشون المكان بالماء ويبخرونه ، سوف نعرض عددا مـن البطاقات لبريدية الفرنسية كلها مضمونة الاصالة • ومع كل بطاقة بريدية سنعرض يضا مجهرا المانيا يدوي الصنع واصيل صنعـه اليابانيون في زيوريخ • نه ، ايها السيدات والسادة ، اسرع وانظف استعراض في العالم ، هكذا يقول مينسكي ، ملك اليهود ، لنفسه • الستارة ترتفع ••• الستارة ترتفع••

تحت غطاء من الظلام ينثر الدلالون القمل الحي والميت وصغار القمـل وبيضه مدفونة بين خصلات شعر اولئك الذين لا يملكون حمامات خاصة بهم وهـي خصـلات سميكـة حالكـة الســواد ، وهـم يهـود الحـي الشرقـي المشردون المساكين الذين يتسكعون بمعاطف الفرو في غمرة فقرهم الذي لا خلاص منه يبيعون الكبريت وأربطة الاحذية • في الخارج يشبه المكان الى حد بعيد قصر الفوسغ او الهيماركت او كوفنت غاردن ، عدا ان اولئك الناس مؤمنون ـ بآلة بوزور لحساب الجميع • سلالم الحريق مزدحمة بالنساء الحبالى الذين نفخن انفسهن بمنافيخ الدراجات • وجميـــع يهود الحي الشرقـي المساكين اليائسين سعداء وهم على سلالم الحريق لانهم يأكلون شطائــر لحم الخنزير واحد اقدامهم عالية بين السحاب • الستارة ترتفع اثر انبعاث عبق الفورمالدهايد المحلى مع علكة وريـنغلـي المنعنعـة ، في كل علبة خمس قطع • الستارة ترتفع عن القسم الوحيد من التشريح الانساني الـذي كلما تكلمنا عنه قليلا كلما كان افضل • في شتاء الحياة عندما يكون الحب في جذوته سيكون محزنا تذكر الموز اللامع كالنجوم العائم فوق الاجزاء الحديدية من الاقسام الشرسوفية والسرية والخثلية من علم التشريح الانساني • مينسكي يحلم داخل شباك التذاكر ، قدماه مزروعتان على الارض العليا • ممثلو الاوبرا ميرغو يمثلــون في مكان اخـــر • كلاب التشو تحمّم وتعطّر استعدادا لاستعراض الشريط الازرق • الاخت بلانشار جالسة في الكـرسي الهزاز ورحمها هابط • ويمر دهر ، ويذوي الجسد ـ ولكـن يمكن معالجـة الفتاق • عند النظر من سلم الحريق الى أسفل نرى مشهدا جميلا ، ممتدا بلا نهاية ، تماما كما رسمه سيزان ـ بالمنافض المجعدة ، وفتاحـات علـب صدئة ، وعربات محطمة ، احواض استحمام من التنك،غلايات القصدير ، مبشرات جوز الطيب وبسكويت للحيوانات مقضوم منه قطع صغيرة محفوظ بحرص بورق السيلوفان • انه اسرع وانظف استعراض اقيم على وجـه

الارض وقد اتى رأسا من شارع لابيه • امامكم اختياران ـ احدهما ينظر الى اسفل ، اسفل الى الاعماق السحيقة ، والاخر الى اعلى ، عاليا نحو نور الشمس حيث يتموج امل البعث فوق الراية البراقة كنجم وكل منهما مضمون الاصالة • اثبتوا يا رجال وانظروا خلاص الرب • كليو سترقص هذه الليلة وكل ليلة طوال هذا الاسبوع مقابل سعر هو اقل من تعرفة الدفن العاديـــة • الموت قادم وهو يحبو على اربع ، كغصين من القرنفل • وخشبة المسرح تتلألأ ككرسي مكهرب • كليو قادمة ، كليو ، يا حبيبة الآلهة وملكة الكـــرسي الكهربائـــي •

الان صار هدوء بلدة شيفيننغن يعمل عمله كمخدّر • ترتفع الستارة عن الكولوسيوس الثالث • وتتقدم كليو خارجة من رحم الليل ، بطنهـــا منتفخة بغاز البالوعة • المجد ! المجد ! انني اتسلق السلم • ومن رحم الليـلِ ينهض جسر بروكلن العتيق وثمة حلم خدر يتلوى في الزبد ونار القمـــر • والازيز والهسيس يخربشان الشبكات • وتلألؤ حجر الكريسوبريز الاخضر الكريم ، كلهب النفط • الليل بارد والناس يمشون بخطى متشابكة • الليل بارد لكن الملكة عارية الا من حمالة الاعضاء التناسلية • الملكة ترقص على جمر الكرسي الكهربائي البارد • كليو ، حبيبة اليهود ترقص علـى اطراف اظافر قدمها الملمعة بالورنيش ، عيناها ملويتان اذناها مملوءتان بالدم • انها ترقص في الليل البارد بأسعار معقولة • سترقص كل ليلة طوال هـذا الاسبوع لتفسح مجالا لجسور البلاتين • آه ايها الرجال ان ملكة صالة تاماني هي خلف Virumque cano وخلف النظام الاثني عشري والخطوط الجوية الساحلية • تقف عارية القدمين ، بطنها منتفخة بغاز البالوعة ، سُرّتها تنهض بتفعيلة سداسية مرخمة • كليو ، الملكة ، الانقى من أنقى زفت ، الادفأ من ادفأ كهرباء ، كليو الملكة وحبيبة الآلهة ترقص على الجزء المؤلف من الحرير الصخري للكـرسي اكهربائـــي • في الصبـــاح ستنطلق قاصدة سينغافورة وموزامبيق ، ورانغون • مركبها راسٍ في المجرور • خدمها يغصون بالقمل • ترقص في عمق رحم الليل على أنغام أغنية الخلاص • إننا جميعا هابطون دفعة واحدة الى غرفة الرجال لنقف على الارض العليا • أسفلاً الى غرفة الرجال الصحية الجافة والتي يلفها جو عاطفي كأنها باحة كنيسة •

تصور الان ، والستارة تنخفض انه يوم جميل منعش ورائحة السمك الصدفي تفوح منبعثة من الميناء • تصور انك تمشي على الساحل الاطلسي ببذلتك الاسمنتية وجواربك ذات الاكعاب الذهبية وثمة هدير الطعام الصيني لا يـزال يسمـع في اذنيـك • الجـدار الابيض الهائـل يتوهـج بشـرارات شموع الاحتراق • محطات الاستراحة مفتوحـة • حاول أن تجلس دون أن تكسر طيات سروالك • اجلس على الاسفلت النقي ودع الطاووس يدغدغ

حنجرتك . المجارير تتدفق بالشمبانيا . العبق الوحيد المنتشر هو عبق رائحة السمك الصدفي الآتي من الميناء . انه يوم جميل منعش وجميع اجهــزة الراديو تعمل دفعة واحدة . يمكنك ان تعلق جهاز راديو من مُؤخرتك ـ لتزيد الضجه احثر فليلا . يمكنك ان تستمع الى مانيلا او هونولولو وانت مــاش . بوسعك ان تضع ثلجا في كأس الماء المثلج الذي تشربه او تستأصل كليتيك معا . اذا كنت مصابا بالكزاز يمكنك ان تضع انبوبا في معيك المستقيم وبعدئذ تَصوَّر نفسك وانت تأكل . يحدث هذا اذا كان يوما جميلا منعشا ورائحة السمك الصدفي تفوح منبعثة من الميناء . ولماذا ؟ لأن اميركا هي اكبر بلد خلقه الله واذا لم تكن تحب هذا البلد باستطاعتك ان تخرج منـــه غير مأسوف عليك وتعود من حيث اتيت . ليس في العالم شيء لا تفعله اميركا لاجلك اذا طلبته منها كرجل . بوسك ان تجلس على الكرسي الكهربائي وفي الوقت الذي يمرر فيه التيار بك تقرأ نبأ تنفيذ الاعدام بك ، يمكنك ان تنظر الى صورتك جالسا على الكرسي الكهربائي منتظرا تنفيذ الحكم .

عرض يستمر منذ الصباح وحتى منتصف الليـل . هو اسرع وانظف عرض على الارض . سريع جدا ، نظيف جدا ، حتـــى انه يجعلك يائسا مستــوحشا .

أعود ادراجي عبر جسر بروكلن واجلس وسط الثلج قبالة البيت الذي ولدت فيه . تتشبث بي وحشة كثيفة تعصر القلب . لا ارى نفسي بعد واقفا على بار فريدي في شارع بيغال . لا ارى العاهرة الانكليزية بأسنانها الامامية المفقودة . لا أرى الا فضاء من الثلج الابيض ووسطه البيت الصغير الــذي ولدت فيه . في هذا البيت حلمت اني اصير موسيقيا .

اشعر وانا جالس امام البيت الذي ولدت فيه اني فريد من نوعي تماما . انني انتمي الى اوركسترا لم تُكتَبْ لها سمفونية واحدة . كل شيء نشاز ، حتى اوبرا بارسيفال . بالنسبة لبارسيفال انها مجرد حادثة ثانوية ، الا ان لها طابعها الخاص . لها علاقة بأميركا ، وحبي للموسيقى ، ووحشتي الخيالية ...

ذات مساء كنت اقف في رواق دار الاوبرا الميتروبوليتانية . كانت القاعة محجوزة حتى اخرها وانا اقف على مبعدة حوالي الثلاثة صفوف الــى الوراء من الحاجز . ولم اكن ارى الا جزءا يسيرا من خشبة المسرح وحتى هذه الرؤية كانت تهلك عنقي لكي احققها . ولكن امكنني ان ارسم الموسيقى ، موسيقى بارسيفال لفاغنر التي كنت اعرفها قليلا من خلال استماعي اليها علـــى الفونوغراف . ثمة أجزاء من الاوبرا مملة ، اكثر بعثا للملل من كل ما ألِفْ حتى الان . ولكن هناك اجزاء اخرى علوية واثناء هذه الاجزاء العلوية ، وبما

اني كنت مضغوطا كالسردين ، حـــدث معي شيء مربــك ـ حصل معي انتصاب ، اذ لا بد ان المرأة التي كنت ملتصقا بها قد ألهبتها ايضا موسيقى الكأس المقدسة ، كنا واقفين في مكان حار ، انا وهي ، وقد التصقنا ببعضنا بشدة كسمكتي سردين ، وخلال فترة الاستراحة تركت المرأة مكانها وراحت تتمشى في الممر جيئة وذهابا ، وبقيت مكاني ، اسائل نفسي ان كانت المرأة ستعود الى نفس المكان ، ولما بدأت الموسيقى من جديد عادت ، عادت الى بقعتها بشكل دقيق حتى لو اننا كنا متزوجين لما كان الامر كاملا الـــى هذا الحد ، وطوال الفصل الاخير كنا نستمتع معا بفردوس سماوي ، كان الامر جميلا علويا ، يذكرنا ببوكاتشيو اكثر منه بدانتي ، الا انه في كلا الحالين كان علويـــا وجميلا ،

اتذكر هذه الحادثة بحيوية وانا جالس وسط الثلج امام مسقط رأسي ، اما لماذا فهذا ما لا اعلمه ، كل ما اعلم انها تتعلق بعالم خيالي وبالفـراغ ، بالوحشة محطمة القلوب ، والثلج ، وانعدام الالوان ، وغياب الموسيقـى ، فالمرء غالبا ما يقع في النوم اثناء الخطو السريع ، تبـدأ بالعلوي وتنتهي بزقاق يهتز طربا بالحياة ،

بعد ظهر ايام السبت ، على سبيل المثال ، احطم الاغلال في محل بيل وودرف الملحق ، احطم الاغلال طوال بعد الظهيرة مقابل نصف دولار ، ما اجمله من عمل ! بعد ذلك نعود جميعا الى منـزل بيل وودرف لنجلس ونشرب ، وعندما يحل الظلام يخرج بيل وودرف نظارات الاوبرا ونروح نتبادلها بالدور، نتلصص على المرأة عبر الباحة وهي تخلع ثيابها والستارة مرفوعة ، ما كنا نفعله بنظارات الاوبرا كان يثير دائما حنق زوجة وودرف ، فاذا كانت الحال بينهما على ما يرام خرجت اليه بمبذلها المرصع بالثقوب الكبيرة ، وزوجته هذه ، بنت حرام باردة ، الا انها كانت تبتهج اذ تذهب الى احد اصدقائه وتقول له : « تحسس ثقب مؤخرتي ! تحسس كم صار كبيرا » ويدعـــي اللامبالاة ، وتقول له « طبعا ، هيا تحسسها ، فهي باردة كالثلج وهكذا ننتقل بيننا وكل منهم يغتصب ثقب مؤخرتها ليزيدها حرارة اكثر قليلا ، كانا زوجا مضحكا ، احيانا يظنان انهما يعشقان بعضهما ، ومع ذلك فكانت تنغص عليه حياته ، وطوال الوقت تصده عنها ، وكان يقول « لا يمكننـــي الحصول على مضاجعة منها الا مرة في الشهر ـ هذا ان كنت محظوظا ! » كان يقول هذا في وجهها ، ولم يكن هذا يزعجها ، كانت لها طريقة خاصة في الضحك على امور كهذه ، وكأن الامر هو مجرد عيب تافه ،

ولو انها كانت مجرد امرأة باردة لهان الامر ، الا انها كانت جشعة ، دائما تهتف طالبة دراهم ، دائما هي في توق شديد لشيء لا يحتملان نفقته ، لقد اهلكت اعصابه ، وهذا مفهوم ، لانه هو ايضا كان ابن حرام بخيل يهوى

ستجداء • على اية حال ، وفي احد الايام خطرت على باله فكرة نيرة • ذ به يقول لها « انت اذن تريدين مزيدا من النقود ، أليس كذلك ؟ حسنا ، ن ، سأعطيك النقود ـ ولكن اولا يجب ان تنزعي لي ملابسك » (فلم كشف لابن الحرام المسكين ان بامكانه ان يجد امرأة تتمتع بالمضاجعة ضاجعة نفسها) حسنا ، لا علينا ، اما ما كان مذهلا حول الامر انه في كل ة كان يزيد في ادخاله فيها كانت تتلذذ وتحسن العمل وتتلوى كأرنب • هل • لم يكن يظن ابدا انها ستدخله فيها • وهكذا ، شيئا فشيئا ، صار دبر اعمالا اضافية حتى يوفر رشوة صغيرة ويغري بنت الحرام البـاردة هرع اليه كعاهرة مهووسة • (ابدا لم يخطر على بال هذا الابله المسكين ، ينفق المال على كس آخر • أبداً !) •

في هذه الاثناء كان الاصدقاء والجيران يكتشفون ان زوجة بيل وودرف تكن تلك المضاجعة الباردة كما قيل عنها • ويبدو انها تقضي لياليها بين م وديك وهاري بالتناوب • بحـق الجحيـــم لماذا لم تخص الزوج بجزء عالبيعة) ، لم يكن احد يتصـور السبب • كانت تتصرف وكأنها متألمة اضبة منه • كان الامر على هذا المنوال منذ البدء • ولا يهم بعد ذلـك ان نت قد ولدت باردة أم لا • فقد كانت باردة بقدر اهتمامه بها • كـان مكانها جعله يدفع لها حتى يوم مماته مقابل كل مرة زادت في البسـاح ، لو لم يعده احدهم الى صوابه •

حسن ، لقد كان فتى بارعا ، هذا الوودرف • دنيئا بخيلا وابن حرام يبز ّه احد ، ولكن عند اللزوم امكنه ان يكون ذكيا بارعا ايضا • فعندمـا مع بما حدث لم ينبس بشفة • وتظاهر بأن الامور تجري في مسارهـــا عتاد • الى ان كانت ليلة ، بعد ان تمادى الامر ، جلس ينتظرهـــا ، وهو يء نادرا ما قام به لأن عليه ان يستيقظ باكرا وكانت هي تتأخر في المجيء • ، تلك الليلة ، انتظرها وعندما أتت تترنح ، مرحة طروب مع شيء مـن شراق ، وباردة كالمعتاد ، فاجأها قائلا « اين كنت هذه الليلة ؟ » وطبعا اولت ان تغزل له حكايتها المعتادة • فقال « كفّي عن هذا • هيا اخلعـي لابسك وهلمي الى السرير » وهذا ما اثار حفيظتها • وقالـت له بطريقتها لدوارة بأنها لا تريد ان تفعل هذا • فقال لها « اظن ان مزاجك ليس علـى ا يرام » واضاف « عظيم ، لانني الان سأعمل على تدفئتك قليلا » وعلى ثر قام وربطها الى عمود السرير وكممها ، ومن ثم ذهب ليحضر مشحذ لوسى • وفي طريقه الى الحمام جلب زجاجة من الخردل من المطبخ • وعـاد المشحذ وراح يضربها بجمع يده • بعـد ذلك أخذ يفـرك بالخـردل أماكن ضرب ، وهو يقول « ان هذا سيجعلك حامية طوال الليل » • وبعد هـذا قول جعلها تنحني وتباعد ما بين ساقيها • وقال « والان سأقوم بتسديد

الدفع لك كالمعتاد » • ويخرج فاتورة من جيبه ويكورها ثم يقحمها في فرجها ••• وهذا هو الامر كله حول بيل وودر ، رغم اني عندما افكر به ارغب لو اضفي عليه اشعاع قلبه الذي هجم به بشجاعة حاملا زوجا من الابواق اعطته اياهمازوجتــه جادفيغا •

وما الهدف من كل هذا ؟ ليثبت ما لم يظهر للعيان بعد ، ليثبت هـذا بالحرف الواحد • الفنان العظيم هو من يقهر السمة العاطفية فيه ! موضوع في اضبارة تحت الحرف P من اجل سم الفئران (Rat Poison) •

وما معنى هذا ؟ تسألني •

لا داعي للارتباك هاك هو ••• كلما حان موعد زيارة العمة ميليا فـي مستشفى المجانين كانت امي تعد لذلك غذاء صغيرا ، وتقول وهي تضع الزجاجة بين اللفائف ـ « مل تحب دائما ان تشرب قليلا من الكومل ، وعندما يحين الوقت لتقوم امي بزيارة دار المجانين ولتقول لمل حسنا يا مل كيف تحبين الكومل وتهز مل رأسها وتقول عن اي كومل تتحدثين انني لا ارى اي كومل الحقيقة انني دائما اقول انها مجنونة وطبعا اعطيتها الكومل • ماذا كان يعني صب بضع نقاط من الكومل في بلعوم مل في وقت بلغ فيه اضطرابها العقلي اللعين حدا كان كفيلا بدفعها لابتلاع روثها ؟

اذا كان الجو صحوا جميلا وكان صديقي ستانلي قد فوضّه عمه الحانوتي بحمل وليد ميت الى المقبرة كنا نستقل معدّية الى جزيرة ستيتن وبعدمـا يغيب تمثال الحرية عن الانظار يلقيه في الماء ! واذا كان النهار ممطرا كنا نمشي الى منطقة اخرى ونلقي به داخل مجرور ، كان يوماً كهذا يُعدّ يوم احتفال بالنسبة لحشد جرذان المجارير • يوماً رائعاللاحتفال بالنسبة لجرذان المجارير التي تعدو خلال ممرات العالم الاعلى • في تلك الايام كان الوليد الميت يدر دخلا عاليا يصل حتى العشرة دولارات وبعد امتطاء the shoot-the-chutes كنا نتـرك دائمـا قليلا مـن البيرة البائتـة للصبـاح لان اروع شيء فـي العالم بالنسبة لكاتز نجامرهو كأس من البيرة البائتة •

انني اتحدث عن الامور التي كانت تجلب لي الارتياح في البدء • انك في بداية العالم ، في حديقة محاطة كصندوق • السماء محددة ككثبان رملية ولا يوجد مجرد قبة سماوية واحدة بل ملايين القباب ، قشرة كل كوكب منحنية على شكل عين ، تشبه كثيرا العين الانسانية التي لا هي تطرف ولا تغمز • انك على وشك ان تباشر كتابة كتاب جميل وفيه ستسجل كل ما سبّب لك ألما أو فرحاً • وهذا الكتاب ، عندما سيتم ، سيسمى مقدمة نقدية للاوعي • سوف تلبسه جلد جدي ابيض وستكون الاحرف مكتوبة بشكل نقش ذهبي نافر • سيكون سردا لقصة حياتك دون تنقيح • وسيرغب الجميع بقراءته

انه سيحوي الحقيقة المطلقة ولا شيء غير الحقيقة • هذه هي القصة التي تجعلك تضحك اثناء نومك ، القصة التي تجعل دموعك تطفر مدرارا وانت واقف وسط قاعة الرقص واذا بك تدرك فجأة انه ولا واحد ممن حولك يعرف مقدار عبقريتك • كـم سيضحكون ويبكـون لو انهم يقرأون الحقيقة المطلقة وكيف انه لم يجرؤ احد حتى الان على كتابة هذه الحقيقة المطلقة عداك وهذا الكتاب الحقيقي الموصد داخلك سيدفع الناس للضحك والبكاء كما لم يضحكوا او يبكوا من قبل •

في البدء اليك ما يبعث على الارتياح ـ انه الكتاب الحقيقي الذي لـم يقرأه احد حتى الان ، الكتاب الذي تحمله معك كيفما اتجهت داخلك ، الكتاب الملبّس بالجلد الابيض ومنقوش بحروف ذهبية نافرة • في هذا الكتاب هناك العديد من الابيات الشعرية العزيزة عليك بشكل هائل • من هذا الكتـاب استُنبط الانجيل ، والقرآن ، وجميع كتب الشرق المقدسة • كل هذه الكتب كُتبَت عند ابتداء العالم •

والان سأخبرك عن النواحي التقنية لهذه الكتب ، وهذا الكتاب الذي انا بصدد شرح اصل تكوينه •••

عندما تفتح هذا الكتاب ستلاحظ على الفور ان للرسومات نكهة مخاطية غريبة • سترى علـــى الفور ان المؤلف قد تخلى عن الوهم البصري لصالـح مشهد ما قبل العصر الصنوبري • والصورة المواجهة عادة هي صورة شخصية تسمى «Praxus»[1] وهي تبين المؤلف واقفا على مقدمة الدماغ الاوسط وهـو يرتدي زوجا من رداء البهلوان المحكم • ودائما يضع على عينيه نظارات ذات عدسات سميكة ، محدّبة ، ذات حافة (٣ ـ U . في الحياة اليقظة العادية يعاني المؤلف من رؤية طبيعية اما في الصورة المواجهة فيجعل نفسه حسيرا لكي يقبض على فورية تشكل الحلم • وبواسطة تقنية الحلم يسلخ الطبقات الخارجية للفنائيّة الجيولوجية (Geologic Mortality) ، ويتوصل بمعية ذاته التنبؤية الحقيقية للقبض على منطقة لا طباقية (a non-stretified) ذات خاصية شبه مائعة • الفرق الوحيد هـو ان الجانب غير المتبلور من طبيعته صار الان شرعيا صحيحا • ويحجب الجانب المرئي من اناه يخفض هو عتبة اساليبه الانفصامية المعتادة • ويسبح بفرح ad lib[2] في السائل النخطي (Amniotic fluid) مع ذاته الاميبية •

لكنك تسأل ، وما هي اهمية العصفور الموجود في يده اليسرى ؟

ولم العجب ، اليك السبب : العصفور هو كيان ميتافيزيقي خالص ـ انه نموذج رباعي من طيور الدودو الاصيلة ، له ثقب صغير جدا في منطقـة

(١) Praxus : مجموع الاعراف او المسلمات .
(٢) ad lib : اى ـ على هواه .

الظهر يلقي منه مواعظ اخلاقية في طبيعة كل الاشياء ٠ ان نوعه منقرض : اما كمثل اعلى فلا يزال يحافظ على وجوده المادي ـ هذا اذا حُفِظَ في حالة توازن ٠ وقد خلده الالمان في ساعة الكوكو ، في سيام يوجد رسمه على قطع نقد العائلة الحاكمة الثالثة والعشرين ٠ وستلاحظ ان الجناحين ضامران ـ لكن في اغماءة الحلم الكاذبة لا يحتاج الى ان يطير ، كل ما يحتاجه هو ان يتخيل انه يطير ٠ مفاصل المنقار مخلوعة قليلا منذ ان ضاعت حوامل الكريات الصغيرة حينما كان يطير فوق صحراء غوبي ٠ الطير ليس فاسقا على الاطلاق ولم يُعرف عنه انه خان عشه ٠ انه يضع بيضة منقطة يصل حجمها الى حجم جوزة الهند حين تجتاز عملية التحول ٠ ويتغذى عندما يجوع على المطلق ، الا انه ليس طيرا جيفيّاً ٠ انه من النوع المهاجر على وجه التحديد ورغم جناحيه اللاوظيفيين ، فهو يطير وبلا توقف عبر اصقاع خيالية في مساحتهـا ٠

ان كان هذا واضحا يمكننا ان ننتقل الى شيء اخر ـ الى الموضوع الخاص المتدلي من مرفق المؤلف الايسر ، مثلا ٠ ويجب ان اعترف متواضعا انه يتصف بصعوبة زائدة اثناء شرحه ، لانه صورة جمال عظيم احتمالي يتملك انسجة الندبة الموجودة على الدماغ الخلفي ٠ في اول الامر ستلاحظ رغم انه يلامس المرفق فهو لا يتدلى منه ٠ انه يقع عند نقطة اتصال الساعد واعلى الذراع بشكل مقارب ـ بمعنى ، انه رمز ومفهوم فكري مكثف ٠ الارقام الموجودة على الكفة السفلى تتطابق مع ادوات رونيّة Runic معينة نتجت عن الاختراع العلمي المعروف باسم metronym ٠ هذه الارقام تكمن في جذور جميع المؤلفات الموسيقية ـ باعتبارها ذات صفة رياضية عصيّة على القياس ٠ هذه الارقام تعيد الدماغ الى تشكيلات عضوية Organic modalities حتى تدعم البنية والشكل استمرارية المنطق الانيقة ٠

هذا التوضيح الزائد جعلني اضيف ان المادة المخروطية الموجودة في الجزء الخلفي يجب ان لا تكون وبالضرورة قابلة الا لتفسير واحد لا ثاني له وهو : الكسل ٠ ليس الكسل العادي ، كما يقره مبدأ باولين ، بل نوع من نوبة بلغم لا ارادية يسببها دخان المتعة الرديء ٠ ولا يكاد يكون ضروريا ان اعين ان الهالة الموجودة فوق المادة المخروطية لا هي حلقة رمي ولا حتى طوق نجاة ، وانما هي ظاهرة معرفية صرفة (epistemological phenomenon) او بمعنى اخر هي Phantaskitan اتخذت موضعها في حلقات زحل الكئيبة ٠

والان ، عزيزي القارئ ، ارجو ان اصنف هذه الصورة بعيدا تحت حرف P باعتبارها نبات البيتونيا ٠ هل لاحدكم ان يتفضل ويجرب قبل **ان ننزل ونلقي** النظرة الاخيرة على ذاك الوجه العزيز الميت ؟ هل انا اسمع

حدكم يتكلم او انه حذاء يصر ؟ يخيل الي اني اسمع احدكم يسأل عن شيء
ما • احدكم يسألني ان كان الظل الصغير الموجود عند خط الافق هو لقزم •
هل انا محق ؟ هل انت الذي يسألني اخ أيتن ان كان ذاك الظل الصغير
الموجود عند خط الافق هو لقزم ؟

الاخ أيتن لا يعرف • انه يقول ربما نعم وربما لا ايضا •

حسن ، ايها الاخ أيتن ، انت محق ومخطىء • مخطىء لان المعادلة معلّمة بعلامة النجمة في حين ان الاشارة تشير بوضوح الى اللانهاية ، وانت محق لأن كل ما هو خاطىء له علاقة بالشك ومن أجل طرح المادة الميتة لا تكفي الحقنة الشرجية • ان ما تراه ، ايها الاخ أيتن ، عند الافق لا هو بالقزم ولا هو قبعة مبعوجة • انه ظل براكسوس • انه ينكمش حتى يصل الى أدنى ابعاده الى الحجم الذي يصبح فيه حجم الشمع البراكسي عظيما • بينما براكسوس يتخطى حدود القمر الثانوي الرتبة يخلص نفسه شيئا فشيئا من صورته الدنيوية • وقليلا فقليلا يجرد نفسه من مرآة الجوهر • وبعد انيهشم اخر وهم لن يلقي براكسوس بعدها اي ظل • سيقف على الموازي التاسع والاربعين من نشيد الرعاة الغير مكتوب ليتبدد في نار باردة • لن يكون هناك جنون عظمة بعد اليوم ، بما ان كل شيء صار متساويا • سيغير الجسم جلده وستعرض اعضاء الانسان نفسها شامخة تحت النور • ان كانت ستنشب حرب فأرجوك ان تعيد ترتيب الاحشاء وحسب اهميتها الفلكية • الصبح ينبلج على الامعاء • لا منطق بعد الان ، ولا تنبؤ بحالة الكبد • سيكون هناك حل جاهز • مصنف تحت الحرف A ليدل على كلمة anagogic (المؤوّل باطنيا) •

مهووس المدينة العظمى :

تخيل أنك لا تملك أي شيء الا قدرك • فتجلس على عتبة رحم أمك وتقتل الوقت ـ أو الوقـت يقتلك • تجلس هناك وترتل مسبحا باسم أشياء بعيدة عن متناولك • بعيدة بعيدة حتى الأبـد •

تكون المدينة اجمل حين تبدأ جلبة الموت اللذيذ . حياتها الخــاصة معاشة على شكل تحدي الطبيعة ، كهرباؤها ، وبراداتها ، وجدرانها المانعة للصوت . تنهض جدرانها الجافة صندوقا داخل اخـر ، وومض الاظافـر المائعة ، والريش الذي يتموج عبر السماء المتغضنّة . هنا في اغوار الكفن تنمو الازهار الابدية المرسلة بالبرقية . في السراديب الكائنة اسفل حـوض النهر يُسبّك الذهب . صحراء تتلألأ بالميكا والهاتف يرن بصوت عال .

في بداية المساء ، حين يقعقع الموت العمود الفقري ، يتحرك الحشد كتلة واحدة ، الكتف تلتصق بالكتف ، وكل فرد من القطيع الهائل تقوده الوحشة ، صدرا بصدر باتجاه سور النفس المحبطة المعزولـة ، مرصوص كالسردين،كلهم يبحثون عن فتاحة علب عالمية . في بداية المساء ، حين يُمطر الحشد بالكهرباء تقف المدينة جمعاء على قوائمها الخلفية وتحطـم البوابات . وحين يتشتت القطيع مذعورا يسقط الانسان المجرد مفككا ، بنفس كهلة ، يدور في دوامة داخل بالوعة وحشته العميقة .

اسم مطبوع بعمق . هوية واحدة . الكل يدعي الجهل ، انهم لم يعودوا يذكرون شيئا ، لكن الاسم موصوم بعمق ، عميق الى الداخل كعمق ابعد نجم في الفضاء . يملأ كل الفراغ والزمن ، يخلق وحشة لا متناهية ، هذا الاسم يمتد ويصبح ما كان عليه ودائما وما سيكونه ـ الله . وسط القطيع ، يتحرك بقدمين صامتتين ، في التشتت الجماعي، اعنف من اعظم رعب ، هو الله . الله يحترق كنجم تحت قبة الضمير الانساني : آله غزلان الرنة ، آله الانسان ... اللــه .

لا وجود لله اكثر من وجوده بين حشد بلا آله • لا وجود لله اكثر من وجوده بين القطيع المشتت عند اول المساء حين يقرقع العمود الفقري ببرقيات انباء الموت واغنية حب تتخلل جميع الخلايا العصبية وتنبعث من كل مخزن من مخازن برودواي تراجيع اجهزة الراديو بمساعدة المكبر ولاقط الصوت ، مع مضخات صوت ومقرنات • ليس ثمة ما هو اكثر وحشة من حشد متلاطم • انسان المدينة محاط بمخترعاته ، والباحث الضائع يغوص في الكيان العام • اخر القلاع مبنية من الحب المفقود اليائس المستوحش ، وهي صرح الله المصمم على شكل متاهة • لا مهرب من هذا الملجأ الاخير الا نحو السماء • من هنا ننطلق الى البيت ، مخلفين وراءنا انفاقا اثيرية غريبة •

بعد ان استنزف الحياة السرية يتخذ الدودة لنفسه جناحين • مجردا من حاسية الرؤية ، والسمع والشم ، والذوق يغوص رأسا داخل المجهول • بعيدا ! بعيدا ! الى اي مكان عن العالم ! الى زحل ، او نبتون ، او النسر الواقع (Vega) ــ اينما كان او حيثما كان ، المهم ان يكون بعيدا ، بعيدا عن الارض ! هناك عاليا في الفضاء الازرق ، والمفرقعات النارية تفرقع في ثقب مؤخرته ، يجن الدودة ــ الملاك • انه يأكل ويشرب وهو مقلوب رأسا على عقب ، وينام مقلوبا ، يضاجع مقلوبا • يكون جسمه اخف من الهــواء عندما يكون هو في اقصى سرعته ، وعندما يتحرك بايقاعه الاقصى لا يكون هناك الا الاحتراق التلقائي للحلم • وحيدا في الفضاء الازرق يرفرف جناحيه متجها نحو الله ومحركاته تهدر • انه التحليق الاخير ! الحلم الاخير بالولادة قبل ان يُبْقَر الكيس •

اين هو الان الذي جاهد ليتخلص من الكوابيس الابدية منطلقا نحـو النور ؟ من هو الذي يقف على سطح الارض برئتين محطمتين ، سكين بين اسنانه ، وعيناه تتلظيان ؟ قسّاه الحـزن والاسى ، يقف مشدوها وسط الدفق السريع الفاسد للعالم الاعلى • ما اعظم رؤية العالم من خلال عينين محقونتين بالدم ! ما اشد بهجة واثارة امبراطورية الانسان ! انه الانسان ! انظر ، ذاك هو يجري منصلفا على زحافته الصغـيرة ، ساقاه مبتورتان ، وعيناه مقتلعتان • الا تسمعه يعزف ؟ انه يعزف اغنية حب وهو ينطلق على زحافته الصغيرة • في المقهى وحيد مع احلامه وتحت قلبه مسدس ، يجلس رجل اخر ، رجل مبتلي بداء الحب • ذهب جميع الزبائن عدا هيكل عظمي يعتمر قبعة • الرجل وحيد مع وحشته • والمسدس صامت • والى جانبه كلب وعظمته ، ولا فائدة للعظمة للكلب • والكلب وحيد ايضا • ومن خلال النافذة تصب الشمس اشعتها ، انها تسطع ببريق شاحب على جمجمة العاشق المحروم الخضراء • الشمس تتعفن ببريق شاحب •

جميل جدا شتاء الحياة ، بالشمس التي تتعفن وتضمحل والملائكة تطير

وب السماء والمفرقعات النارية في مؤخراتهم ! ونجـــوب الشوارع بهدوء أملين • الملاعب الرياضية مكشوفة ويستطيع المرء ان يرى صناعة الرجال جدد من بواري المدفأة واسطوانات تدور وفقا لجدول معين ومخطط بياني • جال الجدد الذين لن يبلوا لان الاجزاء يمكن استبدالها دائما • رجـال جدد : عيون ، او انوف او آذان او افواه ، رجال مزودون بحلقات زلاّقة عنـــد ناصلهم وثمة مزالج مثبتة الى اقدامهم •رجال لديهم مناعة ضد الانتفاضات لثورات • ما ابهج الشوارع واشد ازدحامها ! علـــى باب قبو يقف جاك خنّاق يلوح بفأس : الكاهن يعتلي السقالة ، والانتصاب يكاد يمـــزق تحة بنطاله ، وكتاب العدل يمرون بحقائبهم المنتفخة وال Klaxons تمتلىء تى الانفجار • الرجال مهتاجون بحريتهم المكتشفة حديثا • جلسة استحضار واح سرمدية مزودة بمكبرات صوت وشريط التلغراف الكاتب ، رجال بلا رع يزودون باسطوانات شمعية ، مصانع تشغل ليل نهار ، تنتج مزيدا ن النقانق ، مزيدا من بسكويت البريتزل ، مزيدا من الازرار ، مزيـدا من فؤوس الماضية ، مزيدا من الحراب ، مزيدا ن فحم الكوك ، زيدا من صبغة افيون ، مزيدا من المسدسات الاتوماتيكية •

لا استطيع التفكير بيوم اجمل من هذا في اينع اوقات القرن العشرين : الشمس تتعفن وتضمحل ورجل يجري على زلاجات صغيرة ينفخ لحن حب لى ناي البيتشولو • هذا اليوم يشرق في قلبي بذاك البريق الشاحب بحيث تى لو كنت اتعس انسان في العالم لما أردت مغادرة الارض •

اي جلاء رائع هذا ، هذا التحليق الاخير صوب السماء من الصرح المقدس! النظر الى اسفل الى الارض يبدو ناعما محببا من جديد • الارض عارية من لبشر • ناعمة جميلة هذه الارض العارية من البشر • وقد تخلصت من صائدي لله ، تخلصت من ذريّة الدعارة ، ام كل الخليقة تشق طريقها من جديـــد سمو وجلال • الارض لا تعرف الها ، لا احسان ، لا حب • الارض هي رحم خلق ويدمر • والانسان لم يخلق من الارض ، بل من الله • اذن دعوه يذهب ، عاريا ، محطما ، فاسدا ، مجزءا ، اكثر عزلة من اعمق عقيق •

ومع هذا فاليوم لا يزال القليل من التقدم والاختراع يرافقاني في مسيرتي لى قمة الجبل • وغدا ستنهار كل مدينة عالمية • غدا سيموت كل مخلـوق متمدن سيموت من السم او الفولاذ • اما اليوم فلا يزال بامكانك ان تغسلني بغنائيات الله الرائعة عن الحب • اليوم لا يزال هناك موسيقى الغرفة ، والحلم ، والهلوسة • الخمس دقائق الاخيرة ! حلم ، لحن فوغ بلا مقطـــع ختامي • كل نغمة تتعفن حتى الاضمحلال كحلم ميت معلق • غنغرينا غامر فيها لحن بنتانته المتقيحة • وحالما يشعر الكائن الحي بأن الموت صار في

متناوله يبدأ بالارتجاف نشوة . انها اثارة تتنامى حتى تصير تعاسة ظافرة ـ تعاسة فرقعة الموت ، عندما يصير الطعام والجنس واحد . انها الدوامة ! وفيها يغوص كل شيء وينزل غائرا معها الى الاعماق ! المتوحش البربري المجهول الذي بدأ من المحيط وانطلق يبحث عن ذيله ويتحرك مقتربا شيئا فشيئا بمسارات لولبية متاهية عظيمة حتى يصل الى المركز النهائي حيث يدور حول نفسه على محور الذات مع توهج يرسل فيضا نورانيا عبر جميع سرادقات الروح : يدور غول الروح وازميلها مجنونا ونهما ، يدور بشبق نابذ وضراوة الى أ ن ينطلق مدمدماً من خلال الثقب الموجود في مركز ذاته : ويغوص كحقيبة غاز ـ القبة السماوية ، القبو ، الدعامات ، الجلد ، الدم ، النسج ، العقل والقلب كلها هالكة ، مفترسة ، وغائبة تماما في عدمية نهائية .

هذه هي المدينة ، وهذه هي الموسيقى . يخرج من العلب السوداء الصغيرة نهر لا ينتهي من الرومانسية تبكي فيه التماسيح . الكل يسير يبغي قمة الجبل . بخطوة واحدة . ومن بيت القوة الاعلى يغمر الله الشوارع بالموسيقى . الله هو الذي يبعث الموسيقى كل مساء حالما نغادر اعمالنا . بعضنا يأخذ كسرة خبز ، واخرون ينالون رولز رويس . والكل يتجه نحو بوابات الخروج ، والخبز البائت مخزن في علب النفايات . ما الذي يحافظ على انسجام حركة أقدامنا ونحن في طريقنا الى قمة الجبل المشعة ؟ انها أغنية الحب التي سمعها الحكماء الشرقيون الثلاثة من المعلف . وكان رجل مقطوع الساقين ، مقلوع العينين ، يعزفها على ناي البيتشولو وهو يجري في شارع من المدينة المقدسة على زحافته الصغيرة . اغنية الحب هذه هي التي تنساب الان من ملايين العلب السوداء الصغيرة في اللحظة التاريخية الدقيقة بحيث ان حتى اخوتنا السمر الصغار في جزر الفليبين يمكنهم سماعها . اغنية الحب هذه هي التي تنفحنا القوة لبناء أعلى الابنية ، ولاطلاق اكبر البوارج الحربية ، ولاقامة الجسور عبر أوسع الانهار . هذه الاغنية هي التي تمنحنا الشجاعة على قتل ملايين البشر مرة واحدة بمجرد الضغط على زر . هذه الاغنية التي تزودنا بالقدرة على نهب الارض تاركين خلفنا كل شي يبابا .

أسير نحو قمة الجبل وأنا أدرس التقاطيع القاسية لابنيتكم التي ستنهار غدا وتتقوض ثم تتحول الى دخان . أدرس برامجكم عن السلام التي ستنتهي بوابل من اطلاق الرصاص . أدرس نوافذ مخازنكم البراقة المزدحمة بالمخترعات التي لن تكون لها غدا أية فائدة . أدرس وجوهكم المهترئة التي شوهها الكد ، وظهوركم المقوسة ، وبطونكم المتدلية . أدرسكم فردا فردا وضمن الحشد ـ وأي نتانة تفوح منكم ! نتانتكم هي كنتانة الله

بكلّ حبه الرحيم وحكمته • الله اكل البشر ! الله وحش البحر الذي يسبح مع عوائلـه !

الله هو ، ودعونا لا ننسى هذا ، الذي يدير مفتاح الراديو كل مساء • وهو الذي يغمر عيوننا بالنور الساطع المبهر • وقريبا سنكون معه ، نتقوقع في حضنه ، نتجمع في النعيم والابدية ، وحتى مع « الكلمة » ، كلنا سواسية أمام القانون • كل هذا سيحدث من خلال الحب ، الحب العظيم الذيَ تكون أقوى المحركات بالمقارنة معه مجرد بعوضة تطن •

والان سأغادركم وصرحكم المقدس • أنا ذاهب الان لاجلس على قمة الجبل ، لانتظر عشرة الاف سنة اخرى بينما انتم تجاهدون لشق طريقكم نحو النور • اتمنى ، في هذه الليلة فقط ، أن تخفتوا الاضواء ، وأن تخفضوا صوت المكبرات • هذه الليلة أود أن أتأمل قليلا في سلام وهدوء • أود أن أنسى لفترة وجيزة انكم تعجون في كل مكان من قرص عسلكم الذي يساوي خمسة دولارات وعشرة سنتات •

غدا قد تجلبون الدمار لعالمكم • غدا قد تغنون في الفردوس الكائن فوق خرائب مدنكم العالمية المدخنة • أما هذه الليلة فأود أن أفكر برجل واحد ، بفرد واحد ، رجل لا اسم له ولا وطن ، رجل أحترمه لانه لا يشترك معكم في أي شيء على الاطلاق ـ انه أنا بذاتي • هذه الليلة سأتأمل في كينونتي أنا •

لدفيسيين ـ كليشي ـ فيلا سيورا •

١٩٣٤ ـ ٣٥

الفهـــرس

دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - كورنيش المزرعة - بناية مويني - ص.ب ١١/٣٠٣١